أرنولد توينبي

الحرب والمدنية

ترجمة

أحمد سليمان

مراجعة

د. محمد أنيس

الكتاب: الحرب والمدنية

الكاتب: أرنولد توينبي

ترجمة: أحمد سليمان

مراجعة: د. محمد أنيس

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

توينبي، أرنولد

الحرب والمدنية / أرنولد توينبي، ترجمة: أحمد سليمان، مراجعة: د. محمد أنيس – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٢٧ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولى: ٦ – ٠٢ – ٦٨١٨– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٧٠١٣ / ٢٠٢٠

الحرب والمدنية



هذه ترجمة كتاب

War and Civilization

Arnold J. Toynbee

مقدمة

إن محتويات هذا السفر الصغير اقتبسها مستر ألبرت فولر بالتشاور ومع المؤلف من المجلدات السنة الأولى الكبيرة نسبيا لكتاب من المحتمل أن يقع في تسعة مجلدات من هذا الحجم الكبير حينما تنشر بقيته. إن هذه المقتبسات اختيرت لتوضيح ما يريد أن يقوله مؤلف و دراسة في التاريخ عن الحرب. وهذا الموضوع العام يجعل من هذه المقتبسات وحدة، ولكن القارئ لهذا الكتاب عليه أن يذكر أنه بقراءته لهذه المقتبسات لا يقرؤها بنصها الأصلي، وأن الحرب ليست الموضوع الرئيسي للسفر الذي أخذت عنه – على الرغم من أنه من المستحيل، وذلك مما يحز في النفس، أن ندرس تاريخ البشرية منذ ظهور مجتمعات الأجناس التي عرفت باسم المدنيات منذ خمسة أو ستة آلاف سنة، دون أن نجد أن مبدأ الحرب لا يقع في الصميم من جوهر هذا الموضوع المفجع.

وفي دراسة الكاتب لانهيار هذه المدنيات، أضاف إلى العوامل التي أدت إلى هذه النتيجة – وهذا ليس بكشف جديد – أن الحرب قد ثبت أنها أول عامل في انهيار كل مدنية عرف على وجه التحقيق أنها قد انهارت، بحيث أصبح في حيز الإمكان تحليل طبيعة هذا الانهيار، و تعليل حدوثه. ولقد كانت هناك أنظمة و تقاليد أخرى منحوسة الطالع بجانب الحرب تسبب فيها الإنسان نفسه خلال عصر مدنيته. وأول ما

يقفز إلى الذاكرة من هذه المصائب التي جلبها الإنسان على نفسه الرق. وعلى الرغم من أن الرق والطائفية والصراع بين الطبقات وعدم العدالة الاقتصادية وغير ذلك من الأعراض الكثيرة لنقمة الخطيئة الأولى[1] لعبت دورها كوسائل يعذب الأنساب بها نفسه بنفسه، فإن الحرب تحتل مكانها كأداة التعذيب الرئيسية بين هذه الوسائل جميعها التي استعملها الإنسان لتقويض قيمه الاجتماعية والروحية خلال عصوره التاريخية. وقد بدا الآن أن في قدرته أن يدرك هذا بجلاء تام.

إن دراسة مقارنة لسقوط المدنيات المعروفات ترينا أن الانهيار الاجتماعي إنما هو مأساة سبها الرئيسي الحرب. و يمكننا أن نقول دون أن نتجنب الصواب إن الحرب ما هي إلا وليدة المدنية، إذ أن إمكان شن حرب يفترض فيه سلفا أدني ما يمكن من التخطيط الفني والتنظيم مع فائض من الثروة فوق ما هو ضروري لإقامة الأود. وهذه المقدمات كانت تعوز الرجل البدائي. بينما نعلم من جهة أخرى أن ليس هناك من مدنية (ويمكننا استثناء مدنية قبائل المايا التي استقينا معرفتنا بها من شذرات متناثرة) لم تكن الحرب فيها نظاما ثابتا سائدا بالفعل في المراحل الأولى التي يمكننا الرجوع إليها حينما نرغب اقتفاء أثر أية مدنية.

والحرب كبقية الشرور لها طابع مخاتل، تبدو فيه كأنها ليست ما لا يحتمل، حتى تتمكن من القبض قبضا محكما على رقاب مدمنيها،

---

(1) الخطيئة الأصلية. خطيئة آدم وحواء.

بحيث لا تعود لهم قوة على الفكاك من قبضتها الخانقة حينما يكون تأثيرها المميت قد بدا لهم واضحا. وفي المراحل الأولى لنمو مدنية ما، نجد أن الفوائد الناتجة من الحصول على الثراء والنفوذ وبث الفضائل الحرية في النفوس، ربما تربو على ما تتكلفه الحرب من أموال وما تجلبه من آلام. ولذلك فإن الدول غالبا ما تجد نفسها قادرة على خوض غمار الحرب مع بعضها البعض، مع قدرتها نوعا ما على التنصل من أضرارها، حتى ولو كانت الفريق المغلوب. إن الحرب لا تبدأ في إظهار خبثها إلا بعد أن يكون المجتمع المحارب قد بدأ يزيد من قدرته الاقتصادية ليستغل طبيعته المادية، ومن قدرته السياسية لتنظيم قوته البشرية. ولكن بمجرد حدوث هذا فإن إله الحرب، الذي كرس له المجتمع النامي حياته من أمد بعيد، يثبت أنه إله ضحايا بابتلاعه نصيبا أكبر من الثمار المزايدة لكد الإنسان وقريحته، في عملية تقاضيه ضرائب أكبر من حياة الإنسان وسعادته. وحينما يصل نمو المجتمع إلى درجة من الكفاية يصبح معها قادرا على تجنيد كمالك من نواحي نشاطه وموارد للاستعمال الحربي، حينئذ تبدو الحرب كأنها سرطان ميت لفريسته، إن لم تستأصله و تبعده عنها. إذ أن أورامه الخبيثة تنمو بدرجة أسرع من الأنسجة السليمة التي تتغذى عليها.

وفي الماضي حينما كانت تتحرج الأمور، و تصل العلاقات بين الحرب والمدنية إلى نقطة الخطر، كانت تبذل أحيانا جهود جادة في الوقت المناسب لتفادي الحرب لإنقاذ المجتمع من ويلاتها. وقد كانت هذه الجهود تسلك إحدى سبيلين لا ثالث لهما. إن الخلاص لا يمكن

أن نبحث عنه إلا في ضمائر الجنس البشري. ولكن الأفراد لهم الخيار بين أن يحاولوا تحقيق أهدافهم عن طريق العمل المباشر كأفراد، أو أن يحاولوا تحقيق هذه الأهداف عن طريق العمل الغير مباشر كمواطنين. إن امتناع الشخص عن الإسهام بأية طريقة في أية حرب تشنها الدول لأي غرض أو تحت أية ظروف، هو نوع من استنكار شريعة الحرب، تلك الشريعة التي قد تستهوى طبيعة متحمسة مشبعة بروح التضحية بالنفس. أما خطة تحقيق السلام الثانية التي تتلخص في بذل الجهود لحث الحكومات وتعويدها على الاشتراك معا في مقاومة العدوان حين وقوعه، وفي محاولة إزالة بواعثه مقدما فقد تبدو ملتوية، وليست بالطريقة التي تتجلى فيها البطولة لعلاج هذه المشكلة. ولكن في رأي الكاتب أن التجارب في أيامنا هذه تبين بدرجة لا يجانبها الصواب أن السبيل الثاني من هذه السبل الوعرة هي السبيل التي تبشر بنجاح أعظم بكثير.

إن أوضح عقبة ظاهرة للعيان في سبيل إستراتيجية النزعة السلمية هي ذلك الشيب المخيف الذي يكون لزاما على دعاة السلم أن يواجهوه فيما لو أثمرت جهودهم وهو أن أول آثار هذه النزعة سيكون نتيجته وضع الدول التي كانت للنزعة السلمية هيمنة سياسية كبيرة تحت رحمة تلك الدول التي كانت فيها تلك النزعة نزعة واهنة. وهذا معناه تهيئة الفرصة لحكومات تلك الدول الحربية الجاهلة التي لا ضميرها إطلاقا أن تسود العالم في أول فصل من فصول الرواية. ومواجهة هذه النتيجة المتوقعة و تقبل عواقبها السريعة يحتاج إلى حكمة واعية وبطولة سلبية من نوع البطولات التي قد أبداها القديسيون والتي ليست أبدا في طوق

رجل عادي من جمهرة الناس. ومما لا مراء فيه، أن الشعوب كثيرا ما استسلمت برمتها الآلام والأحزان من جراء ما يقع عليها من اضطهاد على يد غزاة غلاظ القلوب همج إذا قيسوا بضحاياه، إن العالم في سنة ١٩٤٠ كان على شفا الخضوع لسيطرة ألمانيا النازية، التي كانت تتحكم فيها روح هتلر الشيطانية. ولكن علينا فقط أن نستعيد ذكرى ضبط النفس الذي كان يسود فرنسا وبريطانيا خلال سني سياسة التهدئة، وبعد ذلك فرنسا في عصر حكومة فيشي، لنتحقق أنه بين الدوافع التي توحي برفض إجماعي لمقاومة الاعتداء الحربي بقوة السلاح دفاعا عن النفس يلعب الخوف القديسي اللا أناني من ارتكاب خطيئة الحرب دورا أقل بكثير من نفور الرجل العادي الطبعي من أن يطلب منه أن يدفع الثمن المرعب الذي تتقاضاه الحرب دما ودموعا.

ورغبة الإنسان في دفع هذا المن هو أساس ما يسمى بالفضائل الحربية التي لا يمكن أن تنشب الحرب دونها والتي لولاها أيضا لكان من المؤكد ألا يغتفر الرأي العام و شهور غالبية البشر لهذه الشريعة الشريرة آثامها. إن هذه التسمية التقليدية للفضائل الحربية هي بلا شك تسمية مضلله. إن جميع الفضائل التي تجلها الحرب تظهر في نواح أخرى من نواحي الاتصال والمعاملات بين الناس بعضهم ببعض بمدى غير محدد. بيد أن إبداء الجنود لهذه الفضائل قد ثبت أنه غالبا إبداء يتسم بالقسوة والاغتصاب والعديد من الرذائل الأخرى. إن النتيجة التي يمكن توقعها من جدل على مستوى سام قد يقع بين محارب يحبذ القوة وقديس يعمل على تجنبها، هي انتصار أدنى للقديس شمر ثمارا عملية

في المستقبل. و لكن لسوء حظ الإنسانية أن الممثلين في تمثيلية السلام والحرب اللذين نتخذهما مثلا نحتذيه، ليسا بمحارب وقديس يرتدى كل منهما رداء الاستقامة، بل هما المحارب – فاضلا كان أم شريرا – الذي به من الشجاعة ما يدفع به إلى المخاطرة بحياته مخاطرة تامة، والرجل العادي الذي يجفل مما تسببه الحرب له من عناء وخطر. وإنه لمن الأفضل كما تبين في سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٤٠ للشخص غير المتحمس لفكرة الحرب الذي يدفعه إلى تجنبها ضعف الطبيعة البشرية، لا الخوف من ارتكاب الخطيئة، أن يحاول بأية حال أن يرتفع إلى مستوى الشخص المحارب، إذا تيقن أن حالة القداسة ليست في متناوله.

وعندما ارتفعت الشعوب غير المعتدية إلى مستوى المحاربين في الحر بين العالميتين الأولى والثانية، أمكن لها مباشرتها للفضائل الحربية الرئيسية مباشرة سامية أن تهزم مرتين إمبراطورية حربية ظلت أمدا طويلا تستعد لاكتساح العالم. وقد هيأ هذان الانتصاران المتتاليان، اللذان دفعت هذه الشعوب لها ثمنا باهظا من الدم والدموع، الفرصة مرتين لمجتمعنا ليتخلص من الحرب عن طريق أفضل من الاستسلام لسلام عام يفرضه قاهر للدنيا بالقوة. لقد أفلتت الفرصة الأولى من أيدينا، وكانت الحرب العالمية الثانية هي جزاء ما ارتكبته عقولنا و قلوبنا من خطأ فاضح. أما الفرصة الثانية فلا تزال بين أيدينا، فهل ستقتنصها ؟ إن ما يتطلبه الموقف بوضوح إنما هو اتحاد اختيارى للشعوب المحبة للسلام في العالم، اتحاد له من القوة والترابط ما يكفي لإحباط أي هجوم من

يعارضون ميثاق هذا الأمن الجماعي أو من لا يرعونه. وهذه القوة العالمية للمحافظة على السلام لا يكفي أن تكون لها قوة راجحة بدرجة تكفي لأن تجعل الهجمات التي توجه ضدها هجمات ميئوس منها نسب، بل عليها أيضا أن تتسم بقسط كاف من العدالة والحكمة في استعمالها لقوتها، لتجنب إثارة أية رغبة خطيرة في تحدي سلطتها.

إن هذا العمل مع عظمه ليس فوق طاقتنا. إن نجاح الإنسان في سلف في جعل الدول المستقلة ذات السيادة الكاملة تدخل مع بعضها البعض، في اتحاد اختيارى، إنما هو ضمان لنا بأن الخبرة والخطط الفنية هي في متناول أيدينا. إن لدينا القدرة إذا وجدت لدينا الإدارة. إن مصيرنا في أيدينا.

آرنولد. ج. توينبي

لندن – يونيو ١٩٥٠

الفصل الأول

عالم اليوم المصاب بحمى الحرب

إننا بخلاف أجدادنا نشعر في عصرنا الحاضر من أعماق قلوبنا أنا الآن في حاجة ملحة العالم يسوده السلام. ونحن نعيش اليوم في خوف دائم من كارثة نخشى أن تداهمنا، إذا ظلت مسألة تحقيق الرغبة الملحة دون حل أكثر من هذا. ولكننا لن نكون مبالغين إذا قلنا إن شبح هذا الخوف الذي يلقي ظلالا على مستقبلنا يخدر نا نفسيا، ويؤدي بنا إلى شلل روحى بدأ يؤثر علينا حتى في أعمالنا اليومية التافهة. ولو أننا استطعنا مواجهة هذا الخوف بشجاعة، فإن جزاءنا لن يكون أن نجد أنفسنا قادرين على الاستهانة به وإبعاده عنا كأنه مجرد هلع نفساني، فالحقيقة التي لا سبيل إلى إنكارها هي أن حدة هذا الخوف لها ما يبررها.

إننا في خوف رهيب من المستقبل القريب بسبب التجربة المرعبة التي خضنا غمارها في الماضي القريب. وإن الدرس الذي لقنتنا إياه هذه التجربة إنما هو درس مرعب. ولقد تعلمنا حقيقتين ناصعتين في عصرنا هذا بسبب ما صادفناه من آلام : أولاهما أن شريعة الحرب مازالت في أوج قوتها في مجتمعنا العربي، و ثانيتهما أنه في العالم الغربي بحالته الاجتماعية والفنية الراهنة، لا يمكن أن تنشب حرب دون أن تكون هذه

الحرب حربا مدمرة. وقد أصبحت هاتان الحقيقتان لا مراء فيها بعد التجارب التي قاسيناها في الحربين العالميتين الأولى والثانية. لكن أعظم ما ينذر بالويل والثبور هو أن هاتين الحربين لم تكونا خطوبا منفصلة أو لا سوابق لهما. إنهما كانتا حلقتين في سلسلة. وحينما نستعرض هذه السلسلة بأجمعها استعراضا إجماليا فإننا نكتشف أنها ليست سلسلة حسب، ولكنها أمر مطرد. إن الحروب في تاريخ العالم الغربي الحديث امتازت بالتتابع و التزايد في الضراوة. ويبدو لنا الآن جليا أن الحرب العالمية الثانية لم تصل إلى ذروة هذه الحركة التصاعدية. وإذا استمر هذا التسلسل، فإن هذا التالي سيرتفع إلى درجات أعلى، حتى تنتهي عملية اطراد أهوال الحرب يوما بإبادة المجتمع المحارب لنفسه بنفسه.

ونستطيع الآن أن نذكر أنفسنا أن هذه السلسلة المتتالية من الحروب الغربية التي كانت أحداثها، وقد لا تكون آخرها، حرب ١٩٣٩ – ١٩٤٥، إنما هي أحد فصلين في رواية درسناها من قبل في سياق آخر. لقد شاهدنا أن تاريخ الأعمال الحربية في العالم الغربي فيما يسمى بالعصر الحديث، يمكن تقسيمه إلى دور تين تنفصلان عن بعضهما البعض زمنيا بقترة من الهدوء، كما تتميز أن نوعيا عن بعضهما البعض باختلاف هدف كل منهما في إثارة العداوات أو في مبرراتها. وتتكون الدورة الأولى من الحروب الدينية التي بدأت في القرن السادس عشر وتوقفت في القرن السابع عشر. و تتكون الثانية من الحروب الدولية التي بدأت في القرن الثامن عشر وما زالت سوط عذاب لنا في القرن العشرين. وقد تخللت هاتين الدورتين من الحروب التي تميزت بالوحشية

فترة حروب معتدلة أثارتها أهواء الملوك. ومن الواضح أن هذه الفترة لم تبدأ في القارة الأوربية إلا بعد أن انتهت حرب الثلاثين عاما سنة ١٦٤٨م، كما أنها لم تبدأ في بريطانيا إلا بعد عودة الملكية في إنجلترا سنة ١٦٦٠ م. ومن الواضح أيضا أن هذه الفترة من الهدوء لم تتجاوز نشوب حروب الثورة الفرنسية سنة ١٧٩٢، وحتى بقاؤها إلى أما بعد حرب الاستقلال الأمريكي سنة ١٧٧٥ – ١٧٨٣ م مسألة فيها نظر. وإذا أخذنا بالتقدير الأقل، فإن فترة هذا العصر الذهبي المعتدلة خلال القرن الثامن عشر تمتد بين عامى ١٧٥٥-١٧٣٢، وذلك إذا اعتبرنا مسألة طرد الأقلية البروتستنتية من مقاطعة سالزبرج الكاثوليكية عام ١٧٣١، ١٧٣٢م آخر عمل إيجابي من أعمال الاضطهاد الديني في أوربا الغربية، واعتبرنا طرد السكان الفرنسيين من أكاديا عام ١٧٥٥م أول عمل إيجابي من أعمال الاضطهاد المنبعثة من الروح القومية في أمريكا الشمالية. وعلى أية حال فإن هذه الفترة فترة ملموسة يمكن إدراكها بسهولة، و مهما وقع اختيارنا على معالم اصطلح عليها أساسا للتحديد الزمني لها. فسنجد أنها رواية تقع في ثلاثة فصول متتابعة، و تتابع هذه الفصول يمثل موضوع الرواية نفسها. إن ما تنطوي عليه هذه الرواية هو الظاهرة التي تهمنا في غرضنا الحاضر لا التوقيت السطحي لها. وهذه التمثيلية ذات الفصول الثلاثة، بدورتها من الحروب التي تميزت بوحشيتها، وبما تخللتهما من فترة حروب معتدلة تمثل في نظرنا نوبتين من مرض تخللتهما فترة تنفس فيها المريض الصعداء. و هاتان النوبتان دمغتا بطابع و وقت المتاعب و الذي يعقب انهيارا ما. ولو أننا

خصنا على ضوء هذا صورة تاريخ عالمنا العربي الحديث، لوجدناها صورة لا حسن فيها بأية حال من الأحوال.

وإذا اعتبرنا قيام الحروب الدينية في القرن السادس عشر عرضة من أعراض الانهيار الاجتماعي، في استطاعتنا أن نرى في الحركة المناصرة التسامح الديني التي كانت لها اليد العليا، أول لم شعث المجتمع أورى منحل. وقد وضعت تلك الحركة نهاية لتلك الحروب الدينية في القرن السابع عشر وإن هذا الانتصار الذي أحرزه مبدأ التسامح في الناحية الدينية أكسب في الوقت الملائم عديدة من الأجيال المتعاقبة تلك الفترة من الاعتدال التي هيأت للعالم الغربي الذي كان يتن بالأوجاع، فترة تنفس فيها الصعداء، استقبلها بالترحاب بين النوبة الأولى والثانية من مرضه الذي ينتابه انتيابا مميتا.

وإن هذا ليصدق أيضا عندما نلاحظ أن الإفاقة من النوبة كانت إفاقة وقتية غير دائمة، وكذلك عندما تستمر في البحث عن العلة في ذلك. والدراسة التجريبية لسير العملية الانحلالية تؤدي بنا إلى أن نتوقع أن يصاب الجمع الذي لم شعثه بنكسة، كما تؤدي بنا أيضا إلى أن نتوقع أن نجد لهذه القصة المطردة من الفشل أطرادا متناسقا إيضاحا نشأ في كل حالة عن عنصر معين من عناصر الضعف سبب تفرق هذا الجمع الذي لم تتكامل له عوامل النمو. ولنا أن نتساءل هل ينطبق هذا على ما حقق من آمال توقعناها في العالم الغربي ؟ إن علينا أن نجيب عن هذا التساؤل بأن السبب في فشل لم الشعث في هذه الحالة أيضا واضح وضوح التجمع نفسه. فقد فشل مبدأ التسامح الغربي الحديث على

الرغم من ذلك في جلب الخلاص، وذلك لأنه كان غير سليم – وهذه حقيقة يجب أن نعترف بها. فإن الروح التي سادت التفكير فيه والتي سادت مولده كانت روح التخلص من الأوهام الخاطئة، وروح إدراك للحقائق، وروح عدم اكتراث، ولم تكن روحا يتمثل فيها الإيمان والأمل والإحسان. إن الدافع إليه كان دافعا سلبيا لا إيجابيا، وكانت التربة التي تلقت بذوره تربة قاحلة. وينطبق على هذا قول المسيح عليه السلام في موعظته عند البحر.

" وسقط آخر على مكان محجر، حيث لم تكن له تربة كثيرة، فنبت حالا، إذ لم يكن له عمق أرض. ولكن لما أشرقت الشمس أحترق، وإذا لم يكن له أصل جف[1] ".

إن مبدأ التسامح الذي كست خضرته فجأة ودون توقع قلب مسيحيتنا الغربية الحديثة المتحجر، حينما أكلت شمس التعصب الديني العاتية نفسها وتحولت إلى رماد ورمضاء، قد ذوى وذبل فجأة كذلك دون توقع كما نبت، وذلك لأن شمس التعصب القومي الأشد توهجا وعتوا قد بدت في الأفق. إننا في القرن العشرين ننظر إلى تسامح القرن السابع عشر نظرتنا إلى تسامح قد استسلم استسلاما دون قيد أو شرط الشيطان قاهر عجز عن مقاومته. وسبب ذلك الوهن المدمر واضح جلي.

إن هذا التسامح، الذي لم ينبع عن عقيدة وإيمان، فشل في غزو

---

(1) إنجيل مرقس، الإصحاح الرابع أعداد ٥، ٦

قلوب الغربيين، إذ أن الطبيعة البشرية تمقت الفراغ الروحي. فلو أن بيتا خرج منه شخص ذو روح شريرة ترك خاويا وكنس وزخرف، فإن المالك المبعد إبعادا مؤقتا، يرجع إليه ثانية عاجلا أم أجلا، حاشية من أرواح أخرى هريرة أشد سوءا منه، وتصبح حال هذا الرجل الأخيرة أسوأ من حاله الأولى. إن الحروب القومية أسوأ من الحروب الدينية لأن هدف العداوات فيها أو مبرراتها أقل خامة وسموا. إن المغزى الذي نستقيه من هذا هو أن النفوس الجائعة التي ألقمت حجرا عندما طلبت خبزا لا يمكننا أن نمنعها عن التهام أول جيفة تصادفها لإشباع جوعها، وإذا حذر الشخص، الذي أعطى الحجر هذه النفوس، بأن تلك الجيفة التي أهدتها له السماء إنما هي جيفة مسمومة، فإن هذا التحذير الصادر منه لن يكون ذا جدوى في منعهم عنها. وحتى حينما تبدأ الآلام في تمزيق أحشاء هؤلاء الطاعمين على هذه الجيفة، فإن هذا لن يثنيهم عن التهام هذا اللحم الملوث بشهية غير منقوصة حتى يضع الموت، حدا لشرههم – كما حدث مرة لجيش آثيني منهزم في صقلية – حينما أخرجه الظمأ عن صوابه وهو يجتاز أماكن لا ماء فيها، ويبحث عن الراحة فلا يجسد لها سبيلا، فما كان منه إلا أن شرب دون مبالاة من مياه نهر آسيناريوس بينما يرشقهم العدو من ضفة النهر فيرديهم وقد أحمر ماء النهر و تلوث بدماء الشاربين الموتى من رفقائهم الذين لقوا حتفهم من قبل.

ومع ذلك فهناك نقطة أخرى يتفق فيها تاريخنا الغربي الحديث مع الطابع الذي يتسم به «وقت المتاعب،، الذي ينتاب مجتمعا ينخر الانحلال في عظامه. وربما كانت هذه أشد نقط التطابق إثارة للانزعاج،

إذ أن استقصاءنا للحوادث قد أرانا أن التوبة التي تلي فترة التنفس تكون عادة أشد من النوبة التي تسبقها. وهذه القاعدة توضيحها بلا شك حالتنا نحن الغربيين إذا اعتبرنا الحروب القومية بمثابة النوبة الثانية من نوباتنا المرضية، والحروب الدينية بمثابة النوبة الأولى منها.

إن أسلافنا الذين قاموا بسلسلة الحروب القديمة التي تميزت بالوحشية قد لا يكونون أقل منا رغبة في التدمير ولكن لحسن حظهم وحظ سلالاتهم كانت تعوزهم الوسائل التي في حوزتنا لسوء حظ أولادنا وأنفسنا. وما لاشك فيه أن الحروب الدينية كانت أسوأ بكثير من الحروب الغربية في عصور سابقة حينما كانت المسيحية ما زالت في طور النمو. وكانت هذه الحروب الدينية أسوأ من ناحية ما سادها من غل وحقد، وما تهيأ لها من موارد، ومن القدرة الفنية على تحويل هذه الموارد إلى أدوات فعالة. إن اختراع البارودو الرحلات الاستكشافية التي كان من شأنها أن وسعت من الناحية المادية على الأقل مجال المجتمع الغربي من ركن صغير في قارة أوراسيا بحيث أصبح يشمل الأراضي التي تقع عبر جميع البحار الصالحة للملاحة على وجه البسيطة، جعلا من الحروب الدينية أمرا متوقعا. إن الكنوز الذهبية الي كانت متراكمة في خزائن تدنو تشتتلان و كوزكو أنفقت في النهاية في استئجار جنود مرتزقة لتخوض غمار الحروب الدينية على أراضي القارة الأوربية، بعد اكتشاف أمريكا الوسطى وولايات الأنديز وفتحها والاستيلاء على كنوزها بالغزاة الأسبان. وهذا بالضبط شبيه بما حدث بعد التوسع الجغرافي المماثل للإمبراطورية الإغريقية نتيجة لحروب الإسكندر، حينما وجدت الكنوز

المتراكمة في اكاتانا وسوسا، نتيجة لسياسة الإمبراطورية الفارسية القديمة، طريقها إلى أيدي الجنود المرتزقة التي اشتركت في حروب قواد الإسكندر وسلالة جنوده في المستعمرات الأسيوية، في المعارك التي دارت رحاها في الإغريق. إن احتراف الجندية الذي ساد العالم الغربي في القرن السادس عشر والسابع عشر نتيجة لهذا الازدياد الضخم المفاجي فيما كان يرد على العالم الغربي من المعادن الثمينة لم يكن أوسع مدى من الميليشيا العسكرية الإقطاعية القديمة التي كانت تسود أوربا الغربية عبر جبال الألب فحسب، بل كان أسوأ وأشد تسلحا وضراوة ضد العدو الذي كان في نظر عدوه الآخر لا يعتبر مجرد خصم محارب بل مارقا دينيا كذلك. إن القديس لويس والإمبراطور فردريك الثاني. لو أنهما قاما من قبرهما ليشهدا الحروب الغربية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، لاعترتهما صدمة عنيفة لو شهدا القسوة التي لا سابقة لها التي اصطبغت بها الحروب الدينية نتيجة اجتماع عوامل متعددة. وفي استطاعتنا أن نفترض أيضا ونحن على ثقة مما نقول أنه لو بعث كل من دون ألفا، وجوستاف أودلف ليشهدا بدورهما الحروب القومية التالية لاعترتهما نفس الصدمة. إن نوبة الحروب الوحشية الغربية الحديثة التي بدأت في القرن الثامن عشر والتي لم تقف عجلتها في القرن العشرين كان سبب بلوغها هذه الدرجة من الوحشية التي لم تعهد من قبل قوة الدفع الهائلة لقوتين أثرتا تأثيرا كبيرا في مجرى الحروب في العالم الغربي، وهما الديمقراطية والحركة الصناعية، في أيامنا الحديثة هذه التي أتم فيها العالم حقا عمله العظيم من شمول نشاطه المادي وجه

الأرض جميعها وما عليه من بشر. إن حالتنا الأخيرة أشد سوءا من حالتها الأولى، لأننا في هذا المنزل الواسع الأرجاء تستحوذ علينا شياطين أشد هولا من أية شياطين عهدها أسلافنا حتى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر.

وهل قدر لهذه الشياطين أن تقطن بيتا مزخرفا فارغا خاويا حتى تدفع بنا إلى الانتحار ؟ إنه ليبدو إذا تغاضينا عن الترتيب الزمني في بحث أوجه التجانس بين أوقات المتاعب في تاريخ حضارتنا الحديثة، وأوقات العناء في الحضارات الأخرى، أن أوقات العناء في العالم الغربي، التي يظهر أنها قد بدأت خلال القرن السادس عشر، ينتظر أن تجد خاتمتها يوما ما في القرن العشرين. وهذا الأمل يجعلنا نرتعد و جلا، وذلك لأنه في حالات أخرى كانت الخاتمة العظيمة التي وضعت حدا لوقت المتاعب، وأحلت محله دولة عامة، عبارة عن ضربة قاضية أصاب المجتمع بها نفسه، ضربة لم يكن في استطاعة المجتمع المصاب الإفاقة منها. فهل يجب علينا نحن أيضا أن نشتري السلام العالمي بهذا الثمن الباهظ المميت ؟ إن هذا السؤال هو سؤال لا تستطيع شفاهنا أن تنطق بالإجابة عنه، إذ أن المصير الذي ستنتهي إليه كل مدنية حية بالنسبة للأشخاص الأحياء هو مصير غامض حتما. إن غموض هذا المصير بالنسبة لهم يعادل الغموض الذي يحيط بمصير مدنية اندثرت بالنسبة للعلماء حينما تكون مستنداتهم الوحيدة التي يستعينون بها في أبحاثهم رقاعا مكتوبة لم تحل رموزها، أو آثارا صماء. إنه ليس في استطاعتنا أن نؤكد أن نهايتنا وشيكة، ومع ذلك فليس لنا ضمان أنها ليست كذلك،

وذلك لأننا لو فعلنا ذلك لكان معناه ادعاءنا أننا لسنا كبقية البشر. وادعاء كهذا سيكون على نقيض أي شيء نعرفه عن الطبيعة البشرية، سواء كان ذلك عن طريق التدبر فيا حولنا، أو عن طريق التعرف على دخيلة الإنسان.

إن هذا الشك البهيم هو تحد ليس في طاقتنا تجنبه و يتوقف مصيرنا على ما فينا من استجابة له.

إن جون بينان في أقصوصته عن حياة ذلك المسيحي الذي أطلق عليه اسم كريستيان، يحكي لنا ما قاله كريستيان عن حلم رآه :

" رأيت في حلم رجلا يلبس ثيابا رثة واقفا في مكان معين، وقد أشاح بوجهه بعيدا عن بيته، وأمسك بكتاب في يده، وفوق ظهره حمل ثقيل. نظرت فرأيته يفتح الكتاب ويقرأ فيه ، وينا هو يقرأ انتحب واعتر ته رعدة. ولكونه لم يعد في مقدوره أن يضبط نفسه انفجر صائحا صيحة أسي وقال : ما عساي أن أفعل ؟ ".

وكان هذا الأسى البالغ لهذا المسيحي له ما يبرره، انظر إليه في موضع آخر يقول :-

ولقد أخبرت يقينا أن مدنيتنا هذه ستأتي عليها نيران من السماء، وستلتهم هذه النيران كلا منا ومنك يا زوجتي وأطفالي الأعزاء، ما لم نجد طريقة ما نستطيع الخلاص بها ".

وما عسى أن يفعل كريستيان أمام هذا التحدي ؟ أتراه يقلب ناظر به

هنا وهناك كمن ينشد الفرار، ولكنه يقف ساكنا لا يتحرك لا يدرى أي طريق يختار حتى تنقض النار على المدنية المقدر لها الخراب، ويهلك هذا الثرثار البائس في موت شامل قد تطير منه بشكل ينذر بالويل والثبور، دون أن يستطيع النجاة بنفسه من الغضب المنصب ؟! أم تراه سيجرى، ويجرى وهو يصيح الحياة، الحياة الخالدة أو عينه تنظر إلى نور مشع، وقدمه تسعى نحو منفذ ضيق ؟ وإذا كانت الإجابة عن هذا السؤال تتوقف على كريستيان دون سواه، فإن علينا بتجانس الطبيعة البشرية تجعلنا نميل إلى التنبؤ بأن مصير كريستيان الوشيك الموت دون الحياة. ولكن الرواية القديمة للقصة ترينا أن مثل البشرية هذا لم يترك لإمكانياته الذاتية في اللحظة الحاسمة من مصيره. وطبقا لما رواه جون بنيان، فإن كريستيان يجد الخلاص مقابلته البشر. وبما أنه من المسلم به أن الطبيعة الإلهية لا تقل وفاء عن الطبيعة البشرية، فإنه في إمكاننا بل ويجب علينا أن نصلى داعين الله أن يمن علينا بالخلاص الذي منحه الإله مرة للبشرية. ولن يضن به مرة أخرى، إذا ما تضرعنا إليه بنفس منسحقة و قلب كسير.

الفصل الثاني

النزعة الحربية والفضائل الحربية

إن النزعة الحربية نزعة انتحارية، وهذه قضية من النادر أن تكون موضع جدل من أي شخص لرأيه قيمة. ولكن إذا كانت هذه قضية مسلم بها تقريبا، فمن غير المحتمل إذن أن نهتدي إلى حل للمشكلة الخلقية التي توجدها لنا شريعة الحرب. فالواقع أن كلمة الروح الحربية في ذاتها لا تتضمن أن هذه الطريقة الانتحارية الشريرة في استعمال القوة هي الطريقة الوحيدة. إنها بالأحرى انحراف –. من الواجب أن نصيغ له اسما خاصا – انحراف الشريعة لم تبرهن الأيام على أنها شر في حد ذاتها. وهذا الانحراف ناتج عن كونها تلقي بنفسها في أحضان من يستعملونها استعمالا وحشياً.

هل الحرب في ذاتها شر حقيقي لا يمكن تفاديه ؟ إن هذا سؤال لا يمكن باحث في التاريخ أو أي فرد في مجتمعنا الغربي في جيلنا الحاضر أن يتحاشاه، إذ أن هذه هي المشكلة الدقيقة التي يتعلق بها مصير حضارتنا. وقد آن الأوان الذي يجب علينا فيه أن نواجهها. ولكن قبل الشروع في بذل الجهود لمواجهتها، يجب أن نتأكد من أننا قد حسبنا حسابا لكل ما ستصادفه من صعوبات.

إن الصعوبة الكبرى بلا شك هي أهمية الفضائل الحربية ووجودها

البين. إنها تواجهنا حقيقة ضخمة لا يمكن التقليل من شأنها أو التخلص منها بتبريرها. إن من الحقائق الشائعة بين حقائق علم الاجتماع الشعبي ما لوحظ من أن الشعوب والطوائف والطبقات التي تتصف بالنزعة الحربية جديرة بأن تنال من إعجابنا أكثر ما يناله جيران لهم يكتسبون عيشهم عن طريق أعمال لا تستلزم المخاطرة بحياة الإنسان في محاولة انتزاع حياة شخص آخر. حقا إن هناك طرازا لضابط إنجليزي – بري أو بحرى – تتمثل فيه رقة الشعور بالشرف، و التقدير لزملائه من أفراد الجنس البشري وشفقته بالحيوانات (مع أنه يتخذ من قتلها رياضة يمارسها)، كان الناس فيما مضى يعتبرونه لمدى قرنين على الأقل أرفع طراز إنجليزي أثمرته المدنية الغربية المسيحية. وليس في الاستطاعة ازدراء هذا الإعجاب وإبعاده عن أنفسنا كشعور ساذج يجب الترفع عنه. وإذا نحن نظرنا إليه نظرة جدية دون تحيز، فمن المؤكد أننا سنزداد يقينا أنه يستحق هذا الإعجاب، فالفضائل الحربية ليست فضائل ذات فصيلة مستقلة بذاتها، إذ أنها فضائل في كل ناحية من نواحي الحياة. إن الشجاعة و هي أبرز هذه الفضائل إنما هي فضيلة أساسية في كل عمل يشرع الإنسان في عمله، والفضائل الأخرى التي نسيناها للكولونل أو الكمودور[1] الذي تضمنته الأسطورة إنما هي فضائل من الواضح وجوب التحلى بها في الحياة المدنية كما في الحياة الحربية. إن الكولونل نيوكوم، والفارس بايارد، وقلب الأسد، ورولاند، وأولاف تراجفازون، وسجفريد، وروجيولوس، وليونيداس، و باراب سنغ، وبريثيراج، وجلال

---

(1) قائد العمارة البحرية

الدين ما نقوبيرني، وعبد الله البطل، ويوشيتسيون ميناموتو، وكوانج يو، مجموعة ما ألطفها من مجموعة وما أكبر الحيز الذي تشغله في الإطار التاريخي لهذه الجنسية أو السنة الآلاف عام التي بدأ الإنسان فيها قصة حضارته.

ماذا نحن فاعلون في هذه الخلة من تقاليدنا الاجتماعية التي كانت لا تزال حتى الأمس تلهم أبطالا كهؤلاء، والتي لا تزال اليوم تدفع ما بقي منا إلى الإعجاب بهم ؟ لو أردنا أن نفهم قيمة الفضائل الحربية أو ما تقابل به هذه الفضائل من إعجاب يتسم بالإخلاص، فما علينا إلا أن نهتم بأن ننظر إليها في وضعها الاجتماعي الطبيعي، وحينئذ تتجلى لنا بيسر إحدى الظواهر الواضحة التي تتفق وتساءلنا الحالي. وتتلخص هذه الظاهرة في أن الفضائل الحربية تغرس في النفوس ويعجب بها في ذلك الوسط الذي لا تميز فيه أفكار الناس تمييزا دقيقا بين القوى الاجتماعية والقوى الطبيعية اللابشرية والذي يعتقد الناس فيه في نفس الوقت اعتقاد مسلما به أن القوى الطبيعية ليست خاضعة للسيطرة البشرية. أنظر إلى هذه النبذة من خطاب مرسل من مستر ج. هـ. جاثورن هاردي يقول فيه:-

"كان الجميع تقريبا حتى العصور الحديثة يعتبرون الحرب في ذاتها أمرا طبيعيا ليس في حاجة إلى تبرير. إن مضارها وأهوالها كانت في الحقيقة أمورا معترفا بها، ولكنها كانت على أسوأ الفروض تعتبر شر لابد منه، ومصيبة وسوط عذاب صبه الله لا يختلف في طبيعته عن الطاعون الذي لا يمكن تجنبه. وإنه لمن الحق أن هذه هي الطريقة التي كان ينظر

بها إلى الحرب مجتمع مهدد بالفيكنجز أو بجيران معتدين أخر. ولم يكن هناك من وجهة نظر الفريسة فرق من حيث المبدأ بين الغارات المفاجئة لمثل هؤلاء الناس، وبين غارات سرب من الجراد أو أسراب من جراثيم الأمراض. ولكن هذا كان من شأنه أن يجعل من الطبيعي بدرجة أكثر أن يبجل الناس ويوقروا شجاعة شخص مثل ألفرد أو شارلمان استطاع حماية شعبه من كارثة في مثل تلك الظروف. وقد كان القتال حتى العصر الحديث يعتبر من مستلزمات الحياة المطلوب أداؤها من الإنسان وعارضا من عوارض الوجود الإنساني يصعب تصور إمكان إلغائه، وذلك على الرغم من أن مبررات إثارة حرب معينة من الممكن أن تكون محل مناقشة، وعلى الرغم من إدراك الناس لمشقات الحرب ومصاعبها. وفي مثل هذه الظروف على الرغم من أنه قد يكون هناك قليل ممن كانوا يطرون الحرب، إلا أن كل فرد كان يقدر المحارب، وكان يخضع طوعا لقيادته وسيطرته. وكان الالتحاق بالجيش حتى القرن التاسع عشر يعتبر تقريبية المهنة الوحيدة المباحة للسيد، وكان السيد ينظر إليه كشخص لائق لأن يرتدي درعا".

والسيد العالم الذي أبدى هذه الملاحظات لمؤلف هذا السفر يستمر في سياق الخطاب نفسه في مقارنة واضحة بين الحرب والرياضة فيقول :-

"في عصور ما قبل التاريخ قبل استئناس الحيوانات كان الصياد يؤدى عملا ضروريا جدا في تزويد الإنسان بالطعام.ولما كان الإنسان محاطا ببرابرة مغيرين، كان الجندي يساعد بدرجة متساوية في جعل

الحياة أكثر احتمالا والحصول على العدالة أكثر يسرا. وكرس أنبل الرجال أنفسهم لهذه المهام، ولاقت أعمالهم التبجيل الحق، والشخص الذي هو من طابعهم يميل إلى وراثة دوافعهم وخلالهم. ولكن أعمالهم أصبحت أقل ضرورة. وفيما يختص بالصياد ربما تكون قد أصبحت لا جدوى بتاتا فيها ".

إن هذه لمقارنة واضحة، إذ أننا نرى فيما يختص بالصاد مهنة كانت ذات قيمة اجتماعية في مستوى حياة بدائي، بل وكانت ذات ضرورة حيوية، تصبح مهنة لا مرية في أنها لا لزوم لها في مرحلة مبكرة من مراحل التقدم الاقتصادي وصل غالبية البشر إليها. وفي هذه المرحلة تتحول ممارسة الصيد لاكتساب العيش إلى رياضة اقتصادية عقيمة، وربما يتم هذا التحول عادة

عملية تغيير تدريجي. أفيمكننا قياسا على هذا أن نفترض مرحلة من مراحل التقدم الاجتماعي تتحول فيها شريعة الحرب لمجرد الدفاع عن النفس إلى نزعة حربية عقيمة اجتماعية ؟ وقياسا على هذا فإن هذه النزعة الحربية المشئومة التي يمكننا أن نميزها، على ضوء ما جربناه، عن الشجاعة البريئة المحارب الموفق، قد يمكن تعريفها كممارسة للحرب من أجل الحرب، وذلك حينما لا تعود شريعة الحرب ضرورة اجتماعية، ولا يعود الناس يعتبرونها كذلك.

وقد رأينا الحرب في عالمنا الغربي فما نسميه بالفصل الحديث في التاريخ تحتل نفس المكانة التي احتلتها مهنة الصيد، وذلك في فترة

الهدوء في القرن الثامن عشر حينما اصطلح على أن الحرب كانت رياضة يمارسها الملوك فحسب. إن الاسم السيء الذي يلتصق بالمحارب، والذي يبهر بريقه الأبصار في درع قلب الأسد أو بايارد، إنما هو وصمة عار تلتصق التصاقا محكما بالقبعة المثلثة الشكل لكل من شارل الثاني عشر وفردريك الأكبر. إن الملوك الذين مارسوا رياضتهم في الميادين الغربية لذلك العصر كانوا رجال حرب ما في ذلك شك. ومع ذلك ففي ضوء تجاربنا الأخيرة يجب علينا أن نقول إنصافا لهم إن من بين أمة النزعة الحربية الذين قدر لمجتمعنا أن يمني بهم لم يكن فردريك ومن هم على شاكلته أكثرهم إفساده. ففردريك مثلا لم يكن ليحلم أبدأ بتمجيد الحرب كما مجدها قلم محارب بروسى – هلميوث فون مولتكه – فيما بعد في عبارته ذات الأسلوب الممتاز.

"ما السلام الدائم إلا حلم – وحتى ليس حلماً جميلا – وما الحرب إلا جزء جوهري في تنظيم الله للكون. ففي الحرب تسنح الفرصة لأنبل فضائل الإنسان أن تلعب دورها : الشجاعة والإباء والإخلاص للواجب والاستعداد للتضحية بدرجة لا تقصر عن التضحية بالحياة نفسها. ولولا الحرب لغمرت المادية العالم ".

وفي هذا الإطراء المغالى فيه للحرب نغمة تدل على سورة انفعال وقلق وحنق، وهي صيحة تختلف اختلافا بينا عن مذهب الشك الفلسفي التعليمي الشخص كفردريك الأكبر. وإنه لمن المسلم به أن هذا التغيير العميق في النغمة إنما هو صدى لتغيرات عميقة مماثلة في السجايا والظروف التي سادت أوربا الغربية خلال مدة تقل عن مائة عام مرت بين

موت فردريك عام ١٧٨٦ م والسنة التي دمج فيها فون مولتكه هذا الخطاب لبلونتشيلى. ويمكننا أن نلاحظ تغييرين من أمثال هذه التغيرات لها نفس الأهمية.

فقبل الوقت الذي بلغ فيه محارب القرن التاسع عشر البروسى سن الشيخوخة، كان اتخاذ الحرب كرياضة للملوك قد أحدث ردى فعل لم يكونا متباينين فسب بل كانا متناقضين كذلك. وقد نتج كلاهما عن المبدأ المسلم به وهو أن الحرب من أجل اللهو أمر مفزع، ولكن بينما كان رأى مدرسة من المصلحين أنه إذا تحول الشر إلى لهو، فمن الممكن ومن الواجب القضاء عليهما معا، كان رأي مدرسة أخرى أن الشر لا يمكن تحمله، إن لم يكن تحمله لغرض خطير. وعلى هذا فعندما لاقت الرياضة الملكية في القرن الثامن عشر استنكارا إجماعية، وجد أنصار السليم أنفسهم قد ووجهوا في القرن التاسع عشر بمجموعة من رجال الحرب من أمثال فون مولتكه كانوا أشد إرهابا بكثير من أسلافهم الحمقى في القرن الثامن عشر.

وهذا النزاع حول إصلاح سوأة القرن الثامن عشر بين فريقين متضاربين من التقدميين في القرن التاسع عشر قد يعلل لنا نغمة فون مولتكه في العبارة التي اقتبسناها. وهو يتحدى في هذا الرأي المتطرف دعاة السلم المعاصرين.

"إنه حينما تنعدم الضرورة لوجود شريعة ما، يبحث الناس عن مبررات خيالية أو يخترعونها لإرضاء تحيزهم الغريزي ها، ذلك التحيز

الذي أوجده طول استمرار بقائها. وهذه هي نفس الحالة تماما فيما يختص برياضة الصيد، إذ أنك تجد أبلغ دفاع عنها في الأدب الحديث جدة، ويرجع ذلك بالضبط إلى أن ما نتحداه الآن كان في عصر غارق في القدم أمرا مسلمة به[1] "

وفي هذا النزاع بين داعي السلام الذي يحاول أن يضع حدا لرياضة الملوك و بين المحارب الذي يحاول أن يوجه هذه الرياضة و جهة جديدة تجعلها عملا جدية من أعمال الشعوب لنا أن نتساءل ما هي النذر اليوم ؟ إنه من العسير علينا أن نحجم عن أن نسأل سؤالا قد يكون لغز مصير مجتمعنا، ولكن النذر على قدر ما نستطيع أن نتبينها ليست ما تبعث الثقة في النفوس. وقد رأينا في عصرنا هذا أن هذا المبدأ الذي اعتنقه فون مولتك اتخذه رسل الفاشية والنازية أحد بنود عقيدتهم الأساسية، و تقبلته بحماسة تلك الجماهير التي نجح هؤلاء الرسل في جعلهم يؤمنون بعقيدتهم.

وقد عرف موسوليني عقيدة المحارب الفاشي في مناسبتين منفصلتين بقوله في ختام مناورات الجيش الإيطالي عام ١٩٣٤. « إنا صائرون أمة حربية، وستسير على هذا المنوال باطراد متزايد، إذ أن هذه إرادتنا. وأضيف إلى ذلك أننا أمة عسكرية وأننا لا نخشى التصريح بهذا. ولأكمل لكم هذه الصورة أقول لكم إننا أمة باسلة وأعني بذلك أننا أمة قد وهبت دوامة ولدرجة عالية فضائل الطاعة والتضحية وتكريس النفس

---

(1) في الخطاب المقتبس آنفاً لمستر ج.م. جاثورن هاردي.

للوطن، وبقوله في مقال في الموسوعة الإيطالية عن المذهب الفاشى « إن الحرب وحدها هي التي تجعل الطاقات الإنسانية ترتفع إلى أسمى قوتها، وتسم الشعوب التي لها فضل مواجهتها بطابع النبل والشرف ".

إن ما نسميه بالاتجاه الحماسي الذي تتجلى فيه البطولة يرحب به في هذه الآونة ملايين الشبان ترحيبا حارا ويأخذونه مأخذ الجد التام، والسبب في استهواه لهم جلي واضح : إنهم نهمون إلى الفضائل في صورة الفضائل الحربية، وذلك لأنهم كانوا جوعى موات من الأنواع الأخرى من الخبز الروح، مثلهم في ذلك مثل الابن المدلل الذي حينما كاد يهلك جوعا إذ لم يجد من طعام البشر ما يتناوله « وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله[1] وفضلا عن ذلك فإننا نعرف ما اعتاد أن يكون عليه الغذاء الروحي لهؤلاء المدلين، والوقت الذي بدء وافيه يشرفون على الهلاك جوعاً. إن عباد الفضائل الحربية هؤلاء في العصر الحديث إنما هم سلالة تلك الأجيال التي تربت في أحضان الفضائل المسيحية، و بدأت نفوسهم تخوي من الأخلاق المسيحية التقليدية التي ربي أسلافهم عليها، وذلك حينما بدأت في فترة الانتقال من القرن الثامن عشر إلى القرن التاسع عشر زندقة أقلية مثقفة في العالم الغربي تسري عدواها في الجماهير الأقل زيفاً وضلالاً.

والحقيقة أن النفس الإنسانية تمقت الفراغ الروحي. وإذا خيم سوه الطالع المفجع في سماء بشر أو جماعة من البشر فأدى إلى فقدان

---

(1) الإصحاح الخامس عشر، إنجيل لوقا، العدد ١٦.

الإلهام المنير الذي استحوذ على النفوس وقتاً ما، فإنها عاجلا أو آجلا تستحوذ على أي طعام روحي يمكنها أن تجده – مهما كانت خشونة هذا الغذاء الجديد و عدم كفايته. وذلك أولى من أن تبقى دون غذاء روحي على الإطلاق. وفي ضوء هذه الحقيقة في استطاعتنا أن نتحدث عن التاريخ الروحي الحديث لمدنيتنا الغربية وأن نوضح السبب في تمجيد الحرب – فيما يل:

نظرا لانهيار البابوية الهلدبراندية[1] التي كانت في العصور الوسطى السلطة العليا في عالمنا المسيحي الغربي، فإن. شعوبنا المسيحية لاقت صدمة أخلاقية مؤلمة بلغ من شدتها أن نهج الحياة المسيحية الذي ربي في أحضانه أسلافنا فقد سلطانه علينا بدرجة كبيرة. وفي خلال سلسلة من الكوارث والتحرر من الأوهام إذ بنا نجد بيتنا خاوياً زخرفته حركة فكرية ترمي إلى تنوير الأذهان، ولكنه مقفر من الروح المسيحية التي حلت به فيما سلف. وكان من نتيجة ذلك أن وجدنا أنفسنا نبحث عن قاطنين جدد لملئوا هذا الفراغ الروحي الأليم. وفي خلال بحثنا هذا ارتمينا في أحضان أقرب البدلاء. لقد كان لحضارتنا الغربية ثلاثة مصادر : ألا وهي الطبقة العاملة المحلية والطبقة العاملة الأجنبية والأقلية الحاكمة في المجتمع الإغريق، تلك الطبقات التي سارت مدنيتنا الغربية في ركابها– وحينها ظهر أن المسيحية التي كانت التراث الديني للطبقة العاملة المحلية في بلاد اليونان لم تف ما كنا في حاجة إليه، اتجهنا

---

(1) نسبة إلى هلدبراند وهو البابا جريجورى السابع ١٠٧١ – ١٠٨٥ الذي وطد السلطة الكنيسة توطيداً تامة.

جوعي إلى ديانات الطبقة العاملة الإغريقية الأجنبية والأقلية الإغريقية المتسلطة. وفي الواقع كانت هاتان الديانتان متماثلتين في جو هر هما. كانت كلتاهما صورتين أخريين من الديانات الوثنية البدائية للقبيلة أو الدولة ؛ ولذلك فإن الردة الغربية الحديثة عن المسيحية وجدت في أثناء بحثها عن إله جديد في أية ناحية اتجهت إليها نفس الوثن منتظرة عبادته. إن مكيافيللي بمشورة مساعده ليفي، ورروسو بمشورة بلوتارخ، ودى جو بينو بمشورة ستيرلاسون، وهتلر بمشورة فاجنر، اقتيد كل منهم بوساطة مهبط وحيه الأدبي أو الموسيقي إلى أن وصل إلى سلم محراب معبد كراهية الإقفار نفسه الذي يتمثل في حكومة الحزب الواحد التي تجمع موارد الدولة كلها في يدها. وفي هذه العبادة الوثنية المجتمع تحكمه حكومة الحزب الواحد سواء كانت إغريقية أو قوطية أو اسكنديناوية في ودها تكون عبادة الفضائل الحربية سنة واجبة، وتمجيد الحرب إحدى العقائد الأساسية. و يمكننا الآن أن نفهم لماذا يصيح فون مولتكه بانفعال صادر بالتأكيد عن إخلاص وإن السلام الدائم ليس حتى بحلم جميل،، ولماذا يستعيذ من إلغاء الحرب في خوف من الواضح أنه خوف حقيقي، خشية أن يكون من شأن تحقيق حلم دعاة السلم أن يقذف فقط بعالمنا الوثني الحديث مرة ثانية إلى فراغ روحي.

وفي الحقيقة قد نساق قسرا إلى أن نعترف أن فون مولته على صواب في اتخاذ هذا الموقف إن كان على حق في دعواه الأساسية أنه ليس أمام الرجل الغربي الحديث إلا الخيرة بين بديلين و بديلين فقط. إننا إذا كنا قد فقدنا فعلا القدرة أو الإرادة على أن نتحلى بفصائل ضيعة

جسماني [1] فمن المؤكد حينئذ أنه من الأحسن أن نمارس فضائل إسبرطة أو فالهالا[2] من ألا نمارس شيئاً على الإطلاق. واستنتاجنا هذا بالنسبة لمجتمع كان فما سلف مجتمعا مسيحيا لم يعد استنتاجا نظريا ؛ فإننا لو حولنا جملتنا الشرطية هذه إلى حقيقة بيانية بسيطة لوجدنا أن فون مولتكه تتبعه الجماهير في وقتنا الحاضر ويمكن لأنصاره في جيلنا دون خوف من التناقض الادعاء أن لديهم الجيوش الحرارة التي تساندهم. إن العباده الغربية الحديثة للفضائل الحربية التي تتخذها الحكومة ذات الحزب الواحد دستورا لها كأنها الوصايا العشر تسير بخطى حثيثة إلى أن تكون ديانة العصر السائدة ؛ وهذه الحقيقة مهما اتصفت بوحشية عنيفة لن يمكن التغلب عليها بمجرد إنكارها التهكمي وهي في ذاتها احتجاج صارخ عليه. إن المجتمعات وكذلك الحكومات، مهيأة بطبيعتها للحصول على الديانات التي تصلح لها؛ وإذا كنا قد أصبحنا غير جديرين بحق نشأتنا المسيحية، فإننا نكون بذلك قد حكمنا على أنفسنا بعبادة الروح التي دبت فيها الحياة من جديد لآريس[3] وأودن[4]. إن هذه العقيدة البربرية أفضل من عقيدة على الإطلاق. إن البطولة التي يوحي بها إلى النفس موت شخص مثل ليونيداس وشخص مثل أولاف ترايفاسون ترتفع إلى ذروة الجلال، ولكن هذا الجلال ليس

---

(1) ضيعة على جبل الزيتون اجتمع فيها المسيح عليه السلام بحواريه قبيل القبض عليه وأخذ ينصحهم ويضرب لهم الأمثال راسما لهم طرق الخلاص.

(2) مقر الإله فودان في أسجارد في الأساطير الدينية.

(3) إله الحرب عند الإغريق.

(4) أو فودان الإله الأكبر الشعوب الألمانية القديمة.

بجلال القديسين وليس إلاجلالا يؤدى إلى الانتحار. ما عليك إلا أن تشاهد المدنية الاسكندينماوية القصيرة العمر والمدينة الإسبرطية التي تنخر السوس عظامها، وستجد أن هذا سيكون مصير مدنيتنا الغربية كذلك، لو أن فون مولتكه على صواب فيما تضمنه دعواه وكذلك في استنتاجه الأخلاقي منها. وما بقي علينا أن نراه هو هل هذا الفرض فرض صحيح أو هل المسيحية من جهة أخرى التي ليس بعيدا أن يكون لها أمل في الفوز مازالت لها القوة على تخليص الرجل الغربي من قبضة الوثنية البغيضة المدمرة بأن تقدم له مرة أخرى بديلا إيجابيا أكثر سموا. هل في الإمكان أن يبعث هيلدر براند من جديد بسلطانه ليضمد جراح نفوس رعاياه التي كان السبب في أصابتهم بها خطايا شخص مثل رودريجو بورجيا وشخص مثل سينيبالدو فيتشي ؟ إن هذه هي أعظم الأسئلة التي يجب أن يجاب عنها في عالمنا الغربي في القرن العشرين.

وفي تتبعنا لحل المشكلة الذي قدمه لنا فون مولتكه و خصنا السطوة التي اكتسبتها من جديد عبادة الفضائل الحربية هذه على أنفسنا نحن الغربيين في هذه العصور الحديثة، قد نجد أننا أحرزنا بعض التقدم تجاه إيجاد حل لمشكلتنا هذه التي تتلخص في هل شريعة الحرب في ذاتها شر حقيقي لا يمكن تفاديه. ولقد تكشف لنا أن المشكلة في الواقع قد طرحت طرحا خاطئا على بساط البحث. وربما كانت الحقيقة أن ليس هناك من مخلوق يمكن أن يكون عبارة عن شر أصيل لا يمكن تفاديه، وذلك لأنه لا يوجد كائن غير أهل لأن يستخدم كوسيلة لحمل الفضائل التي تتدفق من الخالق. والفضائل الحربية هي فضائل على الرغم

من أنها جواهر رصدت في حديد ودماء، ولكن القيمة في الجواهر نفسها لا في وضعها المرعب. وإنه لما يناقض كل ما اكتسبناه من خبرة أن نقفز دون ترو إلى النتيجة القائلة بأن المكان الوحيد الذي نأمل أن نجد فيه هذه الأشياء الثمينة دائما إنما هو ساحة قطع الرقاب حيث اتفق أن تجلت هذه الفضائل لأول مرة للعين البشرية. إن الماسة المطمورة في الطين لا تظل هناك، ولكنها تجد لها موضعا أنسب في تاج أحد الملوك، وبمجرد أن يعطينا منجم الماس كل ما يحتويه من كنز، فإنه لا يبق منه شيء إلا أن يصبح ذا من نفاخ الموت لعامل المنجم الذي لا يمكنه الآن أن يقطع صلته بمكان كده الذي وطن نفسه عليه وموضع كنزة العرضي. وما يصدق على الحثالة التي كانت الماسة مطمورة فيها يصدق بدوره على شريعة الحرب القصيرة الأجل التي قد لمع خلالها لوقت ما مبدأ خالد من مبادئ الفضيلة بنور تكسوه مسحة معتمة متنكرا في زى الفضائل الحربية لكي يضيء فيما بعد ذلك ببهاء في السلام الطبعي الدائم لمملكة الله. إنها الفضيلة الربانية – غير المتغيرة في ذاتها وإن كانت دائمة التغير في مقرها الوقتي – التي تعكس نورها الداخلي على مواطنها المتتالية، ويسود كلا من هذه المواطن قبيح بمجرد أن تتوقف تلك الروح التي حلت بداخله وقتيا عن أن تنير ظلمته.

، إن من الصعوبة أن نجد أي حدث أو أية ظاهرة نكون دائما على رأي واحد فيها لو أننا اقتفينا أثرها خلال العصور السالفة. وذلك لأن أي شر لم يكن في الأصل شراً، ولكنه أصبح كذلك. إن في إمكاننا أن نذكر أمثلة لأشياء كانت في أصلها أشياء طيبة ولكنها استنفدت أغراضها، وقد

يمكننا إدراج الحرب بين هذه الأمثلة. إن الحرب مثلها مثل أي شيء حي لا تبقى ثابتة ولكنها تتطور دائمة. إن الحيوانات لم تتعود أن تشن حرباً على بعضها البعض ولكن الآدميين اعتادوا أن يفعلوا ذلك، وستكف سلالتنا من الأناسي ذوي الخلق الكامل – السبر ما نبين كما يسميهم جوته و نيتشه – عن هذا. إن شريعة الحرب التي قص التاريخ علينا أخبارها ولدت في وقت ما، كانت صغيرة و الآن بلغت سن الشيخوخة. وكما يبدو لنا حب الفتاة أمرة بديعة وحب العجوز أمرة بغيضة كذلك الحال مع الحرب. ولكننا لا يمكننا أن نحكم حكما متشابها على شيئين يختلفان اختلافاً كلياً في نفس طبيعتهما ومعناهما. فليس هناك شيء ما مشتركا بين أغنية الكراهية الخالدة لأخيل وأنشودة كراهية انجلترا لليساور[1]، وما يماثل ذلك أنه يوجد أشد التباين بين المعارك التي حدثت في وادى سكاماندر والقتال الذي دار بين الميز والموزل[2].

ولو أننا قد أصررنا على عبادة الحرب في الوقت الذي هيئ فيه لممارسة الفضيلة في الحياة المسيحية مجال علوى لا مثيل له، تلك الفضيلة التي أظهرت نفسها يوماً إظهار حقيقية وإن كان غير لائق في الفضائل الحربية، إذن لكنا قد ارتكبنا جريمة عبادة شريعة زائلة ليست إلا صورة من صور إلاهة النقمة. وإن ذنبنا ليتضاعف لو أننا بعد تلك القرون التي قضيناها في محاولة المستحيل من خدمة سيدين قد تمسكنا أخيرا بأدناهما واحتقرنا أسماهما مصابين بنكسة أرجعتنا القهقرى إلى خدمة

([1]) مؤلف ألماني ولد في ديسمبر سنة ١٨٨٢ في برلين واسمه الكامل أرنست ايساور (المترجم)

([2]) نقولا : ج. ف في كتابه دراسة الحرب، الترجمة الإنجليزية ص ٤٢٠ – ٤٢١

فودان[١] وآريس [٢] نابذين حتى إتباع أسلافنا لمبادئ المسيح الذي كان يعوزه الحماس. إن هذه الحالة الوثنية أشد سوءا بكثير من الأولى لأن الضلال الواعي المتعمد الذي يتمثل في النزعة الحربية العتيقة لفون مولتكة وموسيلينى يختلف عن الفضائل الحربية القديمة البسيطة للفارس بايارد والكولونل نيوكوم كما يختلف غسق المساء عن تألق الفجر. إن البساطة التي ورثها الكولونل عن الفارس لا يمكن إطلاق أن يستحوذ عليها ثانية في عالمنا الغربي أولئك الذين ورثوا عن فردريك و نابليون قسوتهما وعدم تقديرهما للطبيعة البشرية. إن مؤلف الكولونل نيوكوم كان جد عالم) حينما خلق شخصيته المحبوبة في منتصف القرن التاسع عشر أن كلا من سحر هذا الكائن ومأساته كانا مدينين بشيء ما لحقيقة كونه بالفعل شخصية متناقضة. إن أنصار سياسة موسيليني في إحيائه من جديد للروح الحربية لن يكونوا من أنصار نيوكوم أو بايارد، بل إنهم سيكونون بشرة آليين من أنصار إله الحرب. إن عملية الانحراف، التي هي الفاكهة الجميلة المغرية لوثنية مقترنة بميل لتقليد القديم، هي النقيض التام لعملية التسامي الروحي، ولعملية النقل المطرد لميدان العمل من العالم الأكبر ألا وهو الكون إلى العالم الأصغر ألا وهو الإنسان، تلك العملية التي قد نجد فيها معيارا للرقي. وإذا كان هذا المعيار هو المعيار الحقيقي، فإن هذا يدلنا منطقية على أن شريعة الحرب لا يمكن أن تكون شريعة جامدة من الوجهة الأخلاقية. وإذا سلمنا بأن هذه الشريعة البشعة قد أوجدت

---

(١) أكبر آلهة الجرمان.

(٢) إله الحرب عند الإغريق.

بالأمس مجالا لممارسة الفضائل الحربية، فإننا قد نكون غدا على يقين أن هذا النوع من الحرب الذي تتجلى صفات الفروسية فيه يفعمه الحقد فيتحول إلى نزعة عسكرية ليس بها أثر للفضيلة أو الجمال، أو أنه من جهة أخرى قد يتحول إلى قوة حربية دينية تتحول فيها الحروب المادية الإنسان ضد آخر إلى حرب روحية لجميع البشر متحدين في خدمة الله ضد قوى الشر.

وإذا برهنت ردتنا الحالية على أنها فقط آخر رجفة للوثنية وهي تعالج سكرات الموت، وإذا كانت هذه الأزمة التي بلغت الذروة في الصراع الطويل المدى بين الوثنية والمسيحية مقدرا لها أن تنتهي بطرد الوثنية من الميدان طردة تامة، فلنا أن نحلم بمجيء عصر تختفي فيه حرب الجسد من حياتنا وتنمحي من ذاكرتنا، كما أن نفس كلمة الحرب تفقد مدلولها –كما فقد صنوها وهو لفظ التضحية مدلوله بالفعل – إلا بمعنى كان في الأصل مجازية. وحينما يتحدث الناس عن الحرب في تلك الأيام فإنهم بذلك يشيرون إلى حرب الروح، وإذا ذكروا في أي وقت بحرب الجسد التي كانت صوت العذاب الدائم لأسلافهم الذي صب عليهم نحوا من ستة أو سبعة آلاف عام، فإنهم سيفكرون فيها على أنها كانت من فصيلة الطقوس التكريسية القاسية التي اعتاد معتنق المسيحية في أول أمرها أن يأخذ نفسه بها لكي يجد طريقه في النهاية إلى زمرة القديسين حيث قد انتقل مسرح الحرب من ميدان ظاهري إلى ميدان باطنى. إن حرب تلك الجمهورية المسيحية الكاملة قد ديج وصفه أحد مواطني هذه الجمهورية الذين قدموا ليعلنوا عن قدوم ملكة

الله قبل قدومها بعدة مئات أو آلاف من السنين، بيراع تجلى فيه الخيال الحربي الزاخر بالشاعرية و التنبؤات الإلهامية القديسية. إن القديس بولس كان يوجه رسالته إلى مواطني مدن الدولة الإغريقية كلها في عصر من عصور التاريخ الإغريق حينما كان بهاء الفضائل الحربية لا يزال يأسر العين من تحت القتامة التي تجمعت نتيجة للنزعة الحربية لوقت من أوقات المتاعب. إن الرسول يأخذ بناصية كل المفهومات النبيلة الرائعة للحرب التي كانت لا تزال عالقة بأذهان من هداهم إلى المسيحية لكي ينقل إلى أذهانهم بسلسلة من الاستعارات الحربية نبل الحياة المسيحية و مجدها الأكثر سموا.

ولأننا وإن كنا نسلك في الجسد لسنا حسب الجسد نحارب. إذ أسلحة محار بتنا ليست جسدية بل قادرة بالله على هدم حصون. هادمين ظنونا وكل علو يرتفع ضد معرفة الله و مستأسرين كل فكر إلى طاعة المسرح " [1].

(1) رسالة الرسول بولس الثانية إلى أهل كورنثوس – الإصحاح العاشر.

الفصل الثالث

إسبرطة، الدولة الحربية

حينما فكر أفلاطون في جمهوريته الفاضلة تلقى وحيه من الشرائع القائمة بالفعل في ذلك الوقت في دولة إسبرطة المدينة، شرائع مجتمع إغريقي كان أعظم مجتمع بين دول العالم الإغريقي العظمى في عصر أفلاطون. و حينها تفحص مصادر النظام الإسبرطي نجد أن الإسبرطيين قد ووجهوا بضرورة القيام بعملهم الفاره الفريد، وإعداد أنفسهم لهذا العمل بنظامهم الخاص، و ذلك لأنه في مرحلة سابقة خلال تاريخهم اتخذوا وجهة خاصة. إن الإسبرطيين انفصلوا في مرحلة معينة من تاريخهم عن المجرى العام الذي سارت فيه الحوادث في مجتمعات "دول المدن" الإغريقية.

إن الإسبرطيين استجابوا استجابة خاصة للتحدي المشترك الذي واجه كل المجتمعات الإغريقية في القرن الثامن قبل الميلاد حينها بدأت مساحة الأرض المزرعة في أوطان المجتمع الإغريقي في شبه الجزيرة الإغريقية وفي جزر الأرخبيل الإغريقي تتناقص محصولاتها، بينما كان عدد سكان الإغريق يتزايد بسرعة، وكان ذلك نتيجة مباشرة لما سبق ذلك من تطور اجتماعى. لقد كان الحل الطبيعي الذي وجد لهذه المشكلة العامة في الحياة الإغريقية في القرن الثامن هو توسع أكثر في

الرقعة الكلية القابلة للزراعة التي كانت في حوزة الإغريق، وذلك باكتشاف وفتح أراض جديدة عبر البحار. وكانت لهذه المجموعة الفاخرة من دول المدن الإغريقية، التي ظهرت في الوجود نتيجة لهذه الحركة التوسعية العامة فيما وراء البحار، أساس واحد ألا وهو تارنتوم [1]، التي كانت تدعي أنها من أصل إسبرطي، ولكن، حتى لو كان هذا الادعاء متفقا مع الحقيقة التاريخية، فإن حالة تارنتوم كانت حالة فريدة في ذاتها. إن تارنتم كانت المدينة الإغريقية الوحيدة عبر البحار التي دلت مع ذلك على أنها مستعمرة إسبرطية ؛ وهذا التقليد التارنتيمى بدلنا نسب على الحقيقة التي تتلخص في أن الإسبرطيين في الغالب سعوا إلى حل مشكلة ازدياد السكان الإغريقية المشتركة في القرن الثامن، بطريقتهم الخاصة، لا طبقا للأساليب العامة للاستعمار فما وراء البحار.

وحينما وجد أهل إسبرطة أن حتى أراضيهم الزراعية الخصبة في وادى اليوروتاس ضيقة بدرجة لا تتسع معها السكان متزايدين لم يتجهوا بنظره إلى البحر مثل الكالسيديين والكورنثيين والمجاريين. إن البحر لا يمكن مشاهدته من مدينة إسبرطة أو من أية نقطة في السهل الإسبرطي، أو حتى من المرتفعات التي تكتنفها مباشرة. إن الظاهرة الطبيعية التي تسود مناظر إسبرطة الطبيعية هي سلسلة جبال تايجيتس الشديدة الارتفاع، التي ترتفع بانحدار شديد من الطرف الغربي للسهل بدرجة أن واجهتها الأمامية تبدو عمودية تقريبا، بينما تبدو سلسلتها كأنها حائط لاستقامتها وتتابعها. إن المظهر الحائطى لجبال تايجيتوس ليجذب

---

(1) في جنوب إيطاليا

الأنظار إلى أخدود لانجادها : وهو أخدود يفلق هذه السلسلة من الجبال عمودية كما لو كان مهندس السهول والجبال الطيتانى [1] قد صميم عن قصد هذا الكسر الواضح في حاجز لا يمكن اجتيازه في جميع أجزائه بدونه، وذلك لكي يزود الناس بمنفذ للمرور. وحينما بدأ أهل إسبرطه في القرن الثامن قبل الميلاد يشعرون بوطأة ضغط السكان الشديدة، اتجهوا بأنظارهم إلى الجبال ورأوا أخدود لانجادها ونشدوا الغوث في اجتيازهم الجبال عبر الممر، كجيرانهم الذين نشدوا الغوث أيضا باجتيازه البحر تحت وطأة دافع الحاجة نفسه. وعند هذا المفترق الأول للطرق كانت الآلهة في عون إسبرطة، فإن الحرب الإسبرطية المسينية [2] (من حوالي ٧٣٦ ق.م. إلى ٧٢٠ ق.م) التي عاصرت المستعمرات الإغريقية الأولى على سواحل تراقيا وصقلية تركت المنتصرين الإسبرطيين في حوزة أرض مفتوحة في الإغريق أكثر اتساعا من الأراضي التي استولى عليها المستعمرون الكالسيديون فيما وراء البحار في ليونتيني، أو المستعمرون الإغريقيون الإسبرطيون المشهورون في تارنتوم. ولكن الروح التي سيطرت على الحياة الإسبرطية التي كانت تقودها، والتي لم تسمح لقدمها بالتزحزح حينما وصلت يوما إلى هدفها في مسينيا، لم تحفظها بذلك من كل سوء. إننا نجد على النقيض من ذلك أن الثبات الذي فوق طاقة البشر – أو اللابشري – الذي تميز به وضع إسبرطة التالي كان من الواضح أنه نقمة لا نعمة مثله في ذلك مثل

(1) نسبة إلى طبيتان وهو إله من نسل أورانوس

(2) مسينيا ولاية إغريقية مساحتها ١٢٠٠ ميل مربع وعاصمتها كالاماتا.

ما روته الأساطير عن نهاية امرأة لوط.

إن متاعب الإسبرطيين الخاصة بدأت بمجرد انتهاء الحرب الإسبرطية الحسينية بانتصار إسبرطة، لأن هزيمة المسينيين في الحرب كانت عملا أيسر عند الإسبرطيين من إخضاعهم في زمن السلم إن هؤلاء المسينيين المهزومين لم يكونوا همجا كالتراقيين أو السيكيليين، ولكن أغارقة أندادا للإسبرطيين أنفسهم في ثقافتهم ومشاعرهم وفي كل شيء إلا كونهم أندادا لهم في الحرب، وربما كانوا يفوقونهم عددا. إن الحرب الإسبرطية المسينية الأولى حوالي ٧٣٦ - ٧٢٠ ق.م كانت لعبة من لعب الأطفال إذا قيست بالحرب الثانية التي وقعت حوالي ٦٥٠ - ٦٢٠ ق.م، إذ أن المسينيين المحكومين، الذين زادتهم الضراء صلابة وملأ صدورهم حقا وعارا خضوعهم لهذا المصير الذي لم يسمح غيرهم من الأغارقة لنفسه أن يخضع له، هبوا يحملون السلاح ضد حكامهم الإسبرطيين، وحاربوا في هذه الجولة الثانية حربا أشد ضراوة بكثير وأطول مدى، ليستردوا حريتهم التي حاربوا في الجولة الأولى من أجل الاحتفاظ بها. إن بطولتهم والتي تجلت بعد فوات الأوان، فشلت في النهاية أن تجنبهم نصرا إسبرطيا ثانيا. وفي أعقاب هذه الحرب التي لا سابقة لها في شدة مراسها واستنفادها للقوى، عامل الغالبون المغلوبين بقسوة لا مثيل لها. ولكن الثوار الحسينيين، على حسب النظرة البعيدة المدى للآلهة، ثأروا لأنفسهم من إسبرطة بالطريقة التي قدر لهانيبال أن يثأر بها من روما. إن الحرب الإسبرطية المسينية الثانية غيرت نظام الحياة الإسبرطية بأجمعه، كما غيرت مجرى التاريخ الإسبرطي كله. إنها

كانت إحدى الحروب التي تورث قلوب الباقين على قيد الحياة صرامة وقسوة إنها كانت تجربة مريرة بدرجة تركت الحياة الإسبرطية تنطبع إنطباعاً تاماً بالشقاء والفظاظة، وحولت التطور الإسبرطي عن مجراه إلى طريق ضيق مسدود. وبما أن الإسبرطيين كانوا غير قادرين البتة على نسيان ما كابدوه، فلم يكن قط في استطاعتهم التراخي، ولذلك فلم يكن في طوقهم أبدا أن ينتشلوا أنفسهم من مأزق رد فعل ما بعد الحرب. و مواطنهم الإغريق عبر الجبال اكثر ثراء ما يكتسيه المستعمرون الكالسيد يون من البرابرة عبر البحار. ولكننا نجد في المرحلة التالية أن هذا العمل الفريد المتسم بالجرأة الذي لا يمكن النكوص فيه يجلب على نفسه القصاص المحتوم.

إن البيئة المغلوبة على أمرها تستحوذ الآن على غالبها الجريء وتأخذه أسيرة. فالإسكيمو يصبحون أسرى مناخ المنطقة المتجمدة الشمالية وعليهم تشكيل حياتهم طبقا لمقتضياته الجائرة بأدق تفاصيلها. وعندما يفتح الإسبرطيون مسينيا في الحرب الأولى لكي ينعموا بحياتهم، يجبرن في الحرب الثانية وفي كل ما بعدها أن يضحوا بحياتهم من أجل الاحتفاظ مسينيا. إن سيطرتهم على مسينيا تجبرهم أن يعيشوا عبيدا صاغرين لهذه السيطرة من ذلك الوقت فصاعدا.

إن الإسبرطيين أعدوا أنفسهم للقيام بدوره الفذ بتغيير الشرائع الموجودة لتلائم ضروراتهم الجديدة.

" إن الطريقة التي جعلت بها تلك الشرائع البدائية تصلح أن تكون

أحجار الأساس التي قام عليها بناء النظام الإسبرطي، والتي لولاها لتوارت تلك الشرائع من جميع المجتمعات الإغريقية أمام وجه الحضارة الإغريقية الناهضة. إنما هي طريقة تستحق منا أعظم الإعجاب ".

وفي عملية الملائمة هذه، ليس في وسع الإنسان إلا أن يرى شيئا هو أكثر من مجرد تطور أوتوماتيكي. إن الطريقة المنظمة الهادفة التي تم بها جعل كل شيء يؤدى إلى هدف واحد تجبرنا أن نرى تدخل يد منظمة واعية فيها. إنه لمن الضروري أن نفترض وجود رجل واحد أو عدد من الرجال يعملون في نفس الاتجاه لإعادة تشكيل الشرائع البدائية [1] ".

إن علاقات الإسبرطيين بينهم البشرية في مسينيا مرت بنفس التقلبات الشديدة القسوة التي مرت بها علاقات الإسكيمو ببيئتهم الطبيعية في المنطقة المتجمدة الشمالية. إننا نشاهد في كلتا الحالتين مجتمعا يقدم على الكفاح ضد بيئة تبعث الرهبة في نفوس جيران هذا المجتمع، وذلك لكي ينال بهذا الإقدام الذي يتجلى فيه العناد المفرط ثوابا و فيرا بدرجة غير عادية. و نتائج هذا العمل المتسم بالجرأة في مرحلته الأولى تبدو أنها تبرره. إن الإسكيمو يجدون صيدا في جليد المنطقة المتجمدة الشمالية أحسن مما يجد أبناء عمومتهم من الهنود الحمر الأقل مخاطرة منهم في براري أمريكا الشمالية وكذلك نجد أن الإسبرطيين يكتسبون في الحرب الإسبرطية الحسينية الأولى أراضي من إن الأساطير الإغريقية لا تنسب إلى ليكور جوس إعادة بناء المجتمع

---

(1) أساس الحياة الإسبرطية لمؤلفه نلسن م.ب مجلد ١٢، ص ٣٠٨.

الإسبرطي بعد الحرب الإسبرطية المسينية الثانية فحسب، ذلك البناء الذي جعل من إسبرطة ما أصبحت وما ظلت عليه بعد ذلك دوما حتى سقطت، بل تنسب إليه أيضا كل الحوادث السابقة و الأقل خرقة للعادة في التاريخ السياسي والاجتماعي لإسبرطة. ولكن ليكورجوس كان إلها ؛ والعلماء الغربيون في العصر الحديث في بحثهم عن المؤلف الإنساني للنظام الليكورجى يميلون إلى أن يجدوا هذا المؤلف في خيلون المراقب الإسبرطي الذي اشتهر بكونه أحد الحكماء ويظهر أنه شغل هذه الوظيفة حوالى ٥٠٠ ق. م. وربما لا تكون مخطئين خطأ كبيراً إذا اعتبرنا النظام الليكورجى علا جماعية السلسلة من السياسة الإسبرطيين خلال مدة تقارب قرنا، يبدأ تاريخها من نشوب الحرب الإسبرطية المسينية الثانية.

إن الظاهرة البارزة في النظام الإسبرطى – تلك الظاهرة التي توضح لنا أسباب كفاية هذا النظام المدهشة وكذلك أسباب جموده المميت و سقوطه بعد ذلك كانت ازدراؤه الكبير للطبيعة البشرية. وفي الحقيقة كان عبء الاحتفاظ بالسيطرة الإسبرطية فوق مسينيا كله ملق على عاتق الأحرار المولودين من آباء إسبرطيين أحرار. وفي نفس الوقت، في داخل هيئة المواطنين الإسبرطيين نفسها، كان مبدأ المساواة ليس وطيد الأركان فحسب ولكنه كان مطبقا إلى مدى بعيد.

ومع أن الثروة لم تكن موزعة توزيعا متساويا فإن النبيل الإسبرطي كان يقتني من الدولة إقطاعية أو حصة ذات مساحة متساوية – أو إنتاجا متساويا من الإقطاعيات التي قسمت إليها أراضي مسينيا الزراعية بعد الحرب الإسبرطية المسينية الثانية، وكانت كل هذه الإقطاعيات التي كان

يقوم بزراعتها لهم مسينيون ارتبطوا بالأرض كأرقاء، قد عمل حسابها أن تعول النبيل الإسبرطي وعائلته طبقا لمستوى المعيشة الإسبرطي المتسم بالاعتدال وذلك دون أن يلتزموا بالعمل بأيديهم. ونتيجة لذلك فإن كل نبيل إسبرطى مهما بلغ من فقره كان في مركز اقتصادى يهيئ له أن يكرس كل وقته و نشاطه الفن الحرب ؛ وبما أن التدريب العسكري والخدمة العسكرية المستمرين الدائمين كانا أيضا فريضة على كل نبيل إسبرطى مهما بلغ ثراؤه، فإن عدم التساوي في الثروات المدخرة لم يكن في إسبرطة ينعكس أثره في أي اختلاف جوهري في طريقة الحياة بين رجل غني و آخر فقير.

أما بخصوص الرتب الوراثية فإن النبلاء الإسبرطيين يظهر أنهم لم يكونوا يحتفظون بأي امتياز سياسي لا يتمتع به العامة إلا في لياقتهم للانتخاب المجلس الدولة. أما بخصوص من تبقى من الإسبرطيين فإنهم انخرطوا في سلك الأشراف وصفوفهم، وعلى الأخص فإن الثلاثمائة فارس الإسبرطيين لم يعودوا بمقتضى النظام الليكورجي جماعة من النبلاء أو قوة عسكرية راكبة. لقد أصبحوا كتيبة ممتازة من كتائب البيادة الثقيلة التي كانت تختار من بين رفوف الأشراف بالامتياز وكانوا يتنافسون تنافسا حارا في الاندماج في سلكها. وأنصع دليل على روح المساواة في النظام الليكورجي هو المنزلة الي قلل بها من شأن الملوك. ومع أن الملوك استمروا بمقتضى هذا النظام في تولى العرش عن طريق الوراثة، إلا أن النفوذ الجوهري الوحيد الذي احتفظوا به كان السيطرة الحربية على الجيش العامل. وفيما عدا ذلك و باستثناء الواجبات والميزات الرسمية

التي كانت أقل أهمية من أن تعتبر صورية فإن الملوك الحاكمين وكذلك كل أفراد العائلتين المالكيتين الآخرين كان عليهم أن يخضعوا طيلة حياتهم النفس النظام القاسي الذي كان يخضع له النبلاء الماديون. وكان عليهم وهم ورثاء شرعيون أن يتلقوا نفس التعليم، ولم يمنحهم حقهم في اعتلاء العرش أي إعفاء.

وعلى ذلك في داخل جماعة الإخوان النبلاء الإسبرطيين كانت فوارق الأصل والامتيازات الوراثية قليلة الأهمية أولا أهمية لها إطلاقا بمقتضى النظام الليكورجي. وعلى الرغم من أن الأرومة الإسبرطية كانت إحدى المؤهلات العادية للانخراط في سلك جماعة الإخوان هذه، فإن أي مرشح للالتحاق بسلك هذه الجماعة لم يكن ليحلم أبدا أن يقول – حتى في داخل نفسه، بله جهر – المرداف لقول بني إسرائيل. إن إبراهيم لنا أب،؛ إذ أن الأرومة الإسبرطية لم تكن ضمانا للترقية إلى مرتبة النبيل التي كانوا يتحرقون شوقا إلها على الرغم من مشقتها. حقيقة أن الأصل الإسبرطي كان من الطبيعي أن يكون مطلوبا إلا أنه لم يكن شرطا لا يمكن الاستغناء عنه. إن الأصل الإسبرطي كان من شأنه فقط أن يقضي على الطفل أن يتحمل التجربة القاسية للتربية الإسبرطية (وذلك إذا لم يرجأ تنفيذها بنبذه باعتباره طفلا ضعيفا بعد ولادته ووضعه في الخلاء لموت من تعرضه للتقلبات الجوية)، وهذه التجربة المريرة كان من شأنها فقط أن تؤهل الطفل للتنافس من أجل مكان في جماعة الإخوان النبلاء حينما يبلغ سن الرشد. إن استجابة الطفل لهذه المحنة القاسية للتربية الإسبرطية كانت لها في الحسبان الأخير من الأهمية أكثر من مولده. لقد

كان هناك إسبرطيون مولدا فشلوا أن يحوزوا الرضاء في التجربة التعليمية، ولذلك رفض إدخالهم في نهاية الأمر في زمرة جماعة الإخوان النبلاء، وتركوا ينتحبون أمي و حسرة ويحرقون الأرّم[1]، تكتنفهم ظلمة دامسة في مركز لا يحسدون عليه ألا وهو مركز المرءوسين. وعلى النقيض من ذلك، كانت هناك حالات على الرغم من ندرتها الواضحة كان يسمح فيها للصبيان من أصل غير إسبرطى أن يطبق عليهم نظام التربية الإسبرطية ؛ ويظهر أن هؤلاء الأولاد الغرباء لم يكونوا أقل لياقة للانخراط في سلك النبلاء من زملائهم الإسبرطيين في الفصول الدراسية إذا أظهروا جدارتهم.

وإلى هذا المدى تجاهل النظام الإسبرطي دواعي النسب والوراثة، وذهب الإله ليكور جوس إلى أبعد من ذلك في تحدي الطبيعة البشرية. إن المصلح الاجتماعي الإسبرطي تجاسر فتدخل في الزواج نفسه لصالح تحسين النسل، وسعى ليعمل ما في طوقه ليحصل على نوع المادة البشرية التي أرادها بالتربية قبل أن يحين وقت الاختيار. إن التجنيد في إسبرطة كان عامة للطبقة التي كانت تخضع له (أي لكل الإسبرطيين الذين ولدوا أحرارة والذين لم يتركوا ليتعرضوا للتقلبات الجوية بعد ولادتهم). كان الإسبرطيون ينتزعون الأطفال من بيوتهم في سن السابعة ويقومون بتربيتهم تربية قاسية مريرة. وأخيراً فإن الإسبرطيين لم يجدوا ويدربوا البنات كالصبيان فسب، بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك تجاه معاملة كل من الجنسين معاملة متماثلة. فقد كان التجنيد عامة في

---

(1) تصطك أسنانهم غيظا.

إسبرطة للفتيات كما للفتيان، ولم تكن الفتيات الإسبرطيات تعطي لهن مناهج نسوية خاصة، ولم يكن يبقين في عزلة من الرجال. إن الفتيات الإسبرطيات كانوا مثل الفتيان الإسبرطيين يدربن على نظام تنافسي في الألعاب الرياضية وكن مثل الفتيان يتنافسن عاريات جهاراً أمام نظارة من الذكور.

أما بخصوص إنتاج السلالة البشرية، فإن النظام الإسبرطى سعى إلى هدفين متباينين في نفس الوقت. إنه كان يهدف إلى الحكم والكيف معا. إنه حصل على الكم (وفقا للمدى المصغر الذي بني عليه المجتمع الإسبرطى) وذلك عن طريق توجيه عنايته إلى الفتي الإسبرطي اليافع والسعي إلى التأثير في سلوكه عن طريق الإغراءات والعقوبات. إن الأعزب المتعمد الذي عقد العزم أن يظل كذلك كان تعاقبه الدولة، و تنصب عليه الإهانات من هم أدنى منه لاحتقاره الفاضح للروح العامة. ومن جهة أخرى كان يعني، والد البنين الثلاثة من التجنيد ووالد الأربعة من جميع الالتزامات تجاه الدولة. وفي نفس الوقت حصل النظام الإسبرطي على الكيف بأحياء بعض التقاليد الاجتماعية البدائية التي تتحكم في العلاقات الجنسية التي يبدو أنها كانت من مخلفات نظام جنسى جماعي لنظام اجتماعى سابق للنظام الذي يتمثل في الزواج والأسرة، وذلك لهدف مقصود محدد ألا وهو تحسين النسل. إن الزوج الإسبرطي الذي يعنى عناية كبيرة بتحسين نوع الذرية التي تنتجها زوجته باتخاذه الترتيبات لكي تحمل زوجته من بعل أشد منه فحولة كان ينال الاستحسان الشعب بدلا من أن يتعرض للسخط العام.

أما بخصوص موضوع تربية الأطفال الإسبرطيين الذين كانت تتبع في تربيتهم هذه الطريقة التي تهدف في النهاية إلى اختيار الأصلح من بينهم للاندراج في سلاك جماعة النبلاء وللإنعام عليهم بالإقطاعات العامة، فإن النظام الإسبرطى استفاد أيضا من مخلفات نظام اجتماعى سابق لتكوين الأسرة كان يربي فيه الطفل الذي لم يعد في حاجة إلى الرعاية الشخصية لأمه إلا بتعليمه مهنة أبيه وسط. أسرة يسودها النظام الأبوي، بل يمنحه عضوية متعاقبة في سلسلة من الجماعات البشرية.. وكان يعاشر في كل مرحلة من هذه المراحل غليان الجماعة الآخرين الذين كانوا من سنه وجنسه. إن المذهب الإصلاحي الليكورجى اتبع نظام الزمالة الطبقية في السن و في نفس الوقت لاءم بينه و بين هدفه التعليمي الخاص بإدخاله قسما مختلطة يجتمع فيه غلمان من جميع الأعمار في مجموعة واحدة لكي يساهم الغلمان الأكبر سنا في تدريب من هم أصغر سنا منهم. إن جماعات الصبية هذه كانت صورة أخرى للرفاق الراشدين وإعدادا لهم، هؤلاء الرفاق الذين كانوا يكونون اتحادات النبلاء التي كانت تضم طبقات ذات أعمار متباينة في حدود أربعين عاما من أكثرها لأقلها مبتدأة بسن الواحد والعشرين ومنتهية بسن الستين، وكان هذا السن هو سن الصلاحية للخدمة العسكرية. إن الغاية القصوى الثلاثة عشر عاما من التعليم في إحدى جماعات الصبية كانت ترشيح الصبي للاندراج في سلك إحدى جماعات الرفاق عند بلوغه نهاية السنة العشرين من عمره، تلك الجماعات التي كانت السبيل الوحيد إلى الانخراط في سلك جماعات الإخوان النبلاء. إن الالتحاق بإحدى هذه الجماعات كان

الحصول عليه ممكنا خب بالاختيار الاجماعى، وكان أي صوت معارض يؤدى إلى عدم انتخاب المرشح. وكان المرشح الناجح يبقى بمجرد اختياره اختياراً إجماعياً عضواً عاملا في رفقته لمدة أربعين عاما إلا إذا فشل في أن يؤدى نصيبه المفروض عليه من الزاد والمال للإنفاق على الطعام المشترك أو إذا أدين بتلك الجريمة التي لا تغتفر وهي جريمة الجبن في الحرب.

إن الخصائص الرئيسية للنظام الإسبرطي كانت : الرقابة والاختيار و التخصص والروح التنافسية و استعمال الدافعين السلبي والإيجابي ألا وهما العقاب والثواب في الوقت نفسه. لم تكن هذه المظاهر فيما يختص بجماعة الإخوان النبلاء مقتصرة على المرحلة التعليمية، إذ أنها ظلت تسيطر على حياة الشاب اليافع الإسبرطي كما كانت تسيطر عليه في صباه. و من اللحظة التي ينتزع فيها من أمه في تمام السابعة من عمره كان يخضع للنظام باستمرار حتى يتم الستين من عمره، تلك السنة التي كان يطلق فيها سراحه من الخدمة العسكرية. إن السمة الظاهرة الواضحة للعيان لهذا النظام كانت القاعدة التي تقضي بالخدمة العسكرية في القوات المسلحة لمدة ثلاثة وخمسين عاما؛ إذ أن الإسبرطي الذي نقل في طفولته من بيت والده إلى إحدى جماعات الصبية لم يجد نفسه حرا أن يعيش في منزل يملكه حينما اختير بالإجماع في إحدى مجتمعات الرفقة النبلاء، ومنح إقطاعية، وأدى واجبه الاجتماعي باقترانه زوجه. وكان النبلاء الإسبرطيون محتم عليهم أن يتزوجوا و محرم عليهم أن يحيوا حياة عائلية. وكان يطلب من العروس الإسبرطي أن يقضي حتى

ليلة زفافه في الثكنات. ومع أن تحريم النوم في المنزل كانت تخفف قيوده بتقدم السن، فإن تحريم تناول الطعام في المنزل كان تحريمه باتا دائماً.

" إن ليكورجوس وجه عنايته إلى أن الإسبرطيين لا يجب أن يتناولوا غذاء تمهيدية بالمنزل مما يجعلهم يتوجهون إلى (الميس) [1] ببطون ممتلئة. وإذا أظهر أحد الإسبرطيين عدم إقبال على الطعام في "الميس"، كان إخوان مائدته يعنفونه بأنه نهم بلغ من الرقة حد جعله لا يتحمل الطعام العام، وإذا أدين فرضت غرامة عليه. لقد حدث حدث مشهور حينها عاد الملك آجيس من حروبه بعد غيبة طويلة في نهاية حربه المنهكة ضد أثينا المكللة بالنصر. أراد الملك أن يتناول غذاءه ولو مرة واحدة مع زوجته وبعث «لليس» ليرسل له نصيبه، ولكن مجلس الجيش رفض أن يسمح بإرساله، وحينما عرضت هذه الحادثة على مجلس المراقبين في اليوم التالي جعلوا الملك يدفع غرامة[2].

من الواضح أن نظاماً كهذا تحدي الطبيعة البشرية هذا التحدي الصارخ ما كان ليستطيع أن ينفذ دون نوع من قصاص خارجى جماعى شامل. وهذا العقاب قام به الرأي العام الذي عرف كيف يوقع القصاص على المذنب في حق التشريع الاجتماعي الإسبرطي بعقارب تلدغه بقسوة أقسى بكثير جدا من سياط المراقبين. وهذه الظاهرة أوضحها

---

(1) كلمة جمعية المائدة المشتركة (المترجم)

(2) بلوتارخ. المأثورات اللاكونية، ليكورجوس المجلد السادس.

أحد الباحثين الأثينيين [1] الذي درس النظام الإسبرطي في أيامه الأخيرة قبيل انهياره.

" إن إحدى مآثر ليكورجوس المشهورة هو أنه جعل من الأفضل في إسبرطة أن يموت الإنسان شريفة خير من أن يحيا مجللا بالعار، وفي الواقع إن الاستقصاء يبين لنا أن هناك فعلا قتلى في ساحة الحرب بين الإسبرطيين أقل من قتلى تلك الجيوش التي تستسلم للخوف وتولى الإدبار. ولذلك فإن الشجاعة في الحقيقة تثبت في النهاية أنها عامل من عوامل البقاء وأشد أثراً من الجبن. إن طريق الشجاعة أهون وألطف وأسس وأكثر أمانا. وينبغي ألا أسقط من حسابي أن أشرح كيف تأكد ليكور جوس من أن هذا الطريق يجب أن يسلكه الإسبرطيون. إنه استوثق من ذلك بأن ضمن سعادة مؤكدة الشجعان وشقاء أكيدة للجبناء. أما في المجتمعات الأخرى فكان العقاب الوحيد للجبان أن يرسم بهذه الكنية. أما فيما تبقى من الأمور، فإنه يترك حرة يعمل ويلعب جنبا إلى جنب مع رجال يتميزون بالشجاعة، إن أراد ذلك. أما في إسبرطة فكان الأمر على النقيض من ذلك، فإن أي شخص كان يشعر بالعار أن يتخذ جبانا زميلا له في جماعته أو أن يتخذ منه رفيقا في ألعابه الرياضية. وكثيرا ما يحدث أن يترك الجبان عند اختيار فريق الكرة، وفي الخوارس [2] يدفع به إلى أخس المواضع، وعليه حين يسير في الشارع أن يتقدمه كل إنسان ويفسح الطريق على المائدة لمن هم أصغر منه سنة و يبقى نساءه داخل

---

(1) زينوفون – الجمهورية الإسبرطية الفصل العاشر

(2) الحورس (جوقة الترقيم) وهي كلمة بجمعية (المترجم)

البيت و يتحمل وخزاتهم لنقص رجولته، ويستسلم لعدم وجود ربة دار في منزله ويدفع غرامة علاوة على ذلك من أجل هذا، ولا يخرج من بيته أبدا ببشرة مدهونة بالزيت، ولا يباشر في الحقيقة آمرة ما يباشره الإسبرطيون الذين ليس هناك وصمة ما على سمعتهم – وإلا ناله قصاص جسمانى ممن هم خير منه. أما من جني فلا تخاجلني دهشة إطلاقا أنه في مجتمع يلقي الجبن فيه هذا العقاب الرهيب، الموت خير من حياة ملؤها مثل هذا الشنار والعار [١].

ولكن العقاب وحده، مهما كان من قسوته، لم يكن ليخلق هذا المستوى الأخلاق الإسبرطى أو ليوحي بهذه البطولة التي تفوق مستوى البشر الذي جعلها هذا المستوى الأخلاقي في حيز الإمكان. إن العقاب الذي هل من الإسبرطيين ما كانوا عليه كان عقابا داخليا وخارجيا، فإن الرأي العام المجمع عليه لهذه الأنفس القاسية جعل الحياة أمرا لا يطاق أمام أي شخص منهم فشل أن يعيش طبقا للمستوى الأخلاق العام، وكانت هذه الأنفس لا تبدي من جانبها رحمة في هذه الأحوال لمجرد أنها كانت تتطلب بإخلاص نفس المستوى الأخلاق من نفسها شخصيا. وكان هذا الأمر المطلق في نفس كل نبيل إسبرطي مخلص القوة الدافعة الأساسية التي جعلت النظام الليكورجي يظل معمولا به – مع تحديد المطلق للطبيعة البشرية – لمدة تربو على أكثر من مائتي عام و تنكشف فحواه في المحادثة التي لا شك في أنها محادثة تصورية، ولكنها مع ذلك محادثة تحمل معلومات قيمة، تلك المحادثة التي جعلها هيرودوت

(١) زينيفون : الجمهورية الإسبرطية.

على لسان كل من البادشاه الفارسي أجزركسيس ودماراتوس الملك الإسبرطى المني الذي كان يخدم في بلاط أجوركسيس حينما كان جيش أجزركسيس سائرة من الدرنيل ليهاجم تير موبيلى. سأل أجزركسيس دمار اتوس إذا كان يتوقع أية مقاومة : فأجابه دماراتوس أنه على الرغم مما قد يفعله الإغريقيون الآخرون فإن في وسعه أن يضمن فيما يختص بمواطنيه الإسبرطيين (مع أنه شخصيا ليس هناك ما يدعوه لحبهم) إنهم سيهبون للقتال دون أن يحسبوا حسابا لعدم التكافؤ في العدد. وحينما يأبي أجزركسيس أن يتقبل الرأي القائل إن جنودا ذوي إرادة حرة كما هو مفروض في الإسبرطيين سيواجهون مختارين تجربة قاسية أمكن أن يساق إليها جيش أجزركسيس فحسب بدافع الرهبة من قائده وكرها بالسياط أجاب دماراتوس قائلا :

"على الرغم من أن الإسبرطيين أحرار إلا أنهم ليسوا أحرارا تماما. إنهم يخدمون أيضا سيدا في صورة القانون الذي يرهبونه رهبة أكثر شدة بكثير مما يرهبك خادموك. إنهم يظهرون هذا بعمل كل ما يأمرهم سيدهم به، وأوامره كلها دائما واحدة : (إن التقهقر في المعركة محرم أمام قوى العدو مهما كان من قوتها. إن على الجنود أن يحتفظوا بتشكيلاتهم وينتصروا أو يموتوا).

كانت تلك هي الروح التي أوحت إلى الإسبرطيين بجلائل أعمالهم ؛ وقد طبعت تلك الأعمال الجليلة اسم إسبرطة بالطابع الذي لا يزال يحمله في كل لغة حية إلى اليوم. إن تلك الأعمال مشهورة لدرجة أننا لسنا في حاجة أن نعيد سرد قصص مألوفة في هذا الفصل. أليست قصة

ليونيداس و الثلاثمائة في تير موبيلي مدونة في كتاب هيرودوت السابع؟ وأليست قصة الولد و الثعلب مكتوبة في حياة ليكور جوس لبلوتارخ ؟ وألا تحمل هاتان القصتان بين طياتهما قصة أعمال البطولة الفريدة بحذافيرها التي تميز بها غلمان الإسبرطيين ورجالهم ؟ وإذا كنا لا نستطيع أن تترك الحديث عن الإسبرطيين – وهذا أمر لا نستطيعه صراحة – دون أن نلقي أولا نظرة على الجانب الآخر من الموضوع كذلك، فإن علينا فقط أن نذكر أنفسنا أن السنتين الأخيرتين في تعليم الصبي الإسبرطى قبل بلوغه سن الرشد – وهما العامان البالغان مي الحرج اللذان كانت تعتمد عليهما دون سواهما من الأعوام الأخر آماله في انتخابه جماعية لينخرط في سلاك جماعة رفقة النبلاء – هذان العامان كان يقضيهما الصبي في الشرطة السرية التي لم تكن شيئا أكثر من إصابة قتل كانت تحس في المناطق اللاكونية (الإسبرطية) سرآ مستخفية النهار وسارية بالليل متوخية حذرها إلى كل الجهات يختلسون النظرات مثل النسوة الساقطات اللائي يتعمد من في الظلام هنا و هناك، وذلك لأجل القضاء على أي موالى (هيلوت) قد تبدو منهم بوادر جموح أو قد يظهر عليهم مورد آثار شهرة أو قوة. وحينما تطلبت إسبرطة، واستدعت في الوقت المناسب بطولة ليونيداس والثلاثمائة الذين تحت قيادته، تلك البطولة الخليقة الرجال ليجللوا اسم إسبرطة بأكاليل مجد حربي لا قرين له، تطلبت بالمثل الإدارة الإجرامية لشرطتها السرية. ولم تفشل في استعراضها هذا – وذلك لكي تتمكن الأقلية الضئيلة من النبلاء الإسبرطيين أن يطئوا بأقدامهم على رقاب أغلبية ساحقة العدد من

المرء و سين والتابعين والأعضاء الذين اندمجوا حديثاً في المجتمع الإسبرطي والأرقاء الذين كان يسرهم أن تتاح لهم الفرصة أن يبتلعوا تلك الحفنة من أسيادهم أحياء. وإذا كان الإسبرطيون قد ارتفعوا بمقتضى النظام الليكورجي إلى مستوى من أنبل مراتب السمو الخلق ؛ فإنهم كذلك هووا في بعض النواحي إلى أحلك الأعماق.

إن كل ظاهرة من ظواهر النظام الليكورجى -- مادية كانت أو روحية، شراً كانت أم خيراً – كانت موجهة نحو هدف واحد، وهذا الهدف المحدد قد حقق تماماً. ومقتضى النظام الليكورجنى كانت فرق البيادة الإسبرطية الثقيلة أحسن بيادة ثقيلة في العالم الإغريق. وكانت تلك الفرق أفضل بكثير من أية فرق إغريقية أخرى من نوعها. وظلت جيوش الدول الإغريقية الأخرى ما يقرب من قرنين من الزمان ترهب مقابلة الجيش الإسبرطي في معركة منظمة. وكان اللاسيديمونيون في التدريب العسكري والروح المعنوية أيضا لا يمكن مقاومتهم. ولكن من أجل هذا خصب لم يكن هناك متسع في النظام الليكورجي لأكثر من نوع واحد من الاحتراف.

إن عبقرية النظام الليكورجى التي سلكت سبيلا واحدة فقط تبدو الأول وهلة لعين أي زائر للمتحف الإسبرطي في أيامنا هذه. وذلك لأن هذا المتحف يختلف اختلافا كليا عن أية بمجموعة حديثة أخرى من أعمال الفن الإغريق الموجودة سواء في اليونان أو في غيرها. في المجموعات الأخرى من هذه المجموعات الإغريقية نجد عين الزائر تبحث عن آثار العصر القديم وتميزها وتعثر عليها وتركز اهتمامها عليها،

تلك الآثار الفنية التي ترجع تقريبا لقرنين الرابع والخامس قبل الميلاد. ومع ذلك ففي المتحف الإسبرطي نجد الفن الإغريق القديم يتميز بعدم وجوده. إن المعروضات التي تخلفت عن العصر السابق للعصر القديم نجدها هنا أول ما يجذب نظر الزائر ويغلب البه : حفر دقيق على العاج وخزف فوليكروى [1] مدهش طلاه وزخرفه فنانون موهوبون في الرسم واستعمال الألوان. وعلى الرغم من أن مخلفات الفن الإسبرطي القديم هذه مؤلفة من قطع غير كاملة فإنها تحمل آثار الابتكار والشخصية الواضحة. والزائر الذي اهتدى إليها لأول مرة هنا يتطلع وهو يحدوه الأمل أن يرى ما إلى ذلك – إنه فقط يتطلع عبثا، إذ أن هذا الازدهار المبكر للفن الإسبرطي إنما كان بشيراً مستقبل زاهر وسب لم يتحقق. إذ نجد فجوة واسعة في المكان الذي كان من الواجب أن يحتوي على آثار تقف شاهدة على الفن الإسبرطي القديم. ولا يحتوى المتحف الإسبرطي غير هذا إلا على أشياء قليلة فيما عدا كثرة مفرطة من أعمال النحت القليلة الأهمية ذات الطراز الواحد الذي لا أثر للإلهام ألفي فيه، يرجع تاريخها إلى العصر الهيليني الحديث و أوائل العصر الإمبراطوري. و يوجد بين هاتين المجموعتين من المعروضات في المتحف الإسبرطي هوة تاريخية عظيمة، وهذه الهوة التاريخية موضحة بالتواريخ. والتاريخ الذي

توقف عنده الفن الإسبرطي فجأة هو تقريباً ذلك التاريخ الذي يوافق رئاسة خيلون في منتصف القرن السادس ق.م. إن استئناف الإنتاج الفني

([1]) كلمة مجمعية (المترجم).

الذي عاد كذلك فجأة إلى الظهور تقريبا في عصر اضمحلال كان في مدة تلت عام ١٨٩ – ١٨٨ ق.م. وهو التاريخ المعروف لإلغاء النظام الليكورجي في إسبرطة نتيجة للسياسة المرسومة لفاتح أجني بعد أن أنضمت إسبرطة بالقوة إلى العصبة الآخية. إن الفن في إسبرطة كان مستحيلا مادامت الحياة الإسبرطية مقتصرة بمقتضى هذا النظام القاسي على سلوك سبيل واحد، ألا وهو السبيل الحربي.

إن الشلل الذي أصاب الفن الإسبرطي التصورى و التدريرى[١] في عهد النظام الليكورجي كان ميتا أيضا لفن الموسيقي، الذي كان الإسبرطيون قد اظهروا فيه بشائر نبوغ مبكر. وقد ثبطت السلطات الإسبرطية بالفعل من هم مواطنيها في تذوق فن هو قريب جدا إلى نفس الجندي لدرجة أنه في عالمنا العربي الحديث نعتبره كأحسن إعداد للتدريب العسكري. وكان الإسبرطيون ممنوعين من المنافسة في الألعاب الرياضية الإغريقية العظيمة العامة بحجة أن احتراف الجري والوثب ورفع الأثقال كان شيئا واحتراف استعمال الرمح والدرع وتأدية الحركات في ساحة الاستعراض العسكري كان شيئا آخر مختلفا للغاية ويجب ألا ينصرف عنه قلب الإسبرطي وعقله لأي سبب من الأسباب.

ولذلك فإن إسبرطة قد لاقت عقابها جزاء اندفاعها وركوب رأسها في اتخاذها طريقها المحفوف بالمخاطر عند تفرق السبل في القرن الثامن قبل الميلاد، وذلك بأن قضت على نفسها في القرن السادس أن

---

(١) خاس بالحفر والنقش، كلمة جمعية (المترجم).

تقف ساكنة لا تتحرك – رافعة سلاحها كأنها جندي في استعراض – وذلك في اللحظة التي كانت بقية الإغريق قد بدءوا فيها يتحركون قدما مرة أخرى في حركة من أشهر الحركات في التاريخ الإغريقي بأجمعه.

إنه ليستدعي منا مجهوداً تصوريا أن نذكر أنفسنا أن جماعة الإخوان النبلاء تمثلت فيهم أقدم ديمقراطية إغريقية، وإن إعادة تقسيم الأرض الزراعية في مسينيا بين أعضاء هذا الشعب الإسبرطي بأنصبة متساوية صارت هي شعار الثورة التي زلزلت أركان أثينا في العصر التالي. وقد قدر للحركة الجديدة في إسبرطة التي أعلنت عن نضوجها المبكر في الإصلاح الليكورجى أن يقف نموها قبل الأوان عند مرحلة مبكرة من مراحل النمو، وذلك لأن النظام الليكورجى غير وجه الحياة الإسبرطية لا لشيء إلا ليشل حركتها بعد ذلك إلى الأبد. إن كون هذه الميول الجديدة في الحياة الإغريقية قد قدر لها أن تظهر نفسها في أعمال جديدة من أعمال الإنتاج لم يكن في إسبرطة ولم يكن استجابة للتحدي الخاص الذي وجه الإسبرطيين في الحرب الإسبرطية المسينية الثانية. إن العمل الإنتاجي للقرن السادس ق.م استدعاه تحد من نوع آخر، وقد وجه هذا التحدي في أول وهلة لتلك المجتمعات الإغريقية التي كانت قد استجابت للتحدي السابق في القرن الثامن، ولم تكن هذه الاستجابة عن طريق أتباع السياسة الإسبرطية في فتح بلاد جيران لهم في الإغريق ولكن بإتباع سياسة الكالسيديين والميجاريين فيما وراء البحار.

بعد أن حلت المشكلة الملتوسية [1] – أو وضعت على الرف في بلاد الإغريق عامة بهذه الطريقة لمدة تبلغ حوالي قرنين من الزمان، برزت للمرة الثانية، وكانت في هذه المرة أكثر حدة مما سبق، بتوقف التوسع الإقليمي العالم الإغريق في جميع الجهات في نفس الوقت.وقد توقف التوسع الإغريقي شرقا في القرن السادس قبل الميلاد بقيام دول عظمي جديدة – الدولة الصاوية في مصر، والدولة الليدية في الأناضول، والإمبراطورية الفارسية القديمة الأقوى بكثير منهما والتي بزتهما أولا ثم ابتلعتهما بعد ذلك معا. و خلال القرن ذاته توقف التوسع الإغريق في غربي البحر الأبيض المتوسط أو حيد صفوف شعوب شرق البحر الأبيض المتوسط الاستعمارية المتنافسة بس الفينيقيين والأتروريين [2] – الذين وجدوا الآن في تعاونهم السياسي ما يسد نقص كونهم أدني حيوية وعدد من الإغريق. وفي نفس الوقت فإن مواطني برابرة الغرب بدءوا يتعلمون كيف يحتفظون بكيانهم ضد جميع المتطفلين من بلاد الشرق بمحاربتهم بنفس أسلحتهم. وبهذه الطرق المختلفة أوقف التوسع الإغريق في جميع الجهات المحيطة بهم، وهذا التحدي حث الإغريق أن يحلوا مشكلاتهم الاجتماعية التي برزت للوجود مرة أخرى بأن يستبدلوا بمجرد النمو التوسعي الذي لم يصبح بعد ميسور لهم تطورا عميق النظام اجتماعى أن كان لا يزال في طوقهم أن يقيموه. إنهم انتقلوا من مرحلة

---

(1) مشكلة تزايد السكان نسبة إلى ملتوس (توماس. –) قسيس ورجل اقتصاد إنجليزي (١٧٦٦ – ١٧٣٤) مشهور بنظريته القائلة إن سكان العالم يتزايدون أسرع من تزايد المواد الغذائية (المترجم).

(2) سكان اتروريا – القدماء ايطاليا.

الزراعة إلى تكفي لإقامة أودهم فحسب إلى مرحلة الزراعة التي تكون مصدر دخل لهم وإلى الصناعات، من نظام اكتفاء ذاتى محلى إلى نظام تجارة خارجية، من اقتصاد طبعي إلى اقتصاد نقدي، ومن نظام حكومى قائم على النسب إلى نظام حكومى قائم على الملكية. وكان الذي تقدم الجميع في تلك الاستجابة المظفرة هي أثينا، ذلك الجواد الظافر المجهول الذي لم يشترك في حركة الاستعمار فما وراء البحار قبل ذلك، ولكنه أيضا لم يحتذى حذو إسبرطة في مأزقها المسيني الذي تورطت فيه.

إن علينا أن نذكر طبيعة الاستجابة الأثينية فحسب لكي يظهر التباين بين التقدم الإغريقي تحت زعامة أثينا و بين الجمود غير الإغريقي لإسبرطة. إن هذا التباين يمثله تمثيلا لائقا التباين بين العملة النقدية الأتيكية والعملة النقدية الإسبرطية. إن الاختراع الحديث للعملة النقدية وجد طريقه إلى إسبرطة قبل أن يثبت النظام الليكورجى أقدامه، وحتى من ذلك الوقت فصاعدا بقي ليلعب دورا هاما في الحياة الداخلية لجماعة الإخوان النبلاء الإسبرطيين، إذ أن اشتراك النبيل لجماعته، الذي كان من اللازم أن يثابر عليه خشية أن يفقد عضويته، كان يدفع نقدا وكذلك عينا. ولكن على الرغم من أن المصلحين الإسبرطيين في القرن السادس لم يستطيعوا أو لم يرغبوا في إقصاء العملة من لاكونيا كلية، إلا أنهم نجحوا في الملائمة بين هذا العرف وبين ما يهدفون إليه، مثل بقية التقاليد الأخرى بأجمعها التي وجدوها في الميدان أمامهم. إنهم سمحوا لمواطنيهم أن يحتفظوا بعملة حديدية رمزية كانت ثقيلة وضخمة يتعذر

استعمالها العادي وكانت تعالج كما و يا بطريقة تجعلها خسيسة في نوعها بدرجة ألا يكون لها قيمة تجارية حقيقية حتى بكميات كبيرة. ولذلك فإن لاكونيا كانت مستبعدة من مجرى العلاقات الدولية لكونها كانت تملك عملة غير قابلة للتداول فيما وراء الحدود اللاكونية، وهذا بالضبط له نفس الأثر كما لو كانت لا تملك عملة على الإطلاق. وفي خلال ذلك أصبحت عملة أثينا التي تحمل صورة البومة هي العملة السائدة في جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط، وإن الوصول العرض لعدد. من هذه العمل المتنقلة إلى إسبرطة ذاتها كان من شأنه أن يثير فزعا بين السلطات الإسبرطية أكثر ما يثيره استيراد آلة موسيقية بها أكثر من سبعة أوتار. إن جيليبوس الإسبرطي نفسه الذي كان له الفضل أكثر من أي فرد آخر في هزيمة أثينا في الحرب العظمى ٤٣١ – ٤٠٤ ق.م في فشل المحاولة الأثينية الفتح صقلية، أجبر أن يذهب إلى النبي في اليوم التالي للصلح، حينما أبلغ خادمه أن هناك مقدار من العملة الأثينية في مدينة القرميد.

وعلى ذلك فإن النظام الليكورجي الذي أقامه الإسبرطيون ليدافعوا عن سيطرتهم على الهيلوت (الموالي) في وطنهم كان من أثره أن أوقفهم زيادة على ذلك موقف الدفاع ضد العالم الإغريق كله. وأعظم ما يدعو إلى السخرية في موقف إسبرطة كانت تلك الحقيقة التي تتلخص في أنها حينما ضحت بكل شيء يجعل الحياة حياة تستحق أن يحياها الإنسان في سبيل ذلك الهدف الوحيد ألا وهو هدف تكوين أداة حربية لا تقاوم، وجدت نفسها لا تتجاسر أن تستفيد من قوتها التي دفعت لها

ثمنا غاليا، وذلك لأن التوازن الاجتماعي بمقتضى النظام الليكورجي بلغ غاية من الدقة كما بلغ توترها الاجتماعي غاية من الشدة لدرجة أن أبسط اضطراب في الحالة القائمة كان من شأنه أن يتسبب في نتائج وخيمة. وقد يتسبب في هذه الكارثة نصر قد يقتضي المزيد الدائم من القوات البشرية الإسبرطية بنفس السرعة تقريبا التي قد تتسبب فيها هزيمة تفسح الطريق أمام غزو الأراضي إسبرطة الوطنية. ونتيجة لذلك فإن النصر المميت في عام ٤٠٤ ق.م والهزيمة المميتة التي تلته في عام ٣٧١ ق. م جليا على الإسبرطيين الكارثة التي ظلوا دائما يخشونها مذ نجحوا في جعل أنفسهم أصلب القوى الحربية مراسا في عالمه. غير أن الحركة السياسية الإسبرطية تمكنت من تأجيل هذا اليوم المشئوم لقرنين من الزمان تقريبا يبدأ تاريخها من تمام إنجاز الإصلاحات الليكورجية، و ذلك بالعزوف عن تقبل العظمة التي كانت الظروف بلا انقطاع تسعى لأن تلقيها على عاتق إسبرطة.

وطبقا لهذه الروح فإن الإسبرطيين تحاشوا مرة بعد مرة الداعي الذي هي لهم لتولى زعامة الإغريق تلك الزعامة التي هيأها لهم الخطر الفارسي. إنهم كفوا عن إرسال معونة للثوار الإغريق في الأناضول عام ٤٩٩ ق.م، ووصلوا جل متأخرين للقتال في ماراثون عام ٤٩٠ ق.م، وبعد أن جلوا أنفسهم بأكاليل المجد كرها في تيرموبيلى وبلاتيا تنحوا عن القيادة العليا القوات التحرير عام ٤٧٩ – ٤٧٨. إنهم بدلا من تجشمهم المخاطر التي استلزمتها العظمة الإسبرطية، تركوا ع دا تلك العظمة منبوذة مهجورة لتستأثر أثينا بها. ومع ذلك لم يستطيعوا حتى هذا

المن الباهظ أن يتفادوا في النهاية مأساة مصيرهم المحتوم. إذ أن رفض إسبرطة قبول هذه الزعامة التي دعتها الظروف إليها ما بين ٤٩٩ – ٤٧٨ ق.م رفضا باتا لم يستطع أن يهب لإسبرطة أكثر من حصانة وجيزة ضد معضلتها الخاصة. إن إسبرطة فضلت الشر العاجل الأقل الذي تمثل في تهيئة فرصة الزعامة للأثينيين على مخاطر هذا القبول. و بإتباع الإسبرطيين هذه السياسة كانوا يفتحون الباب لعودة التهديد للحريات الإغريقية على هيئة خطر أثيني. وفي هذه المرة وجد الإسبرطيون أنفسهم مواجهين بحد كان من المستحيل عليهم أن يتجاهلوه. إن السبب الرئيسي في رأي تيو سيديدز للحرب الأثينية البلبونيزية كان الخوف الذي بثه ارتفاع أثينا للعظمة في صدور الإسبرطيين، وهذا الخوف أجبرهم أن يحملوا السلاح – مما هددهم برؤية النطاق الصحي، لحلفهم البلبونيزى منتحلا وعدوهم الآثيني فيما وراء البرزخ يتحد مع عدوهم المسيني لإهلاكهم في عقر دارهم.

وفي سنة ٤٣١ ق.م نجحت الدبلوماسية الكورنثية في إجبار رجال السياسة الإسبرطيين أن يأخذوا في النهاية على عاتقهم زعامة الإغريق ؛ وفي الحرب العظمى التي وقعت بين ٤٣١ – ٤٠٤، قامت الأداة الحربية الإسبرطية – التي وضعت الآن في محك الاختبار إلى أقصى حد لأول مرة بتأدية كل ما قصد صانعوها، وكل الآمال التي علقها جيرانها عليها أو المخاوف التي انتابتهم. إن فزع إسبرطة من عقد حلف مقدس بين أثينا والهيلوت (الموالى)، ذلك الفرع الذي كان كابوسا أضج مضاجعها، ظهر أنه كان حلما مز ما لم يتحقق – حتى حينها ضرب

ديموستينيس المخطط الحربي الأثيني الماهر ضربته الألمعية بإقامة مركز حربي حصين في بيلوس على الساحل المسيني للاكونيا عام ٤٢٥ ق.م. ومن جهة أخرى فإن الحملة البرية للقائد الإسبرطى براسيداس إلى سواحل تراقيا، واستنفاد القوة الأثينية في حملة نيكياس البحرية إلى صقلية حققا الكابوس الذي أزعج أثينا من أن البليوفيز بين قد ينجحون في الاتحاد مع الرعايا الإغريقيين لأثينا في الجانب الآخر من بحر إيجه، وقد يتغلبون على أثينا في أراضيها بأسطول مزود بحارة أيونيين معمول بالذهب الفارسي. وحينما انتهت مرحلة إضناء المجتمع الإغريق التي جلبها بنفسه على نفسه عام ٤٠٤ ق.م، كانت أثينا وليست إسبرطة هي التي جثت ذليلة منهوكة القوي. ومع ذلك فإن نبؤة الملك الإسبرطى آجيس – التي تنبأ بها حينما تقذ السهم –. وهي أن "هذا اليوم " سيثبت أنه "سيكون فاتحة شرور عظيمة للإغريق " تحققت فيما يتعلق بالمنتصرين بدرجة لا تقل عن تحققها بالنسبة للمغلوبين، إذ أن العظمة التي حصلت إسبرطة الآن عليها متأخرة و قسرا من منافسها المهزوم ثبت أنها عظمة كانت في الحقيقة هي سبب القضاء عليها[1].

إن حرب إسبرطة الظافرة التي نشبت في الفترة بين ٤٣١ – ٤٠٤ ق.م وضعت الإسبرطيين في مأزق حرج غير عادي. إن شعبا مدر بإتمام التدريب ولكن تدريبه كان للاتصال الحربي مع جيرانه فقط وجد نفسه

([1]) الترجمة الحرفية لعبارة الكاتب (كانت حقا كقميص نيسوس) الذي قتله هرقل اليوناني وكان قميصه الملطخ بدمه الذي أرسله لهرقل سببا في تسمم جسمه حينما ارتداه وبذلك قضى عليه.

(المترجم)

فجأة مضطرا كنتيجة لإحدى الحروب المعينة أن ينشى" مع غيره علاقات غير حربية، تلك العلاقات التي لم يكن مستعدا لها فحسب، بل كانت شرائعه الخاصة وعاداته وطبيعته الخلقية لا تهيئه حقا لها. إن هذه الصفات الخاصة، التي تخلق بها الإسبرطيون لكي يعالجوا مشكلة سالفة، والتي أسبغت عليهم قوة فوق طاقة البشر في حدود بينهم العميقة التي كانت المستقر الأخير لأسلافهم فيما مضى، أخذت ثأرها الآن من هذا الشعب الغريب بأن جعلته غير كفء أن يعيش متجردة من الإنسانية أو أدنى من البشر في العالم الأوسع الذي نقلته إليه ظروف الحرب في آخر المطاف. إن الدقة المتناهية، التي روعيت في ملاءمتهم لبيئتهم السابقة، جعلت أية ملائمة ثانية لبيئة جديدة على درجة كبيرة من الصعوبة بدرجة أنها أصبحت في الحقيقة مستحيلة. ونفس الصفات التي كانت سر نجاحهم في أحد الأوضاع صارت ألد أعدائهم حينما وجدوا أنفسهم في وضع آخر. لقد تضعضعت إسبرطة حينما أخذت على عاتقها نتيجة لنصر حربي مسئوليات أثينا الإمبراطورية بدلا من مجرد إيقاع القوة العسكرية والبحرية لأثينا في مأزق لا فكاك منه.

إن التباين بين الإسبرطي في وطنه و بين الإسبرطي في الخارج كان مضغة في الأفواه في الإغريق، إذ بينما كان من المسلم به أن الإسبرطي كان يرتفع فوق المستويات الإغريقية العادية من حيث النظام الشخصي وإنكار الذات، كان ينخفض تحت نفس تلك المستويات على الأقل بدرجة متساوية بمجرد أن كان يجد نفسه خارج وطنه. إن التدهور الأخلاقي الجلي لنائب الملك بوزانياس حينما وضعته الظروف في قيادة

قوة عامة إغريقة على أرض فارسية كان إنذاراً رهيباً له أثر كبير في قرار الحكومة الإسبرطية عام ٤٧٩ –٤٧٨ ق.م في التنحي عن زعامة الإغريق. و باستعادة الماضي نجد أن هذا القرار كان له تقريبا ما يبرره حينما نجد إسبرطة أثناء الجولة الثانية الحاسمة للحرب العظمى في المدة ما بين ٤٣١ – ٤٠٤ ق.م وما بعدها قد اضطرت إلى أن ترسل إلى الخارج أناسا من أمثال بوزانياس بالعشرات. « لقد فعلنا ملاك الأشياء التي كان ينبغي علينا ألا نفعلها وتركنا تلك الأشياء التي كان ينبغي علينا أن نفعلها، إنه يعوزنا التصرف السليم. إن هذا الخاطر لابد أنه كان الخاطر الذي طاف بمخيلة سياسي إسبرطي مثل الملك اجيسيلاوس عقب موقعة ليكترا، ذلك الملك الذي كان مسنة لدرجة أنه يتذكر النظام القديم.

وفي عام ٣٧١ ق. م كانت أغلبية النبلاء الإسبرطيين يقومون بالخدمة العسكرية خارج حدود لاكونيا داخل الحصون في الولايات الإغريقية الأخرى التي كانوا يوما ما حلفاء أحرارة الإسبرطة، ولكنهم بعد ذلك لم يكن في الاستطاعة ضمان ولائهم إلا بمجرد القوة الحربية، وقد انتدب خيارهم من واجباتهم العسكرية ليشغلوا مراكز إدارية وسياسية ساءت شهرتهم فيها بدرجة حتيرة، كما ساءت شهرة بوزانياس ذاته وذلك لقلة ذوقهم وطغيانهم وفسادهم حتى أصبح اللقب المحترم وهو لقب ، المعتدلين، الذي أطلق على هؤلاء الجنود الصارمين في الخارج تمجه الأسماع في بلاد الإغريق. إن نفس هؤلاء النبلاء الإسبرطيين الذين جعلوا اسم إسبرطة تفوح منه رائحة كريهة كتلك التي تفوح من السمك بعد

مغادرته الماء، لو أتاح لهم القدر أن يحققوا الأماني التي شبوا في وسطها بتركهم يحيون حياة المعسكرات على شواطىء نهر يوروتاس حتى تعبئة الجيش الإسبرطي في حرب اليكترا، لكانوا بلا شك قد أبدوا فضائلهم الإسبرطية التقليدية. ولسوء حظ سمعتهم وسمعة دولتهم كان هؤلاء الرجال جميعا غائبين في تلك الساعة الحرجة، ولم يكن في فيلق الجيش الإسبر طى تحت قيادة الملك كليومبروتس الذي هزم هزيمة منكرة في ليكترا على أيد الطيبيين عام ٣٧١ ق. م غير أربعمائة من الإسبرطيين مشتركين في القتال باستثناء الثلاثمائة فارس الذين كانوا دائما في الخدمة العاملة حرسا خاصا لملك إسبرطة. وهذا الرقم معناه أنه كان في صفوف البيادة اللاسيديمونيه في تلك المناسبة الحرجة إسبرطي واحد في كل عشرة بدلا من أربعة إسبرطيين بين كل عشرة لاسيديمونبيين وهي الحصة المفروضة وإذا لم تكن الحصة الإسبرطية قد نقصت هكذا في ليكترا إلى ربع قوتها العادية، لغمرنا الشك في أنه حتى شجاعة البيادة الطبية والعبقرية التكتيكية للقائد الطيبي إبامينونداس الذي عرف كيف يستفيد إلى أقصى حد من القوة الحربية لجنوده كان في إمكانها تحقيق نجاحهم التاريخي في تحطم ذلك الرقم القياسي للقوة اللاسيديمونية التي لا تقهر، والتي ظلت قرنين و نصف قرن من الزمن على الأقل إلى ذلك التاريخ لا يمكن تحطيمها.

وفوق ذلك فإن النصر الإسبرطي على أثينا في الحرب العظمى بين ٤٣١ – ٤٠٤ ق. م سبب انهيار إسبرطة بطرق أخرى أشد فاعلية، إلى جانب الإلزام الذي فرضته عليها لانتداب نبلائها من الخدمة العسكرية،

التي لم يكن من المأمون الاستغناء عن خدماتهم فيها، إلى أعمال غير عسكرية لم يكن من المأمون أن تسند إليهم. إن هذا، مثلا، أدى إلى انهيارها بتعريضها متأخرة، مما رزأها بالنوائب تبعا لذلك، إلى التأثيرات الاجتماعية المدمرة للاقتصاد النقدي التي وقوا منها بطريقة غير طبيعية أمدا طويلا.. إن التاريخ الذي انتاب لاسيديمونيا[1] فيه المرض الاجتماعي والفساد يتفق فعليا مع اللحظة التي قضوا فيها على الإمبراطورية الأثينية واكتظت بالمعادن النفيسة [2]. و بالمثل أحدث إدخال الاقتصاد النقدي في أعقابه انقلابا مدمرا في الموقف الإسبرطي تجاه الملكية الشخصية. إن سياسة المحافظة الإسبرطية لم تستطع بالفعل أن تجعل نفسها تذهب إلى مدى السماح بشراء و بيع العقار الثابت في الأسواق، ولكن في تاريخ ما غير معروف في القرن الرابع ق.م أقر المجلس التشريعي الإسبرطي مشروع قانون يعطى الحق للحائز على عقار عائلي أو على إقطاعية من الإقطاعيات أن يتصرف فيها أثناء حياته أو يوصي بها بمقتضي وصية منه لأي فرد يختاره[3]، إن تأثير هذا البند التشريعي في نقص عدد النبلاء الإسبرطيين لابد أنه كان ذا أثر أعظم بكثير من الإصابات الإسبرطية الخفيفة نسبيا في ليكترا، ويحتمل أن يعادل في قوة أثره فقدان مسينيا الذي كان القصاص السياسي لهزيمة إسبرطة الحربية. وحينما كان أرسطو يضع كتابه « علم السياسة، كان هذا

([1]) اسم آخر يطلق على إسبرطة.

([2]) حياة آجيس ليلوتارخ الفصل الخامس.

([3]) حياة اجيس ليلوتارخ الفصل الخامس.

القانون السيئ الطالع يحدث بالفعل نتائج وخيمة بدرجة ملحوظة. وقبل عهد الملك الشهيد آجيس الذي اعتلى العرش في أوائل النصف الثاني من القرن الثالث ق. م لم يكن باقيا على قيد الحياة أكثر من سبعمائة إسبرطي، وربما كان من هؤلاء مائة يملكون أرضا أو إقطاعية. بينما كان الباقون جمهورا معدما محروما من الحقوق السياسية [1].

وهناك ظاهرة اجتماعية أخرى واضحة المعالم تميزت بها حالة التدهور الإسبرطي، ألا وهي سيطرة النساء الرهيبة، فقد كان سوء توزيع النفوذ والسلطة كسوء توزيع الملكية ملاحظا بالفعل في أيام أرسطو، وإننا لنجد في أسطورة الملوك المنقذين آجيس وكليو مينز اللذين حكما إسبرطة بعد ذلك قرن من الزمان أن الدور الذي خصص للنساء النبيلات، اللائي يلهمن ويواسين ويرثين الأبطال، كان دورا بارزا كدورهن في إنجيل العهد الجديد. إن هذه الأسطورة توحي إلينا أنه على الرغم من انتقادات أرسطو السلوك النساء الإسبرطيات أثناء غزو إيبامينو نداس لوداى اليورو تاس في شتاء ٣٧٠ – ٣٦٩ ق.م، فقد أثبتن حقة بفضل ما يتحلين به من فضائل في عصر التدهور الإسبرطي سيادتهن الأدبية على أزواجهن وأبنائهن. وإذا

كانت هذه هي الحقيقة، فإنها تلقى بعض الضوء على سقوط النظام الليتورجي، وذلك لأنه على الرغم من أن النظام قد طبق على النساء كما طبق. على الرجال، فإن الفتيات الإسبرطيات والنسوة المتزوجات لم

(1) حياة اجيس ليلوتارخ الفصل الخامس.

يتعرضن لضغطه بالدرجة التي تعرض له بها إخوانهن وأزواجهن، وإذا كنا مصيبين في اعتقادنا أن التدهور المعنوي للرجولة الإسبرطية كان قصاصا للجمود الأخلاقي الذي كان ثمرة صرامة النظام الليكورجي المفرطة، فعلى ذلك ففي وسعنا أن نعتقد أن الحصانة النسبية للنساء من هذا النظام غير الطبيعي هي تركهن يتميزن بمرونة خلقية كانت تجعلهن ينثنين و يتراجعن تفاديا لمحنة حطمت روح الرجال الإسبرطيين تحطيها تاما.

إن تأبين النظام الليكورجى دبجه براع أرسطو على هيئة قضية عامة حيث يقول :-

"إن الشعوب ينبغي ألا تدرب نفسها على فنون الحرب ناظرة إلى إخضاع جيران لها لا يستحقون أن يستعبدوا. إن الهدف الأسمى لأي نظام اجتماعى يجب أن يكون سن قوانين عسكرية ككل قوانينه الأخرى مدخلا في حسابه ظروف السلام حينما يكون الجندي مسرحا، وهذه القضية تدعمها الحقائق التي ولدتها التجارب. فإن الدول العسكرية تصلح للبقاء فحسب طالما بقيت في حرب، بينما تسير إلى الدمار بمجرد أن تنتهي من غزواتها. إن السلام يتسبب في جعل معدنها يفقد صلابته، والنظام الاجتماعي الذي لا يعلم جنوده كيف يتصرفون في حياتهم حين تسريحهم إنما هو نظام معيب "

وهكذا فإن النظام الليكورجي هدم في النهاية نفسه بنفسه بطريقة حتمية ولكن حتى مع انتحاره فإنه قاوم إلى النهاية. وعلى الرغم من أنه أتى إلى الوجود لغرض معين وهو تمكين إسبرطة من الاحتفاظ بوضع

يدها على مسينيا؛ فإن النظام الليكورجى ظل يمارس فعلا في إسبرطة، نتيجة لروح المحافظة التامة، لمدة قرنين تقريبا بعد أن ضاعت مسينا ضياعا لا رجعة فيه. ومع أن الملك كليومينيز الشهيد أستبدل ببطيء بأربعة الآلاف إقطاعية الإسبرطية في مسينيا إعادة تقسيم الأرض الباقية الإسبرطية شرقى تايجيتوس في وادي اليوروتاس إلى إقطاعيات جديدة مساوية في العدد، فإن التأثر الملكي لم يقتنص هذه الفرصة ليحرر ملكته من لعنة الرق القديمة. وحيث إن السبعمائة إسبرطي الباقين على قيد الحياة، وكان هؤلاء كل من تبقى منهم،. لم تستغرق أنصبتهم أكثر من ٢٠ ٪ من أربعة الآلاف إقطاعية التي قسمت إليها أملاك مائة نبيل إسبرطي الباقين على قيد الحياة، فإن كليو مينيز من المفروض عقلا أنه منح لعدد يزيد على ٣٠٠٠ من الهيلوت والبربيسى[١] الحقوق السياسية الإسبرطية ليكمل أعداد هيئة مواطنيه الإسبرطيين الجدد، ولكن هؤلاء لم يكونوا إلا أقلية من الهيلوت الباقين على قيد الحياة، إذ أن كليو مينز حرر منهم فوق ذلك ستة آلاف، مقابل دفع دية نقدية كبيرة عن كل رأس، وجند ألفين من هؤلاء الرجال الذين منحهم حريتهم في جيشه قبيل موقعة سيلاسيا حينما وصل خصمه المقدوني أنتيوجونوس دوزون إلى تيجيا. وحينما غزا الرومان لاكونيا عام ١٩٥ ق.م وجدوا الهيلوت ما زالوا يعيشون هنا في حالتهم التقليدية.

إن أهم الأعمال الخارجة لروح عدم الاستسلام الإسبرطية كانت

---

(١) اسم يطلق على طبقة من السكان في اسبرطة كانوا كالهيلوت تغلب عليهم الإسبرطيون. ولكنهم كانوا يختلفون عن الهيلوت بأنهم كانوا أحراراً لاموالى. (المترجم)

المحاولة التي قام بها الملوك الشهداء آجيس وكليو مينز لكسو عظام النظام الليكورجى اليابسة لحما، و نفح روح جديدة في جثته، وذلك بعد مضي قرن ونصف على العام من انتصار إسبرطة العظيم على أثينا الذي قرر النهاية المحتومة للنظام الليكورجى، وفي هذا العمل الفريد الأخير الذي يتميز بعنفه أرجعت مجلة الحياة الإسبرطية المتداعية، بعد بذل أقصى مجهود معارض لأي تجديد، إلى الخلف بدرجة كبيرة جدا بحيث إنها أحدثت انقلابا بالفعل، وهذه الحركة العنيفة حطمت في النهاية البناء الاجتماعي المقلقل من أمد طويل. إن الجراحة التي قام بها كليومينز كان من تأثيرها أن قتلت هيئة اجتماعية لم يكن من الممكن لهذه الجراحة أن تشفيها. إن القصبة المرضوضة حطمتها تلك اليد التي سعت أن تقوم اعوجاجها، وإن هذا الكتان الذي كان الدخان ينبعث منه أطفئ إلى الأبد بالنسمة التي قصد بها أن يعاد انبعاث لهب منه.

ومن ذلك الوقت فصاعدا عاشت إسبرطة كلية في ذكريات الماضي الجميلة، وامتازت – إن صح أن يدعى هذا امتيازا – برغبتها الجامحة التي ألقت بها نفسها في أحضان هواية حب التراث القديم العلمية التي كانت الهواية السائدة في جميع أنحاء بلاد الإغريق أثناء القرنين الأولين من الإمبراطورية الرومانية. إن الإسبرطيين في العصر الإمبراطورى شعروا بلذة، كبقية معاصريهم جميعا، في تأليف كتابات كريكو تيرية [1] تسبغ عليهم المجد والشرف بلهجتهم المحلية المنقرضة، ولكن هذه النزعات

([1]) كلمة جمعية

العالمية [1] البريئة التي كانت ترمي إلى إحياء التراث القديم كانت في إسبرطة مصحوبة على الأقل بعرض من حنين مرضى القديم ذي طبيعة بشعة. إن طقسا بدائيا من طقوس الإخصاب الذي يتمثل في ضرب الصبيان بالسياط عند هيكل أريميس أدر هيا الذي حوله النظام الليكورجي بسبب مراميه العنيفة التي كانت مع ذلك مرامى نفعية إلى تنافس في تحمل الألم، بولغ فيه في أيام بلوتارخ إلى وحشية قاسية تثار فيه حماسة الصبيان إلى درجة من الهستيريا يستسلمون معها للجلد حتى الموت. ويقول بلوتارخ في سرده لأسطورة الصبي الإسبرطي والثعلب المشهورة. إن هذا قد لا يصدقه الشباب الإسبرطي في يومنا هذا، إذ أني قد رأيت بنفسي كثيرة منهم يلقى حتفه تحت السياط في هيكل أدر هيا،. إن قوى هذا المشهد، الذي كان يباشر بدون تردد وكان عملا من أعمال التجلد على المكاره اللا إنسان أو الذي يفوق طاقة البشر، ولكن دون جدوى، إنما هو خاصية من خاصيات الخلق الإسبرطي يتمثل فيها مصيرهم. فلو أن إسبرطيا صلى في أي وقت ليطمئن نفسه أن هذا العمل المتناهي في العظمة لا يذهب أدراج الرياح، لكانت تلك الصلاة بكل تأكيد تنطلق بها شفتاه عبثا.

إن غرور الأماني الإسبرطية يظهر لنا من خلاصة تقرير قضائي لا أهمية له في غير هذه المناسبة يسجله لنا المؤرخ الروماني تاكيتوس – دون أن يدرك أهميته التاريخية على ما يبدو – في حولياته عن الإمبراطورية الرومانية عام ٢٥ ميلادية.

---

(1) نزعات ادعاء العلم

"عقدت جلسة لوفدى حكومتى لاسيديمون ومسينيا خاصة بالوضع القانوني لمعبد ديانا (آرتيميس) لينا تيس. وتمسك اللاسيديمونيون بأن المعبد أنشأه أجدادهم اللاسيديمونيين على أرض لاسيديمونيه، وعززوا ادعاء هم بالالتجاء إلى بينة أدبية تاريخية وشعرية، وأعلنوا أن المعبد اغتصب منهم عنوة أثناء الحرب على يد فيليب المقدر لي، و أعيد لهم بعد ذلك بفضل فتوى قانونية أصدرها جايوس قيصر ومارك أنطونيو. أما المسينيون فقد استشهدوا بتقسيم البليونيز القديم بين سلالة هرقل، وتمسكوا بأن أرض دينتليا تيس التي كان المعبد واقعا فيها كانت جزءا من النصيب المخصص لملكهم. وأعلنوا أن هناك مسجلات فعلية لهذه العملية لا تزال موجودة محفورة على حجر وعلى برونز قديم العهد، وأضافوا قائلين : إذا كان الالتجاء إلى الشواهد الأدبية مسموحا به في وسعهم أيضا أن يتغلبوا على اللاسيديمونيين في هذه الشواهد التي من هذا القبيل التي يمكنهم ذكرها من حيث قدرها ووفاؤها بالغرض. وفيما يختص بقرار الملك فيليب فقد بينوا أنه لم يكن قرارا تعسفيا، ولكنه كان قرارا مؤسسة على حقائق و ثبت بأحكام ماثلة للملك المقدوني آنتيجونوس والقائد الروماني موميوس، وبالقرار القضائي للحكومة الميليزيه، وحديثا جدا بقرار آيتديس جيمينوس حاكم مقاطعة آكايا الرومانية. وبناء على هذه البيانات صدر الحكم حالا لصالح الحكومة المسينية".

وعلى ذلك ففي القرن الأول من العصر المسيحي كان الإسبرطيون لا يزالون – وكانت هذه هي المحاولة الأخيرة التي لم يحرزوا فيها نجاحا

– يكاغون من أجل الأرض المتنازع عليها على الحدود الجبلية بين وادى اليورو تاس و مسينيا التي كان أجداده أصلا قد حاربوا من أجلها وفتحوها في القرن الثامن قبل الميلاد. إن النزاع من أجل الدينتليا تيس كان السبب الذي رواه التاريخ للحرب الإسبرطية الحسينية الأولى، والآن، وبعد مرور ثمانية قرون على الأقل، كان النزاع بين الطرفين نفسهما من أجل تنفس قطعة الأرض التي لا أهمية لها معروضا أمام المحكمة القضائية الإمبراطور الروماني تيبيريوس. ومن المؤكد أننا لا نحتاج إلى دليل آخر على أن الإسبرطيين كانوا في الحقيقة شعبيا بلا تاريخ.

الفصل الرابع

آشور

الرجل القوى المسلح

إن ضلالة المحارب موضوع مثل مشهور في العهد الجديد.

"حينما يحفظ القوى داره متسلحا تكون أمواله في أمان، ولكن متى جاء من هو أقوى منه فإنه يغلبه و ينزع سلاحه الكامل الذي اتكل عليه ويوزع غنائمه[1].

إن الشخص ذا النزعة الحربية شديد الثقة بقدرته أن يرعى شئون نفسه بذلك النظام الاجتماعي أو اللاجتماعي الذي تحل فيه جميع المنازعات عن طريق القوة الحربية، وليس عن طريق القانون أو المصالحة، لدرجة أنه يلقي بسيفه في الميزان حينما تكون نتيجة الخلاف بين نظام يتسم بالعنف ونظام يقوم على سلام منسق تتأرجح في الميزان. إن سطوة السيف تميل الميزان في الوقت المناسب في صالح استمرار قانون الغابة القديم ويتخذ الشخص ذو النزعة الحربية، الجذل لكونه قد جعل إرادته تسود مرة أخرى، هذا الانتصار الأخير دليلا نهائية على أن السيف على كل شيء قدير. ومع ذلك في الفصل التالي من القصة يبدو أنه قد فشل في جعل موقفه يستهوي أفئدة الناس ومصالحهم بالكيفية

---

(1) إنجيل لوقا إصحاح ١١ عدد ٢١، ٢٢.

الخاصة التي تلد له وحده، إذ أن النتيجة التي تتبع هذا إنما هي هزيمته من محارب أقوى منه. إن نجاحه في إطالة نظامه الحربي قد يكون من شأنه فيسب أن يؤكد له أنه سيتعلم في النهاية كيف يقضي الإنسان على نفسه بنفسه. وقد يذكرنا هـ ذا بشن الأزتيك [١] والإنكا[٢] حروبا لا شفقة ولا هوادة فيها لإخضاع جيرانهم الأقل قوة منهم في عوالمهم الخاصة التي يعيشون فيها، حتى داهمهم الغزاة الأسبان الذين انقضوا عليهم من عالم آخر وأخضعوهم بأسلحة لا قبل لأسلحتهم بها. وما ينير السبيل أمامنا بدرجة متساوية هي أعظم نفعا لنا بكثير أن نفكر في أنفسنا.

إن القضاء المحتوم الذي يصر الرجل القوى المتسلح في الأساطير الدينية الإغريقية على جليه على نفسه إصرارا لا يمكن التغلب عليه، تصوره الأسطورة التي تخبرنا كيف يعزل كرونوس [٣] والده اورانوس [٤] من سيادة الكون، و ذلك ليتجرع بدوره الكأس الذي تجرعها يورانوس على يدي ابن المغتصب نفسه زيوس [٥]. ويبدو لنا زيوس في صورة محارب أنقذ على الرغم منه، وذلك بفضل ما تحمله كائن آخر أنبل وأحكم منه أيضا من آلام. وإن خلاص بروميثيوس لزيوس إنما هو صورة إغريقية مطابقة لخلاص بطرس على يد المسيح حينما يرتكب بطرس الجريمة التي دفعته إليها

(١) اسم يطلق على مواطني المكسيك الأقوياء الذين وجدهم الأسبان فيها عنده غزوهم لها وأخضعوهم (المترجم)

(٢) لقب لحكام وأمراء بيرو القدماء (المترجم)

(٣) والد زيوس (المترجم)

(٤) إله السماء أبو الآلهة (المترجم)

(٥) زعيم آلهة الإغريق (المترجم)

النزعة الحربية في اللحظة الحرجة في بستان جثسيماني.

" وإذا واحد من الذين مع يسوع مد يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه. فقال له يسوع رد سيفك إلى مكانه. لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون[١]".

وتعطينا التوراة صورة الهزيمة التي يجلبها المحارب على نفسه في قصة بنمدد وآخاب، حينما كان ملك دمشق بندد يحاصر آخاب ملك إسرائيل في مدينته السامرة، إذ بالمعتدي يرسل رسلا إلى المدينة المحاصرة يطلب من ضحيته تسليم كل ما يملك، ويرد عليه آخاب قائلا : (حسب قولك يا سيدي الملك أنا وجميع مالي لك). ولكن بند د لا يريد أن يعدل عن إذلال عدوه الصاغر إلى حد أبعد من ذلك، ولذلك فهو يرسل إلى آخاب رسالة ثانية يخبره فيها أن عبيده سوف يحضرون حالا لتفتيش منزله وأن (كل ما هو شهي في عيني آخاب يضعونه في أيديهم ويأخذونه). عندئذ يجيب آخاب أنه لا يزال يقبل الطلب الأول ولكنه رفض الثاني. وحينما يتوعد بندد باستعمال النار والسيف يقول آخاب لحاملي هذه الرسالة الثالثة و لا يفتخرن من يشد كمن يحل». وبعد ذالك كما يريد بندد وضد رغبات آخاب يتقرر مصير النزاع بين الملكين في موقعة حامية، ويجلب المعتدى على نفسه في هذه المعركة هزيمة ساحقة. و تنتهي القصة بمنظر يثير دهشة الجميع ألا وهو خروج عبيد بن د د – من المدينة التي يصبحون فيها الآن محاضرين هم

(١) إنجيل متى الإصحاح السادس والعشرون

وسيدهم – واضعين مسوحا على أحقائهم وحيالا على رءوسهم يستدرون رحمة آخاب المنتصر. إن انعكاس الأوضاع الذي قلب بسرعة موقف كل من الملكين لا يخدع آخاب المنتصر فيجعله يرتكب الخطأ الذي وقع فيه وندد. إن آخاب يجيب على رسالة بنهدد التي يقول فيها « يقول عبدك بندد و التحى نفسي، بقوله « أهو حي بعد. هو أخي،. وحينما يمثل بندد في حضرته مكرما، بناء على تعليماته، يعقد آخاب معاهدة مع خصمه التائب – طبقا لأكثر الشروط ملاءمة التي يتقدم بها بندد بنفسه له – و بعد ذلك يطلق سراحه فورا.

ونستطيع أن نتدبر بعد هذا حالة النزعة الحربية الآشورية التي فرضت سيطرتها على العالم السورياني في عهد آخاب وبنمدد.

إن الخطب الذي منيت به القوة الحربية الأشورية ولاقت به نهايتها في ٦١٤ – ٦١٠ ق. م كان أشد فداحة بكثير حتى من تلك الخطوب التي داهمت الجيش المقدوني في عامى ١٩٧ – ١٦٨ ق.م، أو التي أصابت الجيش الروماني في سنة ٥٣ ق.م أو المماليك في مصر عام ١٥١٦–١٥١٧م وعام١٧٩٨ م. إن كارثة بيدنا اقتضت من مقدونيا استقلالها السياسي. وكان الثمن الذي دفعته الإمبراطورية الرومانية لتتغلب على كارثة أدرنة هو تسريح جنود الجيش المهزوم وتجنيد الجنود المدرعين الظافرين للحلول محله. إن تكرار فرنسا للضربة العثمانية الأولى للمماليك كان ضروريا لإزالة كابوسهم نهائيا من فوق ص دور الفلاحين المصريين الذين تمكنوا من الاحتفاظ بوجودهم تحت السيطرة الفرنسية والعثمانية وسيطرة المماليك أيضا. ومن جهة أخرى فإن الكارثة

وضعت نهاية القوة الحربية الأشورية أتمت هلاك أداة الحرب الأشورية بإبادة الدولة الأشورية واستئصال الشعب الأشورى. ففي سي٦١٤ – ٦١٠ ق.م. محي من الوجود محواً تاماً تقريباً مجتمع ظل موجوداً لأكثر من ألفي عام، وظل يلعب دوراً سيادية يتزايد باستمرار في جنوب غربي آسيا حوالي قرنين ونصف من الزمان. وصوت السوط وصوت رعشة البكر وخيل تخب و مركبات تقفز.

وفرسان تنهض ولهيب السيف وبريق الرمح وكثرة جرحى ووفرة قتلى ولا نهاية الجثث. يعثرون بجثهم.

تحت رعاتك يا ملك أشور اضطجعت عظيازك تشتت شعبك على الجبال ولا من بجمع[1].

وفي هذا المثل تحققت لعنة الضحية التي عاشت لترى سقوط ظالما في أعقاب هذا بدقة مدهشة للغاية. ففي عام ٤٠١ ق. م حينا كان جيش كورش الأصغر المكون من عشرة آلاف من الجنود الإغريق المرتزقة يتقهقر إلى أعالي نهر دجلة من ساحة معركة كيونا كسا في اتجاه ساحل البحر الأسود، مر بالتالي على مواقع مدن كالح ونينوى، والدهشة التي استحوذت على نفوسهم من ضخامة التحصينات ومدى المساحة التي شغلتها لم تبلغ في شدتها مبلغ الدهشة التي استولت عليهم من مشاهدة تلك المنشات العظيمة التي أقامتها يد الإنسان خاوية من السكان. إن سحر هذه الأطلال الخاوية، التي تقف شاهدا بتحملها

---

(1) التوراة – ناحوم، الإصحاح الثالث

الذي لا حياة فيه على حيوية حياة خلت، يوضحه لنا بأسلوبه الفني الأدنى توضيحا بينا فرد من أفراد القوة الحربية الإغريقية الذي قص علينا مشاهدته. ولكن ما لا يزال يسبب دهشة أشد للقارئ الغربي الحديث من جهة ما قصه زينوفون هو أن يجد، وذلك بفضل الأعمال العظيمة التي قام بها علماء الآثار في عالمنا العربي الحديث، إنه على الرغم من أن سر هذه المدن المهجورة أثر تأثيرا بالغة في خيال زينوفون، وأثار حب استطلاعه إثارة حادة، إلا أنه لم يستطع أن يعرف حتى أبسط الحقائق عن تاريخها الحقيقي على الرغم من إلمامه بتاريخ آشور. ومع أن حكام هذه المدن سيطروا على جميع آسيا الجنوبية الغربية من أورشليم إلى أرارات ومن عيلام إلى ليديا وبثوا الرعب فيها قبل أن يمر زينوفون بهذا الطريق بما يربو قليلا على قرنين من الزمان، فإن أحسن ما يستطيع زينوفون أن يقدمه لنا – مما قد يكون استقاه من بيانات الإدلاء المحليين للجيش الإغريق على وجه الاحتيال – يعتبر شيئا أكثر خرافة بكثير من قصة بناة الأهرام التي وجدت طريقها إلى كتاب هيرودوت بعد أن انسابت خلال ما يقل قليلا عن ألفين وخمسمائة عام في مجرى تيار ذاكرة الجماهير التي تحت منها الكثير. و تلخص قصة كالح ونينوى على حسب ما سمعها زينوفون في أنها كانت مدينتين من مدن الميديين حاصرهما الفرس عندما كان كورش يعمل على اغتصاب الإمبراطورية من استواج، حدثت معجزة بأن تدخلت العناية الإلهية وأخلتهما من السكان بعد أن وجد الفرس أنفسهم عاجزين عن اجتياحهما. وحتى في هذه الأساطير الشائعة المتصلة بهذه المواقع التي وصلت إلى أسماع الباحث

الإغريقي لم يوجد مجرد اسم آشور مقترنا بمواقع عاصمتيها الثانية والثالثة."

"أين مأوى الأسود ومرعى أشبال الأسود حيث يمشي الأسد واللبوءة وشبل الأسد وليس من خوف [1].

وفي الواقع لو حدث وسار عشرة آلاف على الضفة اليمنى لنهر دجلة متجهين شمالا، بدلا من عبوره، كما فعلوا، إلى الضفة اليسرى في سيتاس على الطريق بين بابل وسوس، لكانوا قد مروا موقع مدينة آشور العاصمة الأولى التي اشتق منها اسم آشور، ولكانوا قد وجدوا وسط الأطلال عددا قليلا بائسة من السكان لازالوا جاثمين هناك لم ينسوا حقهم التاريخي في أن يلقبوا بالأشوريين. و مع ذلك فإن قصة زينوفون الخرافية عن كالح ونينوى أقرب إلى الحقيقة الفلسفية من اكتشاف علماء الآثار التي تركها هؤلاء الجاثمون في مدينة آشور، إذ الواقع أن كارثة سنى ٦١٤ – ٦١٠ ق.م. من المؤكد أنها محت الإمبراطورية الأشورية محوا تامة من الوجود. وكان الموالى الآشوريون في الإمبراطورية الفارسية القديمة في عصر زينيفون أقل ظهوراً بدرجة لا مثيل لها من بقايا الشعوب التي تحيط بها، الذين أذلهم الغزاة الآشوريون يوما ما وسحقوهم كما يدعون سحقا تاما. وفي عصر نسى فيه نفس اسم نينوى وكالح و جنسيتهما أصبحت سوس التي كان جيش آشور بانيبال قد نهبها حوالي ٦٣٩ ق.م عاصمة إمبراطورية امتدت سيادتها الفعلية في ذلك الوقت مسافة عظيمة في جميع الجهات وراء أقصى حدود وصل إليها الغزاة

---

(1) ناحوم، الإصحاح الثاني

الآشوريون في أي وقت من الأوقات. وكانت بابل إحدى عواصم هذه الإمبراطورية الثانوية التي اجتاحها سنحاريب عام ٦٨٩ ق م. وفي ذلك الوقت أصبحت الدول الفينيقية المدينية التي كان الآشوريون بلا انقطاع يغون عليها ويستبيحون أموالها من القرن التاسع حتى القرن السابع مستقلة استقلالا ذاتيا وأعضاء بمحض اختيارها في دولة سريانية عامة. وحتى المجتمعات السريانية والحيثية في الداخل، التي طحنتها الرحى الآشورية ظاهريا وغيرت معالمها، حاولت استبقاء مظهرها السيادي السابق تحت ستار من ولايات دينية يديرها رجال الكهنوت. وقد اتضح حقا في خلال قرنين من سقوط آشور أن ما قام بين المحاربون الآشوريون إنما كان لصالح غيرهم وأكبر صالح لأولئك الذين عاملهم أوامك المحاربون بأشد ازدراء. فيسحق الأشوريون للشعوب الجبلية في جبال زاجوروس وطوروس فتحوا الطريق للأقوام الرحل من السيميريين والسيتيين لينقضوا على الأقطار البابلية والسريانية، و با بعاده للأقوام السورية المهزومة إلى الأطراف القاصية المواجهة لإمبراطوريتهم وضعوا المجتمع السرياني في موضع يكتنف المجتمع البابلي الذي كان الأشوريون أنفسهم ينتمون إليه، ويمحو في النهاية كيان هذا المجتمع البابلي في كيانه. وبفرض الوحدة السياسية على قلب آسيا الجنوبية الغربية بالقوة المتناهية مهدوا الطريق للدول التي ورثت إمبراطوريتهم – ميديا و بابل ومصر وليديا – وللإمبراطورية الفارسية القديمة الوارث العام لورثتهم. ولكن ما هو السبب في أنه في أعقاب هذا الإرهاب الأشوري الطويل الأمد أصبح الوحش، كما يبدو من هذه المقارنات والموازنات، أسوأ

بكثير جدا من ضحاياه.

إن الضحايا أنفسهم، في استرجاعهم للأحداث الماضية، استطاعوا فحسب أن يوضحوا هذا الانقلاب الهائل للأوضاع باستنزال غضب الآلهة عليهم.

" هو ذا أعلى الأرز في لبنان جميل الأغصان وأغنى الظل وقامته طويلة وكان فرعه بين الغيوم.

الأرز في جنة الله لم يفقه، السرو لم يشب أغصانه، والدلب لم يكن مثل فروعه. كل الأشجار في جنة الله لم تشبهه في حسنه.

جعلته جميلا بكثرة قضبانه حتى حسدته كل أشجار عدن التي في جنة الله.

لذلك قال السيد الرب : من أجل أنك ارتفعت قامتك، وقد جعل فرعه بين الغيوم، وارتفع قلبه بعلوه، أسلمته إلى يد قوى الأمم فيفعل به فعلا، الشره طردته.

ويستأصله الغرباء عتاة الأمم ويتركونه فتتساقط قضبانه على الجبال وفي جميع الأودية و تنكسر قضبانه عند كل أنهار الأرض و ينزل عن ظله كل شعوب الأرض ويتركونه [1]. "

وهل في استطاعتنا تفسير غضب الآلهة في هذه المناسبة بلغة تتفق وسلوك من وقع هذا المصاب عليه ؟ إن مصير آشور يبدو في الحقيقة

([1]) نبؤة حزقيال خاصة بآشور ومصيرها الإصحاح (٣١) العهد القديم.

من الصعب إدراكه لأول وهلة، إذ لا يمكننا أن ندين محاربيها بالانحراف السلبي الذي نستطيع أن ننسب إليه هلاك المقدونيين والرومان والمماليك الذين استناموا لمصيرهم. وفي الوقت الذي حلت فيه النكبة المميتة بكل من الأداة الحربية للمماليك والرومان و مقدونيا كانت تلك الأداة قد أصبحت منذ زمن طويل جامدة لا حراك بها، عتيقة بدرجة موئسة، استعصت على الإصلاح بشكل مريع. ومن جهة أخرى فإن الجهاز الحربي الأشورى. الذي انفرد بالفداحة التامة لنكبته النهائية يتميز كذلك عن هذه الأجهزة الحربية الأخرى – بأمر قد يبدو أن له مفهوما مناقضا – ألا وهو الكفاءة التامة التي كان على الدوام يفحص بها بغية إصلاحه و تجديده و تقويته، وظل الأمر على ذلك حتى وقت القضاء عليه. إن الذخيرة الوافرة من العبقرية الحربية التي كانت السبب في نشأة جندي المشاة المدرع في القرن الرابع عشر ق.م قبل المحاولة الأشورية الأولى للسيطرة على الجنوب الغربي لآسيا، ونشأة الفرسان المدرعين رماة السهام في القرن السابع ق. م قبيل إبادة آشور، آتت ثمارها أيضا طيلة سبعة القرون التي تخللت ذلك، ولم تؤت ثمارها أكثر مما بلغته في النوبة الأخيرة من الدورات التاريخية الأربعة التي انطلق فيها عنان النزعة الحربية الأشورية على العالم. إن القدرة الابتكارية التي تميزت بالنشاط والحماسة المتأججة لإدخال التحسينات، ذلك النشاط و تلاك الحماسة اللذان تميز بهما الخلق الأشوري في عصره الثاني فيما يتعلق بالفن الحربي، نجدهما ثابتين ثباتا لا يتطرق الشك إلى صحته في سلسلة من النقوش البارزة التي ما زالت بحالتها الطبيعية في القصور الملكية، تلك

النقوش التي سجلت فيها بالصور المراحل المتتابعة للعتاد والأساليب الحربية الأشورية خلال القرون الثلاثة للتاريخ الأشوري.

ومن هذا الدليل يمكننا أن نتبين التحسينات التالية بين نهاية الدورة الثالثة حوالي ٨٢٥ ق.م. ونهاية الدورة الرابعة بعد ذلك بأكثر من مائتي عام بقليل. إن جندي المشاة الراكب في عهد أشور نارزيبال الذي أعطي جواداً ليمتطيه – تقليداً لا شك فيه للرعاة – ذلك دون أن يخفف عنه عبء درع جندي المشاة الذي يرتديه، تحول الآن إلى فارس مدرع ينقصه النضوج ألقي بدرعه جانبا مستبد به زردية مرنة. إن تسليح جنود قوة الفرسان بلُمة فوق جسدهم قد أمكن إجراؤه بإدخال تحسين على شكل الزردية [1] نفسها وعلى المادة التي صنعت منها، إذ أصبحت الآن تصنع من خراشف معدنية وتنتهي عند الوسط، وذلك بدلا من القفطان الجلدي المحشو ذي المنظر الملبد الذي كان يغطي الجسم من الرقية إلى الركبة والذي كان يقوم بعمل الزردية في العصر السالف. أما أرجل الفارس التي تصبح بذلك مكشوفة، فقد استعيض عن ذلك بوقايتها بجوارب طويلة تصل إلى الأفخاذ و أحذية تصل إلى عضلة الساق، ومكن هذا الحذاء نفسه رجال المشاة من القيام بعملياتهم في المسالك الوعرة بسهولة أكثر مما كان في العصر الذي كانت فيه الصنادل هي الأحذية الوحيدة ولا أحذية غيرها. وخلال هذه الفترة نفسها من الزمن أدخلت تحسينات عديدة على المركبات الحربية – ومن أمثلة هذه ازدياد في قطر العجلات، وازدياد في على جوانب جسم المركبة، وفي عدد

(1) نوع من أنواع الدروع (المترجم)

جنودها – كما أن السائق ورامى السهام دعما باثنين من حملة الدروع. وأدخل تحسين أيضا على شكل الأسترة المضفورة التي كان يقذف من خلفها القواسون المشاة بأقواسم وسهامهم. ومع ذلك فربما كان أعظم تحسين أدخل هو تحسين لم نستق أخباره ما قدمته النقوش البارزة لنا من بيانات ولكن تبيناه عن طريق ما هو مدون في المخطوطات، وهو إنشاء جيش ملكى قائم، ومن المحتمل أن هذا كان من عمل إما تيغلا تبلاصر الثالث الذي تولى من ٧٤٧ ق.م إلى ٧٢٧ ق.م أو سرجون الذي تولى من ٧٢٢ ق.م إلى ٧٠٥ ق.م. إن الجيش القائم استخدم كنواة وليس كبديل للميليشيا الوطنية التي كان التاج يعتمد عليها في تجنيد الجيوش لمعاركه الحربية. وعلى الرغم من ذلك فإن إنشاء جيش قائم لا بد أنه رفع مستوى الكفاءة الحربية الأشورية و جعل من المضمون أن تحدث التحسينات الفنية التي ذكرت آنفا أكبر الأثر.

وقبل عهد أشور بانيبال الذي تولى من ٩٦٩ ق.م إلى ٦٢٦ ق.م

قبيل وقوع الكارثة الكبرى، كان التقدم المطرد في الفنون الحربية، الذي استمر قرنين من الزمان، قد أوجد جيشا أشوريا مستعدة تماما لأي عمل يكلف به، كما كان مقسما تقسما على أساس علمي إلى عدد من الأسلحة المتخصصة في فنون الحرب المتباينة. كان هناك جنود المركبات الحربية والفرسان الرامون بالأقواس والسهام نصف المدرعين، ورماة الأقواس والسهام البيادة ذوو العتاد الثقيل المدرعون من خوذاتهم لأحذيتهم، والقواسون المشاة الخفاف الذين كانوا يخاطرون بحياتهم مرتدين عصابة للرأس ومزرة وصندلا، والمشاة المدرعون المسلحون

كقواسي المشاة الثقال إلا أنهم كانوا يتقلدون درعا وريحة بدلا من القوس والكنانة [1]، والمدرعون بدروع مكسوة بالجلد، يحملون الرماح والدروع كذلك، ولكنهم يرتدون بدلا من الزردية زنارا صدرية يربط بحالات جلدية متقاطعة، وعلى وجه الاحتمال كانت هناك أيضا كتيبة من المهندسين، إذ كانت هناك بالتأكيد بمجموعة من معدات الحصار – لم تكن فعلا من قاذفات الأحجار والسهام، بل من مناجيق وأبراج متحركة – وحينها كانت تنتهي هذه الآلات من عملها، وتكون أسوار حصون العدو قد دكت، كان قواد العمليات الحربية الأشورية يعرفون كيف يغطون زحف الفرق المهاجمة بوابل من السهام من بطاريات القواسين المتجمعة. وعلى هذا فإن الجيش الآشورى المجهز تجهيزا تاما كان مستعد كذلك العمليات الحصار الحربية، وللحروب الجبلية، وللمعارك المنظمة فوق السهول. وكان نشاطه في ميدان الخطط الفنية لا يضارعه إلا نشاطه في التنظيم الحربي والإستراتيجية الحربية. وكان الأشوريون يؤمنون إيمانا راسخة بالفاعلية الكبرى للهجوم.

"ليس فيهم رازح ولا عاثر ولا ينسون ولا ينامون ولا تنحل حزم أحقابهم ولا تنقطع سيور أحذيتهم. الذين سهامهم مسنونة وجميع قسم ممدودة. حوافر خيلهم تحسب الصوان وبكراتهم كالزوبعة. هم زمجرة كاللبوءة ويزمجرون الشبل و يمرون ويمسكون الفريسة ويستخلصونها ولا منقذ [2]"

كانت هذه هي الروح السائدة في الجيش الأشوري حتى النهاية كما

---

(1) جعبة السهام

(2) أشعياء، الإصحاح الخامس – التوراه

تبين ذلك من الحساب الذي قدمه عن نفسه في غزوة حاران عام ٦١٠ ق. م.، حينما كان يحارب من أجل قضية خاسرة، وعاصمة ملكه قد اجتيحت بالفعل ومحيت. وإنه من الواضح أن الجيش الأشورى قبيل إبادته لم تكن تسوده قط الحالة التي سادت الجيوش المقدونية و الرومانية وجيش المماليك في أعوام ١٦٨ ق. م، ٣٧٨ م، ١٧٨٩ م. إذا فلماذا نكب بكارثة أشد هولا من كوارثهم ؟ والإجابة على ذلك هي أن سياسة النشاط نفسها التي تميزت بها الروح الحربية الأشورية هي التي زادت من فداحة الكارثة التي قضت على أشور حينما أطبقت عليها.

فأولا أدت سياسة الهجوم الذي لا ينقطع وامتلاك أداة حربية قوية التنفيذ هذه السياسة بالسادة الحر بين الأشوريين في الدور الرابع والأخير من سياستهم الحربية إلى التوسع في مشروعاتهم و تعهداتهم فيما وراء الحدود التي التزمها أسلافهم بكثير جدا. إن آشور كانت باستمرار معرضة لداع مقدم على ما سواه ملقى على عاتق مواردها الحربية ألا وهو القيام بواجبها كوصية على حدود العالم البابلي ضد هجمات رجال المرتفعات الأفظاظ في جبال زاجورس وطوروس من جهة وضد رواد المدنية السريانية الأرامنيين من الجهة الأخرى. وفي الأدوار الثلاثة الأولى لسياسة آشوار الحربية كانت قانعة في هاتين الجهتين بالانتقال من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم، دون الإفراط في هذا الهجوم ودون تشتيت قواتها في جهات أخرى. ومع ذلك فإن المرحلة الثالثة، التي استغرقت الربدين الأوسطين القرن التاسع قبل الميلاد، أحدثت في سوريا التآلف المؤقت للولايات السورية الذي أوقف التقدم

الأشوري في قرقر عام ٨٥٣ ق.م، وقوبل في أرمينيا بطعنة أشد هولا بتأسيس مملكة أرارطو وهي دولة حربية كانت همجية فيما سبق ثم استعارت آلات الثقافة الأشورية لتسليح نفسها لتقاوم الاعتداء وهي على قدم المساواة مع عدوها. وعلى الرغم من هذه النذر الجديدة، فإن تيغلا تبلاصر الثالث الذي تولى من ٧٤٦– ٧٢٧ ق. م حينما شرع في أعظم الهجمات الأشورية وآخرها، كان يسكن في نفسه أطباعا سياسية ويهدف إلى أغراض. حربية كان من ش أنها أن أدت إلى تصادم آشور مع ثلاثة من الأعداء جدد – بابل و عيلام و مصر – كانت كل منها من حيث القوة دولة حربية عظيمة كأشور نفسها.

إن تيغلا تبلاصر استودع خلفاءه نزاعا مع مصر حينما شرع في إتمام إخضاع دويلات سوريا؛ إذ أن مصر لم يكن في استطاعتها أن تظل غير مبالية بامتداد الإمبراطورية الأشورية حتى حدود إمبراطوريتها الأسيوية وكانت في مركز يمكنها أن تحطم أو تقوض ما يقوم به بناة الإمبراطورية الأشورية حتى وإذا لم يعقدوا العزم على إكمال المجازفة بالقيام بالمخاطرة الأشد رهبة وهي إخضاع مصر نفسها. إن احتلال تيغلات الجريء الفلسطين سنة ٧٣٤ ق. م قد يكون ضربة رائعة كان من نتائجها الاستسلام الوقت للسامرة عام ٧٣٣ و سقوط دمشق عام ٧٣٢. ولكنه أدى إلى الاحتكاك الحربي العاجل مع المصريين عام ٧٢٠ ومع سنحاريب عام ٧٠٠ على الحدود المصرية السورية، وهذه المعارك غير الفاصلة أدت بدورها إلى غزوا سر حدون لمصر واحتلاله الدلتا والصعيد بما في ذلك إقليم طيبة في حروب أعوام ٦٧٥، ٦٧٤، ٦٧١ ق. م.

ونتيجة لذلك أصبح من الواضح أنه على الرغم من أن الأشوريين كانوا من القوة بدرجة تكفي لاستئصال الجيوش المصرية واحتلال الأراضي المصرية، وتكرار هذا العمل الخطير، إلا أنهم لم يبلغوا من القوة درجة تكفي للاحتفاظ بمصر تحت سيطرتهم. إن أسرحدون نفسه كان في طريقه مرة أخرى لغزو مصر حينما داهمه الموت عام ٦٦٩، وعلى الرغم من أن الثورة المصرية التي نشبت أخمدها أشور بانيبال بنجاح عام ٦٦٧، إلا أنه كان عليه أن يغزوها مرة أخرى سنة ٦٦٣. ويظهر آن الحكومة الأشورية نفسها أدركت قبل هذا التاريخ أنها وقعت مع مصر في غرام عنيف لا طائل تحته، وحينما طرد بسماتيك الحاميات الأشورية دون استعمال القوة في الفترة ما بين ٦٥٨، ٦٥١ تغاضى آشور بانيبال عما حدث. وكان ملك أشور حكما بلا شك لإنقاصه لخسائره في مصر بهذه الطريقة، ولكن حكمته بعد هذا الحادث كانت اعترافا منه بأن المجهودات التي بذلت في خمس غزوات مصرية ضاعت هباء منثورا، ولم يعد انسحاب آشور بانيبال الحالة إلى ما كانت عليه من قبل ٦٧٥ ق.م، إذ أن فقدان مصر في العقد الخامس من القرن السابع كان مقدمة لفقد سوريا في الجيل التالي.

وكانت العواقب النهائية لتدخل تيغلا تبلاصر في المملكة البابلية أشد خطورة بكثير من سياسته الجريئة في سوريا، حيث أدت عن طريق تسلسل مباشر الأسباب والنتائج إلى كارثة ٩١٤ – ٦١٠ ق.م.

لقد كان من الصعوبة التوفيق بين الاعتداء الأشوري في هذه المنطقة عام ٧٤٥ ق.م وبين المعاهدة التي حددت بمقتضاها التخوم الفاصلة

بين أشور و بابل عن طريق الاتفاق الودي في العقد الأول من القرن الثامن قبل الميلاد – وكانت هذه الحدود تتبع خطا كان قطعا مناسبا لأشور. ومن المحتمل أن تيغلا تبلاصر برر عمله هذا بحجة أن الفوضى التي وقعت علكة بابل فريسة لها أنتشرت إلى الجانب الأشوري عبر الحدود الفاصلة، ويظهر أنه بعد زحفه إلى داخل با بل حصل على نوع من الانتداب من أهل بابل الذين رأوا في ملاك دولة مجاورة مستقرة ذات حضارة قريبة لحضارتهم حاميا محتملا لحياتهم الحضرية في الدولة البابلية ضد التيار الجارف المتزايد البداوة الآراميين والكلديين الضيقة الحدود. وقد يكون صحيحة أيضا أن كلا من تيغلا تبلاصر وخلفاءه كانوا يتوقون حقيقة إلى تقليل تعهداتهم تجاه بابل إلى الحد الأدنى وإلى تجنب ضمها. إن تيغلا تبلاصر نفسه ترك بنو بلاصر الملك الحاكم ليا بل وقتئذ على عرشه. ولم يأخذ تيغلا تبلاصر السلطة في يده عام ٧٢٩ إلا بعد ذلك بأحد عشر عاما فقط، بعد موت بنو بلاصر في أعقاب إخماد ثورة قبليه كلديه تلت ذلك ضد الحماية الأشورية. واحتذى شلمنصر الخامس هذه السابقة، ولكن لم يحتذها خلفه سرجون حتى أجبر ته ثورة كلديه ثانية أشد خطورة بكثير أن يستحوذ على السلطة في يده عام ٧١٠، وحتى في ذلك الوقت سعى المنتصر الأشوري إلى تفاهم مع زعيم الثائرين مرود خبلدان.

وبعد ذلك حينما خلف سنحاريب والده رجون عام ٧٠٥ امتنع عيدا عن ارتداء التاج البابلى، وحتى حينا تطلبت ثورة كلدية جديدة تدخله في شون بابل عام ٧٠٣، أضفي التاج البابلى أولا على أمير بابلى

متجنس بالجنسية الأشورية، وبعد ذلك منحه لأمير أشوري لم يكن وريثة للعرش الأشورى. ولم يضع سنحاريب رسمية نهايته لاستقلال بابل إلا بعد الثورة الكبرى التي نشبت بين ٦٩٤ و ٦٨٩ وذلك بإقامة ابنه وخليفته المختار أسرحدون حاكما عاما أشورية عليها.

من المؤكد أن هذه الحقائق تبدو شاهدة على سياسة آشورية معتدلة تجاه بابل، ولكنها مع ذلك تقدم لنا دليلا أكثر جزماً على فشل سياستهم. وكانت الثورات الكلدية التي تكاثرت واشتد مراسها، على الرغم من أناة أشورية طويلة المدى، سببا في إحكام قبضة الحكومة الأشورية المرة تلو المرة. وعلى الرغم من أنه من المؤكد أن التدخل الأشوري قام بمعجزة وإقراره النظام وسط الفوضى البابلية، فإن هذا النظام الذي كان استتبا به مستعصياً كل الاستعصاء في عهد حماية أشورية كان نتيجة لحركة معادية للأشوريين اتسع مداها باستمرار وكانت تزيدها الهزيمة قوة.

وكانت المرحلة الأولى في عملية استمرت قرنا و بلغت ذروتها في تحالف ميدى بابل كبير في الاتحاد السياسي لكل قبائل بابل الكلدية بين سنة ٧٣١ و سنة ٧٢١ ق.م بزعامة بيت يا كن مرود خبلدان. وكانت المرحلة التالية تحالف بين الكلديين ومملكة عيلام الذي أفزع حكومتها تدخل تيغلا تبلاصر في شئون بابل فزعة خطيرة كالفرع الذي سببه للمصريين انقضاضه على فلسطين. وبفضل هذا التحالف العيلامى استطاع مرود خبلدان أن يدخل مدينة بابل عام ٧٢١ ويحكم هناك ملكا على الدولة البابلية ما يقرب من اثني عشر عاما، على الرغم من الحقيقة

التي تتلخص في أنه في هذه المرحلة كان سكان العاصمة لا يزالون يحسون أن الحكم المحلى لهذا البدوي كان أكثر إرهاقا من حكم دولة أجنبية مستقرة. ولم ينته كفاح مرود خيلدان في الحياة حينما طردته جيوش سرجون عام ٧١٠ من بابل، إذ بعد موت قاهره الأشوري في سنة ٧٠٥ تجد أن هذا الكلدي الذي لا يمل ينشئ علاقات مع عرب الشام والحماد ويرسل بعثة سياسية عبر جبالهم إلى زميل له في عداوة آشور بعيد عنه كملاك يهوذا حزقيال. وبعد ذلك سنة ٧٠٣ نجح مرود خبلدان في إعادة احتلال بابل بمساعدة حلفائه العيلاميين، وعلى الرغم من أنه قبل نهاية العام طردته الجيوش الأشورية، ومات بعد ذلك بأعوام قليلة كلاجىء في عيلام، فإن التخلص من الزعم الكلدي لم يقرب الحكومة الأشورية قيد أنملة من حل للمسألة الكندية، لأن رجال القبائل الكندية الذين كانت عيلام لا تزال تساندهم تحدوا بنجاح مجهودات سنحاريب لإخراجهم من الميدان. وحينما احتل الزعيم الحربي الأشورى أراضيهم القبلية في بابل ذاتها ودمرها، التجئوا إلى المستنقعات والضفاف الموحلة عند رأس الخليج الفارسي. وفي سنة ٦٩٤ حينها بني أسطولا في نهر دجلة يديره ملاحون فينيقيون ووضع على ظهره الجيش الأشورى لكي يقضي على الكلديين في حصونهم المائية بعمليات حربية برمائية، إنما أعطى بذلك فقط الفرصة للعيلاميين لينقضوا على خط مواصلاته، ويدخلوا بابل، ويحملوا معهم ملكه الصوري على الدولة البابلية أسيرا. كما لم يجد سنحاريب نفعا أن أخذ بثأره في السنة التالية بهزيمته العيلاميين في الميدان الحربي و أسره بدوره الملك الألعوبة الذي كانوا

قد نصبوه على عرش بابل في المكان الذي كان يشغله ألعوبته، وذلك أفشله في احتلال بابل، وقد اعتلى العرش الخالي رجل ذو شخصية هو موشر يبمر ودخ الذي نجح في جعل سكان العاصمة يقلعون عن ميلهم للسياسة المناصرة لأشور.

إن انفصال مدينة بابل عام ٦٩٣ عن المعسكر الأشورى وانضمامها إلى المعسكر العيلامي الكلدي ربما كان الحادث الحاسم في العملية الطويلة التكوين جبهة معادية لأشور وذلك لأنه على الرغم من أن الأشوريين كانوا كالمعتاد منتصرين على القوات العيلامية والكلدية مجتمعة، واستطاعوا في النهاية تلقين بابل درسا باجتياحها سنة ٦٨٩، فإن الدرس الذي تعلمته كان درسا مناقضا لما كان معلموها يرمون إليه. إذ بهذا الانتهاك الشنيع لحرمة هذه المدينة التي كانت العاصمة الثقافية العالم، حقق الأشوريون في الدولة البابلية عملا فريدا من أعمال التحول السياسي السحري لم يكن أبدا في استطاعة البابليين أن يحققوه بأنفسهم. ففي نيران هذه البغضاء المشتركة الوهاجة المتأججة التي أشعلها الرعب الأشوري الآن بين السكان الحضريين القدماء، وكذلك بين البدو والدخلاء، نسى سكان المدن ورجال القبائل الكراهية المتبادلة التي كانت تفرقهم حتى ذلك الوقت وانصهروا سويا في بوتقة واحدة حولتهم إلى أمة بابلية جديدة لا يمحى من ذاكرتها أبدا ما كانت تعانيه على يد الأشوريين ولا تغتفره، أمة لا يهدأ لها بال حتى تخسف بظالمها الأرض.

في هذه المرحلة التي تسبق المرحلة الختامية للعملية المفجعة

الطويلة المدى التي أدار مجلتها تيغلاتبلاصر الثالث بغير قصد عام ٧٤٥ ق.م بلغ الشعور المعادي لأشور درجة من القوة سيطرت على نفس أمير من الدم الآشورى وضع على العرش البابلي بالقوة القاهرة وجعلته ينحني لمشيئته. وكان هذا الأمير أخا للملك الحاكم في أشور ذاتها. وحوالي سنة ٦٥٤ ق.م وجد أشور بانيبال وجود الإمبراطورية الأشورية مهددا بالتحالف المعادى المكون من التاج البابلي، والقبائل الكلدية والأرامية في المملكة البابلية، وملكة عيلام، وعرب الشمال، وعدد من الولايات السورية الجنوبية، والدولة المنشأة حديثا التي خلفت السيادة الأشوريه البائدة على مصر. إن هذا التجمع للقوى المعادية لأشور، الذي كان أوسع من أي تجمع حدث في أي وقت على يد مرودخبلدان أو على يد موشزيبمرودخ. تزعمه أخو أشور بانيبال نفسه شمشوموكين وإن عمله هذا ليبدو أكثر غرابة حينها ندخل في اعتبارنا أنه اعتلى العرش البابلي قبل هذا التاريخ دون ما التجاء إلى القوة برضى من آشور بانيبال مدة تقرب من خمسة عشر عاما، تنفيذا للوصية السياسية لوالدهم اسحردون. وفوق ذلك فإن عيلام الحليف الرئيسي الزعيم الثوار دهمتها قبل ذلك – وربما كان ذلك في نفس السنة السابقة للسنة التي جازف فيها شمشوموكين بمصيره ليساعدها – أشنع هزيمة حلت بساحتها حتى ذلك الوقت من الجيوش الأشورية، هزيمة قتل فيها الملك الحاكم وولي عهده الشرعي واستولت فيها الجيوش الأشورية على كلتا المدينتين المالكيتين. إن هذه الحقائق ترينا مقدار قوة الحركة القومية البابلية التي زلزلت الأرض من تحت أقدام شمشوموكين.

وخرج الجيش الأشوري من هذا الأزمة منتصرا مرة ثانية. وهرب الخائن شمشوموكين من مصير أشد سوء احرق نفسه حيا في قصره حينما اضطرت بابل إلى الاستسلام، بعد أن حوصرت حتى هلكت جوعا في سنة ٦٤٨، وحوالي ٦٣٩ كالت الجيوش الأشورية لعيلام ضربة مبيدة حتى أن أراضيها الخاوية انتقلت إلى سيطرة سكان المرتفعات الفارسية في تخومها الشرقية، وصارت قاعدة عدوان وثب منها ملوك الفرس القدماء حينما سيطروا على جميع أنحاء آسيا الجنوبية الغربية بعد ذلك بمائة عام. إن الخسارة التي منيت بها الأداة الحربية لكل من القوميين البابليين، والأشوريين، والعيلاميين، في الحرب التي استمرت من ٦٥٤ – ٦٣٩ ق.م، لم تمنع مع ذلك الحركة القومية البابلية نفسها من تحقيق هدفها، وذلك لأنه إذا كان ملوك الفرس القدماء قد وجدوا سرج الجواد خاليا في القرن السادس، فذلك كان لأن الفارس الأشوري كان قد ألقي في النهاية من فوق ظهره قبل انقضاء القرن السابع. وفي عام ٦٢٦ مجرد موت آشور بانيبال ثارت بابل مرة ثانية بقيادة زعم وطني جديد، وهذا الزعيم المدعو بنو بلاصر أتم العمل الذي كان مرودخبلدان قد بدأه. ووجد في مملكة ميديا الجديدة حليفا أكثر قوة ملأ مكان ملكة عيلام البائدة. ومحيت آشور التي لم تفق من حرب ٦٥٤ – ٦٣٩ من الوجود في الحرب التي استمرت من ٦١٤ إلى٦١٠ ق.م. وحتى في ذلك الوقت والجيش الأشوري على حافة الموت استطاع على الرغم من ذلك أن يحرز انتصارات في ساحة القتال. إذا أنه بمساعدة موالى أشور السابقين وأنصارهم الحاليين السيتيين، رد البابليين على أعقابهم حتى

حاران في سنة ٦١٠ في تلك المرحلة من حرب الإبادة هذه التي كانت فيها حاران نفسها وكذلك نينوى وأشور قد اجتيحت بالفعل ودمرت، و حينما كان الجيش يحارب وظهره إلى نهر الفرات في الركن الأخير، الذي لم يغلب على أمره، من الوطن الأشورى ؛ ولكن هذا النصر الأخير لابد أنه كان سكرة الموت التي كان يعالجها الجيش الأشورى، إذ هو آخر حادث سجل في التاريخ الحربي الأشورى.

وحينما نلقي نظرة فاحصة على الحرب التي اشتد وطيسها باستمرار خلال قرن ونصف من الزمان والتي بدأت باعتلاء تيغلاتبلاصر الثالث لعرش

أشور في سنة ٧٤٥ ق.م وانتهت بانتصار بختنصر البابلى على نخاو المصري في قرقميش عام ٦٠٥، فإن أعظم الحوادث التاريخية التي تبرز أمامنا من أول نظرة هي الضربات القاصمة المتتابعة التي أباد بها الأشوريون بمجتمعات كاملة مسويين مدنا بالأرض وحاملين معهم شعوبا بأكملها أسرى لديهم. إن تفكيرنا يتجه إلى اجتياح دمشق عام ٧٣٢، واجتياح السامرة عام ٧٢٢، واجتياح موزاير عام ٧١٤، واجتياح بابل عام ٦٨٩، واجتياح صيدا عام ٦٧٧، واجتياح منف عام ٦٧١، واجتياح طيبة عام ٦٦٣، واجتياح سوسا حوالي عام ٦٣٩ ومن بين جميع عواصم الدول التي كانت في متناول النفوذ الأشورى ظلت صور و أورشليم هما المدينتان الوحيدتان اللتان لم تنتهك حرمتها قبيل اجتياح نينوى عام ٦١٢. إن الخسارة والتعاسة اللتين نكبت بهما آشور جيرانها تجلان عن الحصر، ومع ذلك فإن الملاحظة التي رددتها لنا الأساطير

للمعلم المنافق الذي أبداها للتلميذ الذي يسيطه – (إن السوط يؤذيك أقل مما يؤذيني) – قد تكون نقدا لأوجه نشاط الأشوريين الحربي أكثر ملائمة من القصص الفظة، بدرجة مخجلة، المفعمة بالإعجاب النفسي بدرجة ساذجة التي كان يقدم بها سادة الحرب الأشوريون قصص أعمالهم ليتعلمها ذراريهم.

ومما له مغزى أن سجل انتصارات أشور في الخارج ذلك السجل الضخم المملوء زهوا وافتخارا قد ألحقت به ملاحظات أندرو أوجز عن اضطرابات داخلية تنطوي على دلالة خفية تعطينا بعض الفكرة عن الثمن الذي اشتريت به تلك الانتصارات ؛ وحينما نفحص هذا السجل التاريخي الداخلي لأشور وهي في أوج قوتها الحربية، فليس من الغرابة أن نجد بعد ذلك أن انتصارها إنما كان موتا لها في نهاية الأمر.

إن الإفراط المتزايد في الإجهاد الحربي قد انتقم لنفسه بالكثرة المتزايدة من الثورات ضد القصر و من ثورات الفلاحين. وفي تاريخ يوافق ختام دورة الاعتداء الثانية في القرن التاسع قبل الميلاد نجد شلمنصر الثالث يموت

عام ٨٢٧ و ابنه في طريقه ليحاربه، والثورة مندلعة في نينوى وأشور وأربلا. واندلعت الثورة في أشور ثانية عام ٧٦٣ – ٧٦٢، و ثارت أرباح عام ٧٦١ – ٧٦٠، وكوزان في ٧٥٩. وفي سنة ٧٤٦ تلا ثورة كالح العاصمة الأشورية في ذلك الوقت استئصال الأسرة الحاكمة. إن تبغلا تبلاصر الثالث الذي تولى ٧٤٥ إلى ٧٢٧ كان عصامية لم يستطع

إخفاء نسبه تحت اسم تاريخي ؛ وإذا كان يدعى بماريوس الأشوري فإن هذا القياس التشبيهى الروماني يوحى إلينا بأن إنشاء جيش قائم محترف يمكن اعتباره اعرضا المرحلة متقدمة من مراحل الانحلال الاجتماعي.

وإننا لنعلم أنه في إيطاليا في أيام ماريوس كان إنشاء ذلك الجيش سبباً في القضاء على طبقة المزارعين اللائقين للخدمة العسكرية الذين اقتلعوا من أراضيهم باستدعائهم استدعاء مستمرا إلى الخدمة العسكرية في غزوات بعيدة كانت تزداد باستمرار، تلك الغزوات التي جعلت وجود جيش قائم ممكنة وضرورية – ممكنة لأنه كان هناك مخزون ضخم من القوة البشرية العاطلة يمكن السحب منه، وضرورية لأن هؤلاء الرجال الذين فقدوا وسائل معيشتهم من الأرض يجب أن تمده الدولة بعمل بديل، إذا كانت تريد أن تمنع شعورهم بالبؤس والضجر من أن يجد متنفس عن طريق الثورة. ونستطيع أن نتبين في إنشاء جيش قائم محاولة مماثلة لإيجاد حل حربي لنفس المشكلة الاجتماعية. إن هذا الحل الحربي لم يكن أكثر نجاحا في تخفيف حدة القلاقل الداخلية لأشور على عهد تيغلا تبلاصر منه في تخفيف حدة المتاعب الداخلية في إيطاليا على عهد ماريوس. إن خليفة تيغلا تبلاصر شلمنصر الخامس الذي تولى من ٧٢٧ إلى ٧٢٢ ق.م يظهر أنه اصطدم بمدينة آشور مثل أسلاف تيغلا تبلاصر. وقتل سنحاريب عام ٦٨١ على يد أحد أولاده، الذي كان من الواضح أنه على اتفاق مع القوميين البابليين. وقد رأينا من قبل كيف أن عرش آشور بانيبال وإمبراطوريته هددهما عمل أخيه شمشوموكين ملك بابل عام ٦٥٤، حينما تزعم هذا الأمير الأشوري

الخائن حلفا ضد أشور. وبذلك فإن تياري الشلل الذي أصاب الحياة الداخلية والحروب الخارجية يندمجان في تيار واحد وتزايد شدة بعد موت آشور بانيبال ويتحول إلى نهر عظيم تحمل تياراته الجارفة أشور إلى مصيرها المحتوم الذي يصبح الآن لا مفر منه. وفي خلال السنين الأخيرة للتاريخ الأشوري نجد من الصعوبة أن نميز بين مظاهر الانحلال الداخلية والخارجية.

إن النهاية الدانية خيمت بظلالها فوق نفس أشور بانيبال نفسه في سني خاتمة حياته.

"إنني قد أعدت العمل بالقوانين التي تقضي بتقديم الذبائح الموتى والقرابين الأرواح أجدادي الملوك والتي لم يكن معمولا بها. لقد عملت صالحا تجاه الإله والبشر والموت والأحياء. لماذا إذن داهمني المرض والسقم والشقاء والكوارث ؟ إنه ليس في استطاعتي أن أحتمل عبء الكفاح في مملكتي والفتن في أسرتي. إن الافتراءات المزعجة تقلق بالى على الدوام. إن شقائى نفسية وجسدية يحنى ظهري، وأختم أيامي بصيحات الحسرة المريرة. وفي عيد إله المدينة في يوم المهرجان، أراني بائسة. إن الموت يقبض على أنفاسي وأنوء تحت كلكله. إني أندب ليل نهار بنحيب ورثاء، إني أثن : « يا إلهي أنعم حتى على من ليس بتقي حتى يرى نورك.. إلى متى يا إلهي ستعاملني هكذا ؟ إني معتبر حتى كمن لم يخش إلها أو إلاهة ".

إن هذا الاعتراف مدهش في عدم تكلفه ومثير في إخلاصه و باعث

للشجون في حير ته ولكنه فوق كل هذا منير في ظلمته. ألم يجد آخر سادة الأشوريين المحاربين نفسه قط عندما استحوذت عليه هذه الحالة العقلية يتلو في دخيلته القائمة المرعبة للمدن التي استباحتها الجيوش الأشورية، والأقوام التي تحتها من الوجود – قائمة ختمها باستباحته لسوسا وإبادته لعيلام ؟

أو هل كان عبء هذه الذكرى لا يحتمل بدرجة أن المحارب المعذب دفعها عن نفسه بأسا وقنوطة، حينما كانت تتوعد أن تغشاه ؟ إن خلفه صين شار أشكون لا بد أنه كان قد عاش خلال لحظة من اللحظات حين كانت هذه الذكريات التي كانت تطارده قد أطبقت عليه من كل جانب وأصبح أمرها غير منكور، كما أقلق بال الأثيينيين أشباح سيئاتهم حينما وصلتهم أخبار موقعة إيجو سبو تامى.

" وذاع خبر الكارثة في أثينا بوصول البارالوس [1] وانتشرنواح وعويل من بيريه [2] مخترقاً الأسوار الطويلة إلى المدينة حيث انتشر الخبر من فم إلى في تلك الليلة لم ينمها أحد. وفوق حزنهم على موتاهم حزنوا حزنا أشد مرارة بكثير من أجل أنفسهم، إذ توقعوا أن يكابدوا الدمار الذي أو قعوه بالميليين (الذين كان يستعمرهم الإسبرطيون) حينما حاصروا مدينتهم واستولوا عليها، وعلى الهيستيانيين والسيونيين والتورو نيين والإيجيين وشعوب إغريقية أخرى عديدة. وفي الصباح التالي عقدوا اجتماعاً قرروا فيه إيصاد الموانى كلها إيصاداً تاماً عداً واحداً، وإخلاء

---

(1) بطل أثينى – رسم بروتوجينس صورته

(2) ميناء أثينا – (المترجم)

التحصينات لإعدادها للعمل وتزويدها بالجنود، ولجعل المدينة في حالة دفاع كاملة احتمالا الحدوث حصار لها".

وكما أحس الشعب الأثيني و تصرف في هذه اللحظة المريعة عام ٤٠٥ق.م، لابد أن آخر ملوك أشور أحس بنفس الشعور و تصرف نفس التصرف عام ٦١٢ ق. م حينما نما إلى علمه أن حلفاءه السيثيين الذين كانوا أمل خلاصه الدنيوي الأخير قد انضموا للعدو وأن قوات الحلف المعادي المتحدة كانت تطبق على نينوى إطباق لا يقاوم. أما بقية القصة فليست متشابهة في الحالتين، و ذلك لأن الشعب الأثيني استسلم وأبقت عليه مروءة المنتصرين، بينما قاوم الملك صين شار إشكون حصار نينوى، وحمد حتى النهاية المريرة، وهلك مع شعبه حينها اجتيحت المدينة، في الهجوم الثالث. وعلى هذا فإن المصير المحتوم الذي استعاذ منه آشور بانيبال غشي خلفه ولم تجد في تجنيه توبة آشور بانيبال التي جاءت متأخرة ولا تحوله الجزئي من الأعمال الحربية إلى أوجه النشاط السلمي. إن مكتبة أشور بانيال العلمية للأدب البابلي (التي هي عبارة عن متحف أشورى لثقافة أتلفتها النزعة الحربية الأشورية) ونقوشه البارزة الرائعة (التي قام بها فنانون أشوريون متوقدو النشاط والذكاء، والتي تصور قتل الإنسان والحيوان تصويره علمية عن طريق التصوير الخيالي الحرب الأشورى) جعلا من نينوى قيل سنة ٦١٢ ق.م متحفا لا يختلف اختلافا كليا عما كانت عليه أثينا عام ٤٠٥ – ٤٠٤. إن كنوز نينوى دفنت تحت أنقاضها لثرى ذرية بعيدة الوشائج أثناء ازدهار مدنية لا تعد البابليين بين أجدادها. ولكن إذا كانت أشور هلكت

حيث بقيت أثينا على قيد الحياة، فذلك لأن أشور كانت بالفعل قد انتحرت قبل أن يداهمها هلاكها المادي. إن التقدم المشهود بشكل جلي اللغة الآرامية على حساب اللغة الأكادية الوطنية في الوطن الأشوري أثناء القرن والنصف الأخير من وجود أشور كدولة يرينا أن أسرى الحروب الأشورية كانوا يحلون محل الشعب الأشورى وينتزعون أمكنته سلمية في عصر بلغت فيه القوة الحربية الأشورية أوجها. إن الإقفار من السكان كان الثمن الذي استلزمته النزعة العسكرية، وكان ثمنا برهن في نهاية المطاف أنه قاض على كيان الجيش الأشورى، كما هو قاض على كيان بقية الهيئة الاجتماعية الأشورية. إن المحارب الذي لا تلين قناته الذي وقف صامدة في الثغرة التي فتحت في تحصينات نينوى عام ٧١٢ ق.م كان "جثة في لباس مدرع" وكانت ضخامة الإرهاب الحربي الذي قد كتم هذا المنتحر فيه أنفاسه حتى الموت هي التي نصبت قامته فسب. وحينما وصلت الفرق الزاحفة الميدية والبابلية إلى ذلك الهيكل المرعب الجامد، وألقت به من فوق حطام بناء متهدم إلى الهاوية المحفورة في أسفله محدثاً قرقعة وضجيجاً، لم يدر بخلدها أن هذا العدو المخيف لم يعد كما كان رجلا حياً في تلك اللحظة التي وجهوا فيها إليه ضربتهم الجريئة الحاسمة بشكل جلي.

الفصل الخامس

عبء نينوى ؛ شارلمان و تيمور لنك

لقد رسمنا صورة النزعة الحربية الأشورية بتفصيل تام، لأنها المثل الأول لعديد من الأمثلة القديمة للانحراف ذاته. إن لوحة «الجثة المدرعة، تستحضر في مخيلتنا صورة الفيلق الإسبرطي في ليكترا عام ٣٧١ ق.م. إن المصير الذي يثير السخرية للمحارب المفرط في شن حروب الإبادة على جيرانه بدرجة أنه يملك نفسه، عن غير قصد، يذكرنا بالهلاك الذي جلبه الكاروتنجيون أو التيموريون على أنفسهم، أولئك الذين بنوا إمبراطوريات واسعة من آلام ضحاياه السكسون أو الفرس، و ذلك لتوفير غنائم كثيرة للمخاطرين الأسكنديناويين أو الأزابكة، الذين عاشوا ليروا بناة الإمبراطوريات يدفعون جزاء استعمارهم بتجرده من سلطانهم الدنيوي وإصابتهم بالعجز والوهن في خلال جيل واحد.

ويستحضر في أذهاننا المثل الأشورى نوعا آخر من الانتحار، ألا وهو الإهلاك الذاتي لأولئك المحاربين الذين يسطون أو يقضون على دولة تضم أقطارا عدة أو إمبراطورية كبيرة أخرى هيأت فترة من السلام للشعوب والمالك التي أظلتها بحمايتها، وذلك سواء كان هؤلاء الغزاة برابرة أو أقواما ذوى ثقافة عالية لهم القدرة على استغلال مواهبهم بدرجة أفضل. إن الغزاة يمزقون جائرين الآثار الإمبراطوري إربا لكي يعرضوا

المخلوقات البشرية التي كانت تحتمي به المخاوف الظلام وشبح الموت، ولكن شبح الموت هذا يجثم بلا هوادة على المجرمين كما يجثم على ضحاياه. إن هؤلاء السادة الجدد لمالك اغتصبت عنوة واقتداراً يفسدهم غداة انتصاره عظمة غنائمهم وضخامتها، ويصبحون، كالقطط التي أهلكت بعضها بعضا، نازعين إلى تشييع بعضهم بعضا حتى لا يترك قاطع طريق واحد في العصابة على قيد الحياة ليتنعم بالأسلاب.

وإنا لنستطيع أن نلاحظ كيف أن المقدونيين حينما اجتاحوا الإمبراطورية الفارسية، وحينما اندفعوا وراء أبعد حدودها في الهند، خلال الأحد عشر عاما التي تلت عبور الإسكندر للمضايق، كانت خطوتهم التالية أن وجهوا أسلحتهم ضد بعضهم البعض بنفس الوحشية أثناء الاثنين والأربعين عاما، في الفترة الواقعة بين موت الإسكندر عام ٣٢٣ ق.م وبين هزيمة ليسيما خوس في كورو بيديم عام ٢٨١ ق.م. وقد تكرر هذا العمل المريح بعد ذلك بألف عام في مرحلة أخرى من مراحل التاريخ السرياني، حينما احتذى العرب المسلمون الأوائل ح ذو الإغريق، وقوضوا بذلك ما قام به الإغريق والمقدونيون، وذلك باجتياحهم في خلال اثني عشر عاما الممتلكات الرومانية والساسانية في الجنوب الغربي من آسيا فوق رقعة من الأرض تبلغ مساحتها في اتساعها الرقعة التي استولى عليها الإسكندر من الإمبراطورية الفارسية القديمة في أحد عشر عاما. وفيما يختص بالعرب فإن الفتح العربي الذي استمر اثني عشر عاما تلاه أربعة وعشرون عاما من الحرب الداخلية تلك الحرب التي بدأت باغتيال عثمان سنة ٦٥٦ م وبلغت ذروتها باستشهاد حفيد

النبي الحسين في ٦٨٠ م. ومرة أخرى قاتل فاتحو آسيا الجنوبية الغربية بعضهم بعضا، وترك للأمويين وللعباسيين مجد إعادة بنها الإمبراطورية السريانية التي أداها الإسكندر، وما تدر من ثمار، وذلك بدلا من أن تقع من نصيب صحابة النبي وسلالته، أولئك الذين مهدت فتوحاتهم الخاطفة الطريق، و يتمثل نفس المنظر في الدنيا الجديدة حينما ينهزم الأزتيك والإنكا أمام الأسبان. إن الغزاة الأسبان للمكسيك و الإمبراطورية الأندية اجتاحوا قارتين – من فلوريدا إلى البرزخ الفاصل بين القارتين، ومن البرزخ إلى شيلي – وذلك فقط لكي يقاتل بعضهم بعضا من أجل الغنائم بوحشية كما تقاتل أصحاب الإسكندر. وكان الملك الذي كان على قيد الحياة في مدريد أكثر عجزاً عن فرض السلام بين المخاطرين، الذين كانوا يدينون له بولاء أسمى، في الجانب الآخر من المحيط الأطلنطي من سيد الحرب المقدوني في قبره عن حفظ النظام بين جيوشه في ساحة القتال. وقد أبدى البرابرة الذين اجتاحوا المقاطعات المهجورة للإمبراطورية الرومانية المتداعية نفس النزعة الحربية الأشورية. إن الفرنجة و العرب دحروا القوط الغربيين و أدالوا دولتهم، وابتلعت مير شياو و يسيكس الولايات الصغرى القليلة الأهمية التي كانت بريطانيا مقسمة إلها، وأزاح الكار ولنجيون الميروفنجيين جانبا، والعباسيون الأمويين. وهذه النهاية الانتحارية وهذا المثل الذي ضربناه أعصر قديم من عصور البطولة ينطبق بدرجة ما على النهاية الأخيرة لكل المجرات الشعوبية التي اجتاحت أملاك الإمبراطوريات الأخرى المتداعية الأركان.

ويوجد نوع آخر من الانحراف الحربي وجد مثله الأول أيضا في

النزعة العسكرية الأشورية، وذلك إذا تصورنا أن أشور ليست كائنا قائما بذاته منعزلا انعزالا غير طبيعي بنفسه، ولكن في صورتها الصحيحة جزء أساسي في هيئة اجتماعية أكبر، تلك الهيئة التي أطلقنا عليها المجتمع البابلي. وكانت آشور في العالم البابلى كما رأينا مكلفة بمهمة خاصة، قيامها بدور قوة ضاربة أول واجباتها أن تدافع لا عن نفسها فقط بل أيضا عن بقية المجتمع الذي كانت تعيش وتوجد فيه ضد سكان المرتفعات البرابرة الذين كانوا يعيشون في الأرض فسادا من الشرق والشمال، وضد رواد المدينة السريانية المعتدين من الغرب والجنوب. ولتوضيح مثل هذا النوع من الإقدام الحربي الأشورى و تمييزه عن نظام اجتماعى سابق غير متضح المعالم، نجد المجتمع في هذا النظام يقاسي لفائدة جميع أفراده، وذلك لأنه على الرغم من أن هذا الاندفاع الحربي نفسه يزداد نشاطا بمقدار استجابته بنجاح المهمة الشاقة التي أخذها على عاتقة، وهي الوقوف في وجه العوامل الخارجية التي تضغط عليه، فإن الداخل الذي يحميه الآن هذا الزحف يتحرر من الضغط بدرجة تتناسب مع هذا النجاح، وبذلك يترك حراً ليواجه تحديات أخرى و يباشر مهاما أخرى. ويظل تقسيم العمل هكذا مفيدة طالما وجه هـ ذا التقدم العسكري إقدامه الحربي إلى المهمة الموكلة إليه فيسب، وهي مهمة صد العدو الخارجي. إن الفضائل الحربية ليس من الضروري أن تكون ذات طابع اجتماعى مدمر طالما استعملت من أجل هذا الهدف الاجتماعي المشروع على الرغم من أن ضرورة استعراضها على أية حال قد يتخذ دليلا يرثي له على نقص الطبيعة البشرية لتلك الأجيال التي

وضعت أقدامها على سؤاسات السلم السفلى للبدنية خلال ستة آلاف السنة الماضية. ولكن هذه الفضائل كما هي تتحول تحولا مهلكا إلى رذيلة النزعة العسكرية بمعناها المنحوس، إذا حول حماة الحدود في أي وقت أسلحتهم، التي تعلموا أن يستعملوها في الأعمال الحربية ضد الأجانب فيما وراء الحدود، إلى صدور أفراد مجتمعهم نفسه الذين تنحصر مهمتهم الصحيحة في أن يدافعوا عنهم لا أن ينقضوا عليهم.

إن الشر الذي ينطوي عليه هذا الانحراف ليس من الضخامة بشكل يعرض المجتمع في مجموعه إلى هجمات العدو الخارجي الذي أوقف حماة الحدود تقدمه حتى هذا الوقت، إذ أن حماة الحدود نادرا ما ينقلبون ضد عشيرتهم حتى يكونوا قد هيمنوا هيمنة كبيرة على أعدائهم الأصليين بدرجة تمكنهم من إطلاق أيديهم للقيام بأذى آخر، وتوجيه أطماعهم نحو أهداف أكبر. والحقيقة أنه حينما ينقلب الاندفاع الحربي ليزف داخلية مجتمعه ذاته، فإنه عادة يتمكن من إبعاد العدو الخارجي بيساره بينهما يشن حربا داخلية بيمينه. إن الضرر المميت لسوء توجيه القوى الحربية هذا لا يقع في فتح الأبواب أمام غاز أجنبي – على الرغم من أن هذه إحدى النتائج الممكن حدوثها – بقدر ما يقع في خيانة الأمانة، وفي التعجيل بنزاع مهلك بين حزبين علاقاتهما الطبيعية بعضهما بعض في بقائهما متحدين. وحينما ينقلب الاندفاع الحربي ضد داخلية بلاده، فإنه يتخذ بذلك موقف المهاجم في حرب هي في الحقيقة حرب أهلية. وإنه لما شر بالحرب الأهلية كونها تستعر بصرامة ووحشية أكثر من أية حروب أخرى. إن هذا يوضح لنا جسامة النتائج التي نتجت عن

عمل تيغلا تبلاصر الثالث في ٧٤٥ ق. م حينما وجه جيوشه ضد بابل بدلا من الاستمرار في استخدامها فقط ضد نيرى و آرام اللتين كانتا ميدانها الصحيح، وسنرى من استقصائنا الأمثلة أخرى يذكرنا بها هذا المثال الأشورى المحتذى أن عاقبة حرب المائة عام بين أشور و بابل، التي نشأت نتيجة لذلك، على الرغم من أنها كانت مفعمة بالكوارث، إلا أنها لم تقتصر على هذه الحالة الخاصة بالذات. إن هذا الانحراف للاندفاع الحربي الذي ينقلب على داخلية بلاده، هو بطبيعته بجلب للكوارث للمجتمع في مجموعه، وهو فوق ذلك مدمر للفريق الذي يرتكب هذا العمل الشاذ الانتهاكي. إن كلب الغنم الذي ربي ودرب ليكون رفيقا للراعي حينما يتردى إلى طباع الذئاب وسلوكها، تلك الذئاب التي ينحصر واجبه الأول في مطاردتها، ويخون أمانته في اغتصاب الغنم لنفسه، يتسبب في دمار أسوأ بكثير من الدمار الذي يستطيع ذئب حقيقي أن يتسبب فيه طالما كان هناك كلب غنم مخلص ينهش جوانبه، إلا أن القطيع في نفس الوقت ليس هو الذي يعاني أشد المعاناة من هذه الداهية التي تنشأ من خيانة الكلب. إن القطيع يهلك عدد عظم منه، ولكنه مع ذلك يظل على قيد الحياة، أما الكلب فإن سيده الهائج يتسبب في هلاكه، وحامي الذمار الذي ينقلب ضد مجتمعه إنما يحكم على نفسه بهلاك لا هوادة فيه لأنه يكيل ضرباته للمنبع الذي تنبع منه حياته. إنه يشبه تلك اليد القابضة على السيف التي تدفع بالسيف الذي تستعمله في الجسد الذي هي إحدى أعضائه، أو كمثل قاطع الأشجار في الغابات الذي يقطع بمنشارة الفرع الذي يجلس عليه،

وبذلك يهوى إلى الأرض محدثا جلبة وضوضاء، بينما يكون جذع الشجرة الذي شوهه لا زال قائما.

إن الإحساس الذي دفع الاستراسيين أن يحتجوا بشدة في سنة ٧٥٤ م ضد قرار زعيمهم الحربي (بيبين) لاستجابته لنداء البابا ستيفن لحمل السلاح ضد إخوانهم اللمبارديين ربما كان إحساسا بديهيا بانحراف هذا التوجيه الخاطئ للقوى. إن البابوية وجهت نظرها ناحية هذه الدولة الواقعة وراء جبال الألب، وأثارت طموح (بيبين) بمسحه ملكا في ٧٤٩م و تتويجه في اليوم السابق ليوم إرسال الحملة الإيطالية المراد إيفادها، وذلك لأن استراسيا في عصر (بدبين) ميزت نفسها ببسالة جيوشها دفاعا عن المسيحية في غرب أوربا ضد قبائل البرابرة السكسون الوثنيين، الذين كانوا يشقون طريقهم جنوب الرين من المناطق التي ليست في حوزة أحد في شمال أوربا، وضد الفاتحين العرب المسلمين من شمال أفريقيا و شبه جزيرة أيبيريا الذين كانوا يندفعون عبر البرانس. وفي عام ٧٥٤م دعي الإستراسيون ليحولوا قواهم من الميادين، التي وجدوا فيها في ذلك الوقت سب مهمتهم الحقيقية، ليصبوا على اللو مبارديين في إيطاليا نفس الويلات التي منعت الجيوش الإستراسية العرب والسكسون من إيقاعها بالفرنجة أنفسهم في بلاد الغال. إن الشكوك التي حامت حول حملة الجيوش الإستراسية في هذه المجازفة الإيطالية قد أثبتتها نتيجتها التي برهنت على أنه لم يكن لها من مبرر مستساغ أحسن من هوى قائدها، وذلك لأن الملك (بدبين) بتغلبه على معارضات تابعيه صنع أول حلقة في سلسلة الأعمال الحربية والسياسية التي ربطت

إستراسيا بإيطاليا إرتباطا إزداد وثوقا بمرور الأيام. إن حملات بيبين) الإيطالية ضد إيستولف عام ٧٥٥، ٧٥٦ أدت إلى حملة شارلمان الإيطالية ضد ديزيدير عام ٧٧٣ – ٧٧٤ على الرغم من محاولة والدة شارلمان وأرملة (بنين)، الملكة بيرتراد، أن تزيل ما بين فرانك و لمبارديا من قطيعة أوجدها (بي بين) ضد إرادة شعبه. فينيا عقدت زواج ابنها من (بيمين)، الذي خلف والده، بابنة خلف إينستولف ديزيدير، طلق شارلمان زوجته اللومباردية، ديزيديرتا، وحقق أطماع والده يفتح مملكة والد زوجته فورة. ولكن استيلاء شارلمان على التاج اللومباردي لم يحسم المسألة الإيطالية، أو يخلص الدولة التي تقع فما وراء الألب من قلاقلها الناشئة من وجودها في جنوب الألب. كما أن القضاء على استقلال المملكة اللومباردية أثقل ظهر أسرة شارلمان بعبه لا يمكن التنحي عنه، ألا وهو عبء الدفاع عن البابوية والسيطرة عليها، وورطته حمايته والبطريقية الرومانية، في منازعات أبعد من هذا مع الولايات اللومباردية و نقط الحدود الرومانية الشرقية في جنوب إيطاليا. وحتى في حملته الرابعة التي أضطر أن يوجهها الروما، حينما بلغ أوج نجاحه الظاهرى بتتويج البابا له إمبراطورا الإمبراطورية الرومانية المقدسة وترحيب الشعب الروماني بذلك، كلفه هذا اللقب نزاعا دبلوماسيا مع رجال القصر في القسطنطينية استمر أكثر من عشرة أعوام.

إن الحكم الصحيح على سياسة شارلمان الإيطالية يمكننا أن نستقيه من التقويم التاريخي لأعمال حكمه الذي يرينا كيف أن عملياته هذه في جنوب الألب حولت انتباهه مرة تلو مرة – وكان هذا غالبا في لحظات

حرجة – عن مهمته الحربية العظمى ألا وهي متابعة الحرب السكسونية الكبرى. فبعد أن تحدى السكسونيين بسيره إلى قلب مملكتهم، والقضاء على عبادة إرمين في سنة ٧٧٢، اختفى شارلمان فيما وراء الألب أثناء عام ٧٧٣ و عام ٤٧٤، و بذلك ترك الطريق مفتوحا أمام السكسونيين في السنة الأخيرة ليأخذوا بثأرهم بالإغارة على الهسيين [١].

و لذلك فإن الضربة القاضية التالية التي أنزلها قاهر السكسون بهم في عام ٧٧٥ – ٧٧٦ كان عليه أن يرجها أثناء ربيع سنة ٧٧٤، حينما ذهب في حملة ثانية في جنوب الألب ليخمد ثورة قام بها هرود جود، الدوق اللومباردى لفروبلي. وفي وسط المرحلة الثانية للحرب وهي المرحلة التي امتازت بالصرامة المتناهية و التي كان فيدوكنده، ذلك القائد الذي اتخذ خطة الدفاع الهجومى، يقود فيها السكسون مدة ثمانية أعوام من ٧٧٧ إلى ٧٨٥ – كان على شارلمان أن يقوم بالزيارة الثالثة في أثناء حكمه لإيطاليا والثانية لروما، كما أن فترة الهدوء في الحرب السكسونية، التي أعقبت استسلام فيدوكند عام ٧٨٠، لم تكن فترة راحة للجيوش الاستراسية، إذ أن عام ٧٨٧ شاهد شارلمان يقوم بزيارته الثالثة لروما، ويقود حملة غير حاسمة ضد الدوقية اللومباردية الجنوبية بنيفتو، ويفرض سيطرته بالقيام مظاهرة حربية ضد أصدقاء اللومبارد القدامى و مواليه الجو حين البافاريين. وكانت المرحلة الرابعة والأخيرة للحرب السكسونية، التي بذل فيها البرابرة المغلوبون على أمرهم الذين لم تروعهم الأحداث مجهودا مستميتا استطال أمره اليطرحوا عن كاهلهم

---

(١) سكان مقاطعة هس الألمانية. (المترجم)

النير الإستراسي بمساعدة الفريزيين (من ٧٩٢ – ٨٠٤م)، تسير في مجراها أثناء زيارة شارلمان الرابعة لروما، والخامسة لإيطاليا عام ٨٠٠ – ٨٠١م

إن هذه الحرب الضارية ضد السكسون أنهكت الدولة الكارولنجية بدرجة مفجعة. وأبان هـ ذا الإنهاك عن نفسه في تصدع الإمبراطورية الكارولنجية غداة موت شارلمان، وفي الجولة الإسكنديناوية الانتقامية الآلام التي قاساها السكسون – تلك الجولة التي تمثلت في هجوم مضاد بدأ حتى قبل أن يرتحل من الدنيا قاهر السكسون الإستراسي. ويجب أن نتذكر أيضا أن الجبهة السكسونية فيما وراء الرين لم تكن الحدود الوحيدة للبلاد المسيحية الغربية، التي كانت إستر اسيا مسئولة عنها، إذ أنها كانت كذلك حارسة للحدود في اوراء البرانس. و حينما أسقط شارلمان المملكة اللومباردية وأعاد البافاريين إلى الطاعة، ورث عن أعدائه المغلوبين الوصاية على حدود جبهة ثالثة، الجبهة الافارية فيما وراء الألب النمساوية. ور ما كان من المحتوم على شارلمان في السنة الثانية من الصراع المميت مع فيدوكند أن يجر إلى الحملة البعيدة عبر البرانس التي انتهت نهاية سيئة للغاية في روسفال، ولكن من الواضح أن احتفاظ شارلمان بجهة عبر البرانس و جهة عبر الرين مع التمرد الذي كانت تندلع نيرانه دوما في آكويتين جعله غير مستطيع بأية حال أن يقدم على أعمال جديدة في الجانب الإيطالي من الألب. و قد أصبحت سياسته الإيطالية سياسة انتحارية حينما ارتبطت كما حدث بحركة تقدم جشعة في كلتا جبهتي عبر الألب اللتين ورثهما المحارب الإستراسي

العظيم من أسلافه. إن عب الحملات الإيطالية الخمس التي فرضت على شارلمان دون مبرر ضاعف العب الذي أثقل كاهل إستراسيا حتى قصم ظهرها.

وإذا كان شارلمان قد قصم ظهر إستراسيا بتحويله جيوشه ضد الأجزاء الداخلية للبلاد المسيحية الناشئة من لومبارديين و با قاريين، حينما كان صراعها الرهيب مع السكسون فيما وراء حدود الرين يتطلب كل قوتها، كذلك فإن تيمور، على غرار هـ ذا، قصم ظهر بلاده، ما وراء النهر [1]، بتبديده بحملاته، التي كانت تسير على غير هدى على إيران والعراق والهند و الأناضول وسوريا، القوى الاحتياطية الطفيفة لبلاده التركستان، تلك القوى التي كان من الواجب أن تركز في تحقيق مهمة تيمور الصحيحة وهي فرض السلام على الرعاة الأوراسيين.

وقد أمضى تيمور تسعة عشر عاما (١٣٦٢ – ١٣٨٠ م) في حروب عنيفة صد بها محاولات رعاة جغتاي التي كانوا يرمون من ورائها إلى إعادة فتح بلاد التركستان، ثم اتخذ بدوره خطة الهجوم على الغزاة المهزومين في موطنهم في السلاسل الجبلية في موغالستان، ووسع رقعة ممتلكاته بزحفه على البلاد الفارسية في غربي آسيا بتحريره واحات خوارزم على نهر جيحون الأدنى من احتلال رعاة جيوجي. وعند إتمام هذا العمل العظيم عام ١٣٨٠ م أصبح في متناول تيمور غنيمة أكبر – لم تكن بأقل من وراثته لعرش الإمبراطورية الأوراسيه لجنكيز خان. وذلك

---

(1) التركستان.

لأنه في عصر تيمور كانت قبائل الرعاة الأوراسية في تقهقر في جميع قطاعات الحدود الطويلة بين الصحراء ونهر السون. وبينما كان تيمور يحارب جحافل موغالستان والقفجاق في القطاع الواقع بين البامير وحر قزوين، كان الملداف واللتوانيون والقوزاق ينتقصون من أملاك جيوجي من الطرف المقابل في الفرجة الغربية الكبيرة من السهوب الواقعة بين البوابات الحديدية للدانوب و جنادل الدينيبر، وكان المسكوفيون ينفضون عن كاهلهم نير عشائر القفجاق الرعاة، وكان الصينيون يطردون خاقانات المغول -- الفرع الرئيسي لأسرة جنكيز خان. وكل الولاة الصوريين للبلاد التي احتلها جنكيز خان - من بكين عاصمة كيو بيلاى إلى منطقة من المناطق الواقعة وراء الجبهة الخارجية لسور الصين العظيم، تلك المناطق التي لم تكن في حوزة أحد، والتي أتى منها في الأصل هؤلاء البرابرة المتطفلون. وكان الرعاة يختفون بسرعة من مسرح الحوادث في جميع الجهات، وأصبح الفصل الثاني من تاريخ أوراسيا سباقا بين الشعوب المستقرة الناهضة فيما حولها من أجل الحصول على نصيب من تركة جنكيز خان. وكان الملداف واللتوانيون بعيدين بدرجة جعلتهم لا يشتركون في هذا السباق، وكان المسكوفيون مرتبطين بغاباتهم والصينيون حقولهم ارتباطا الا فكاك منه، وكان القوازق وسكان التركستان هم المنافسون الوحيدون الذين نجحوا في توطيد أنفسهم على حياة السهوب، وذلك دون أن يتخلوا عن الأسس التي جعلت من حياتهم حياة مستقرة. واكتسب كل منهما بعضا ما تميزت به حياة الرعاة من قوة، وجمعا بين هذا وبين قوة الحياة المدنية المستقرة. وإنه ليبدو للملاحظ

الثاقب النظر في عام ١٣٨٠ أن النصر في التسابق للسيطرة على الأقاليم الأوراسية كان لابد أن ينحصر بين هذين المتسابقين، وأن كل المظاهر في تلك اللحظة كانت توحي بأن منافس ما وراء النهر كان له القدح المعلى بكثير، وذلك لأنه زيادة على أنه قوي في

ذاته وأقرب إلى قلب السهوب، كان أول من نزل إلى الميدان، بينما كان بصفته بطل رجال السنة المعترف به له أنصار أقوياء بين المجتمعات الإسلامية المتوطنة، التي كانت مراكز أمامية للإسلام على السواحل المحاذية للسهوب في قازان وقريم من جهة، وفي كانسو وشينسى من الجهة الأخرى.

وقد بدا أن تيمور أخذ يقدر هذه الفرصة لبرهة قصيرة ويصر على اغتنامها. إن الحرب الأهلية بين قطاعين متنافسين من العشائر الاتفاقية، تلك الحرب التي سمحت لتيمور بفتح خوارزم وسمحت للمسكوفيين بتوطيد استقلالهم، استغلها تيمور في حينها لغرض أكثر طموحا من مجرد الاستيلاء على ولاية واحدة من ولايات الحدود. فقد تدخل في الشئون الداخلية للقفجاق مده يد المعونة لأحد المتنافسين على الحكم وهو تقتمش، و بفضل مساعده تيمور تمكن تقتمش خلال الفترة التي تمتد من ١٣٧٨ إلى ١٣٨٢ من توحيد كل ممتلكات جيوجى تحت قيادته، ومن إعادة المسكوفيين الطاعة مرة ثانية باحتلال موسكو نفسها وإحراقها، ومن إيقاع هزيمة فادحة باللتوانيين. وقام تقتمش بهذه الأعمال كلها بصفته أحد موالي تيمور. وكانت نتيجة ذلك أن أصبح تيمور، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، سيد النصف الغربي جميعه من السهوب

الأوراسية محمياته المستقرة التي تكتنفه، من إيريش إلى الدنيبر ومن البامير إلى جبال أورال. ومع ذلك ففي تلك اللحظة اتجه فاتح الأراضي الأوراسية التي ليست في حوزة أحد إلى الجهة المقابلة فجأة ووجه جيوشه تجاه داخلية العالم الإيراني، وكرس الأعوام الأربعة والعشرين الباقية من حياته لسلسلة من الحروب المدمرة العقيمة في هذا الجزء من العالم. ومع أن تقتمش، الذي تجرأ عندما رأى سيده يغير فجأة اتجاهه فقام بعمل جريء من أعمال العدوان، أرجع تيمور دون قصد إلى ميدانه الصحيح، إلا أنه استأنف منحاه الجديد بعناد وإصرار بمجرد أن تخلص من القلاقل في القفجات في حملة شنها أثناء الشتاء عبر السهوب، تلك الحالة التي كانت أعظم عمل فريد ألمعى بارز في سجل أعمال القائد التركستاني كلها.

إن استعراضا وجيزا لتاريخ السنين الأربع والعشرين الأخيرة من حياة تيمور من شأنه أن يرينا كيف ظل طيلة تلك الفترة من الوقت، التي تقرب من ربع قرن يعرض بإصرار عن فرصة كانت في قبضة يده في لحظة الانتقال من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية في مجرى حياته..

أمضى تيمور فترة السنوات السبع بين ١٣٨١ – ١٣٨٧ في غزو إيران والبلاد الواقعة عبر القوقاز باستثناء حملة انتقامية واحدة عام ١٣٨٣ – ١٣٨٤ ضد خان جغتاى الذي كان لا يزال على عناده في موغالستان. إنه لم يتخذ عظة من الاحتكاك الذي حدث بين جنوده وجنود تقتمش في ١٣٨٥ في أذريبيجان، وفي بدأ سنه ١٣٨٨ كان في فارس على وشك إتمام فتحه الهضبة الإيرانية، حينما استدعى على عجل

إلى سمرقند بسبب غزو تقتمش الخوارزم وتركستان. إن انتصاره الساحق على تقتمش في يورتابا، على الساحل المحاذي لسهوب القفجاق في ١٣٩١ وضع للمرة الثانية في يد تيمور الفرصة التي كانت في حوزته في ١٣٨٠ وأهملها منذ سنة ١٣٨١. وفي هذه المرة كان في قدرته أن يجعل نفسه السيد المباشر للقفجاق وكل مستعمراتها. وزيادة على ذلك، فبعد عودته الظافرة إلى سمرقند من القفجان استطاع أن يقضى قضاء تاما على آخر بقايا الثورة في موغالستان، ويوطد سلطته نهائيا على عشائر جغتاى الرعاة. لقد أصبحت أوراسيا الآن تحت قدميه، ولكن بدلا من أن ينحني ليلتقط الغنيمة ارتحل مبتعدا مرة ثانية، ذلك الصيف، في الاتجاه المقابل، متجها رأسا إلى فارس أي إلى النقطة من زحفه التي اضطر عندها أن ينصرف عن غزو آسيا الجنوبية الغربية في ١٣٨٨ – وتقدم تقدما مضطردا فأخضع العراق وأرمينيا وجورجيا. وفي خلال حملته الشهيرة هذه التي استمرت خمسة أعوام (يوليو ١٣٩٠ – يوليو ١٣٩٦) أبعد تيمور مرة ثانية على الرغم منه عن منحاه المرسوم بغارة جديدة لتقتمش على ما وراء القوقاز في ربيع ١٣٩٥. إن ضربة تيمور المضادة حملته عبر القوقاز والتيريك[1] والسهوب إلى الدولة المسكوفية، ولكن في سنة ١٣٩٦ ارتد من القفجاق إلى سمرقند عبر إيران.

ومن صيف ١٣٩٦ إلى ربيع ١٣٩٨ استراح تيمور في سمر قند من عناء ومن صيف أعماله المدمرة. ولكن فترة توقفه هذه تلاها إحكام

(١) مقاطعة في شمال القوقاز تروى به تيريك الذي يصب في بحر قزوين. (المترجم)

قبضته على أوراسيا أو التوسع فيها. والآن وقد أتم سحق قلب الإمبراطورية الإيرانية التي قضى فيها ع٥د طفولته، كرس نفسه بعدئذ لغزو أطرافها الجنوبية الغربية والشمالية الغربية على التوالي حيث كان في ذلك الوقت أمراء الهند التوغلاق وأمراء آسيا الصغرى العثمانيون يوسعون رقعة الأملاك الإيرانية على حساب الدولة الهندية والبلاد المسيحية الأرثوذكسية على التالي. إن أمراء تيمور عارضوا اجتياز الهندكوش ومهاجمة أبناء جلدتهم ودينهم في الهند بنفس الشدة التي عارض بها يوما أتباع بيين، في ظروف مماثلة، اجتياز الألب و مهاجمة بني جلدتهم اللومبارد في إيطاليا، ولكن تيمور مثل بيبين جعل مشيئته تسود. وظلت حملة الهند شاغلة إياه من ربيع ١٣٩٨ إلى ربيع ١٣٩٩ وقبل حلول خريف السنة الأخيرة تحرك ثانية ليقوم بما قدر له أن يكون أكثر حياته الحربية شهرة على الرغم من أنه ليس في الحقيقة ألمعها، وهى حملته الثانية التي استمرت خمسة أعوام وتخللتها مقابلته مع الفيلسوف المغربي ابن خلدون في دمشق عام ١٤٠١ و هزم فيها السلطان بيازيد الأول العماني وأسره في سنة ١٤٠٢.

ولما عاد تيمور إلى سمرقند في يوليو سنة ١٤٠٤، كان في طريق الغزو مرة ثانية قبل توفير، وفي هذه الآونة و في النهاية و لأول مرة في ثلاث وعشرين سنة، وجه وجهه عمداً ناحية وجهة ميمونة إذ كانت الصين هدفه هذه المرة. ومع أنه قد يشك في ضوء سجل أعماله في آسيا الجنوبية الغربية أنه كان يريد أن يكرر العمل المغولي العظيم وهو فتح الصين جميعها العمل الذي استلزم حتى من المغول سبعين عاما من

١٣٠٧ – ١٢٧٧ م لإتمامه – إلا أنه على الرغم من ذلك فإن هذا المشروع الذي هو آخر مشروع لتيمور لو أنه عاش لينفذه – لكان له عواقب دائمة ذات أهمية تاريخية، إذ لو كان تيمور قام حتى بغارة عابرة على الصين، لكانت قد تركت هذه الغارة القطاعات الشرقية للحدود الجنوبية للسهوب الإستراسية من حوض تاريم إلى منشوريا في قبضته الدائمة، وهذا كان من شأنه أن يضع جميع السهوب تحت سيطرته. ومع ذلك فإننا فيما يختص بهذه النقطة ننتقل إلى ميدان الحدس والتخمين، إذ أن محاربا حتى في مثل الطالع السعيد الذي من به على تيمور لم يكن في استطاعته أن يبدد ثلاثة وعشرين عاما دون أن ينال جزاءه. وفي حملته على الصين لم يتقدم شرقا إلى أبعد من أوتار قبل أن يداهمه الموت.

إن تدمير تيمور لقواه إنما هو مثل أعلى للمنحى الانتحاري للنزعة الحربية، كما قد يظهر من مقارنة بين فشله و فشل شارلمان.

كانت محاولة الزحف لإخضاع الداخل في كلتا الحالتين محاولة قصيرة العمر جدا – وإنه لمن النادر في حقيقة الأمر أن نجد مجتمعا متأخرا نسبيا نجح بوسيلة الغزو الحربي الفظة في استيعاب مجتمع يتقدمه في طريق المدينة نفسه، وكما حدث للسيطرة التركستانية التي فرضها تيمور بالقوة العسكرية على إيران والعراق حدث للسيطرة الإستراسية التي فرضها شارلمان على لمبارديا وبافاريا، إذ قد تلاشت بعد موت شارلمان. ولكن آثار المنحى العسكري الشارلمان لم تكن آثارا عايرة تماما، إذ أن إمبراطورية تماسكت على وجه ما مدة ثلاثة أرباع قرن

بعد أن أزال الموت سلطانه ؛ وأخذت أجزاؤها العديدة تتحول مصائرها باستمرار بسبب اتحادها في جسم اجتماعى واحد بقي حيا على هيئة جمهورية مسيحية بعد تبخر القوة الحربية التي أحدثت هذا الاتحاد أصلا. وبالموازنة نجد أن الإمبراطورية التيمورية لم تكن أقصر عمرا من إمبراطورية شارلمان فحسب بل كانت أيضا بدون أية نتائج اجتماعية إيجابية. إنها تفككت سنة ١٤٩٥م غربى المنافذ القزوينية عند سماع خبر موت تيمور، و تفتت في خراسان وتركستان بعد موت شاهرخ سنة ١٤٤٦م إلى ولايات صغيرة ضعيفة متحاربة، والنتيجة الوحيدة التي يمكن ترسمها إنما هي نتيجة سلبية تماما. و باكتساح تيمور كل شيء كان يجده في طريقه لكي يندفع راكبا رأسه نحو هلاكه، نجد أن سياسته الاستعمارية أوجدت حسب فراغا سياسيا واجتماعيا في آسيا الجنوبية الغربية أدي في النهاية بالعثمانيين والصفويين إلى التصادم، ذلك التصادم الذي كان الضربة القاضية للمجتمع الإيراني.

وكان تحويل القوى الحربية الإستراسية من حدود البلاد المسيحية الغربية إلى الداخل ميتا أيضا لإستراسيا نفسها، دون أن يقوم دليل على أن هذا التحول كان ميتا كذلك للمجتمع الذي كانت إستراسيا جزءا منه. إن سلالة السكسونيين ضحايا شارلمان أخذوا على عاتقهم في النهاية مهمة توسيع رقعة البلاد المسيحية الغربية من الخط الذي توقف عنده شارلمان على حساب برابرة القارة الأوربية، وساروا فيه قدما، كما قام بهذا التوسع في شبه الجزيرة الأميرية على حساب العالم السرياني عدد من الولايات المسيحية الغربية المحلية التي كان الكثير منها دويلات

نشأت مباشرة من تفتت الإمبراطورية الكارولنجية بعد سقوطها. والثمن الذي كان على البلاد المسيحية الغربية أن تدفعه لمنحى شارلمان الحربي في كلتا الجهتين كان فترة توقف استمرت أقل قليلا من قرنين تلاها بعد ذلك تقدم آخر استمر ثلاثة قرون (من حوالي ٩٧٥ م – ١٢٧٥ م). ومن جهة أخرى حرمت النزعة الحربية التيمورية المجتمع الإيراني من أرض ميعاده في أوراسيا.

إن استيلاء المجتمع الإيراني على التركة التي خلفها الرعاة اتخذ الصبغة الدينية بادي الأمر. ففي خلال القرون الأربعة التي انتهت بعصر تيمور كان الإسلام يحكم قبضته بشكل متزايد على الشعوب المستقرة حول سواحل السهوب الأوراسية، وكان يستولي على الباب الرعاة أنفسهم حينما يتخطون الصحراء إلى السون. وفي القرن العاشر الميلادي، حينما كانت القوة الحربية والسياسية الخلفاء المسلمين العباسيين في تدهور، كانت ديانتهم تغزو الشعوب التركية المستقرة في وسط الفلا وفي واحات وادي التاريم والرعاة السلجوقيين الأتراك و خانات إيليك على الأطراف التركستانية للسهوب بين بحر أورال وحيرة بلكاش. وحتى في أعظم وآخر انتفاضة للهجرة الشعوبية حينما انتفضت السهوب انتفاضة وصلت الأعماق و أطلقت على دار السلام جحفلا من الرعاة الذين لم يمسسهم قط الإشعاع الثقافي الإسلامي، والذين كانوا متحاملين على الإسلام، حينما واجهوه، بسبب صيغتهم المسيحية النسطورية، نجد أن الضرر الذي لحق بالإسلام من الاضطهاد المفاجئ العنيف القصير المدى، الذي تعرض له من الخاقانات المغول الأول، قد

عوضته وزادت عليه الخدمة غير المقصودة التي أسدتها له سياسة المغول، تلك السياسة التي كانت ترمي عمدا إلى امتزاج شعوب و حضارات إمبراطوريتهم الشاسعة غير المتجانسة. إن انتشار الإسلام في الصين يرجع الفضل فيه إلى سادة الحرب الرعاة الوثنيين هؤلاء – ولم يكن انتشار الإسلام فحسب في المقاطعات الشمالية الغربية الملاصقة للممتلكات الإسلامية الأقدم عهدا في حوض تاريم، ولكنه انتشر أيضا في مقاطعة يونان الجديدة في أقصى الجنوب الغربي التي اقتطعت من أراضي الهمج التي لم تكن في حوزة أحد، وأضيفت إلى الصين بقوة الجيوش المغولية.

وبعد ذلك في فترة الانتقال من القرن الثالث عشر إلى القرن الرابع عشر من العصر المسيحي نجد أن الممتلكات الغربية الثلاث للإمبراطورية – أسرة هولاجو في إيران وأسرة جيوجي في سهوب القفجاق وأسرة الجغتاى في تركستان و زنجاريا – اعتنقت الإسلام الواحدة بعد الأخرى، وكان يبدو كما لو أن الإسلام لموسكن في مقدور شيء أن يمنحه الآن من أن يصير دين كل أقاليم أوراسيا. وقبل الوقت الذي نهض فيه تيمور كبطل رجال السنة الإسلاميين في تركستان، كانت جماعة من الشتات المسلمين، التي كانت قد وطدت نفسها حول السواحل الغربية والجنوبية للسهوب، قد مهدت له الأرض – كما لاحظنا من قبل – ليجنى ثمار إمبراطورية إسلامية جامعة.

والأهم من ذلك أن انتشار الإسلام في أوراسيا، الذي تقدم هذا التقدم حتى عهد تيمور، توقف توقفا تاما فيما بعد. إن الكسب الوحيد

الذي اكتسبه الإسلام بعد ذلك في هذا الإقليم هو اعتناق الخانية التركية في عرب سيبيريا له في وقت ما قبل الغزو القوزاق سنة ١٥٨٢ م. وهذا النجاح في إحدى الجهات النائية المتأخرة كان مدعاة لقليل من الافتخار من جانب الإسلام في عصر شاهد إحدى الديانات العليا تعتنقها البقية الباقية جميعها من الرعاة الأوراسيين الذين ظلوا حتى ذلك الحين في و ثنيتهم البدائية.

وأبرز حدث ديني في أوراسيا في مرحلة الانتقال من القرن السادس عشر إلى القرن السابع عشر من العصر المسيحي كان اعتناق المغول عام ١٥٧٦ – ١٥٧٧ وبني جلدتهم في الغرب، الكالموك (حوالي ١٦٢٠ م) المذهب اللامي من البوذية الماهانية، وهذا النصر المدهش لهذه البقية العتيقة للحياة الدينية للحضارة الهندية المائدة من عهد طويل يعطينا فكرة ما عن مقدار المدى الذي هوت إليه هيبة الإسلام في نظر الرعاة الأوراسيين أثناء القرنين اللذين مرا منذ عصر تيمور.

وقد برهنت الحضارة الإيرانية أيضا، تلك الحضارة التي دافع عنها تيمور أول الأمر ثم تخلى عنها بعد ذلك، على إفلاسها سياسيا كذلك. إن الجماعات المستقرة التي قامت تماما في النهاية بالمهمة العظيمة مهمة ترويض الرعاة الأوراسيين سياسيا كانت الفرع الروسي من المجتمع المسيحي الأرثوذكسي والفرع الصيني من مجتمع الشرق الأقصى. وإن حكم العبودية الذي قضى به القدر على الرعاة حينما قام تيمور تحملته الشتوية عبر السهوب وأسقط تقتمش في يورتابا سنة ١٣٩١ م. لم ينفذ إطلاقا بأيد تركستانية. لقد تأيد هذا الحكم في منتصف القرن السابع

عشر حينها وقع الصدام بين موالى الدولة المسكوفية القوزاق وسادة الصين المنشوريين، بينما كان الفريقان يتحسسان سبيلهما في جهات متقابلة حول الطرف الشمالي للسهوب واشتيا في معركتهما الأولى للسيادة على أوراسيا في جوار مراعي أسلاف كنجيز خان في وادي نهر عامور العلوي. إن اقتسام أوراسيا وإخضاع سكانها الرعاة القدامى بنفس هذين المتنافسين، ثم بعد ذلك بقرن حينها قضى الإمبراطور شيان لونج (الذي تولى من ١٧٣٥ – ١٧٩٦) على نفوذ كالموك زونجار سنة ١٧٥٥ م، وآوي إليه من ممتلكات القيصر سنة ١٩٧١م. لاجئي كالموك تورجوت الذين قد دحروا بالفعل. وبهذا تكون آخر موجة من موجات الطغيان الرعوى الأوراسي قد تلاشت قوتها. وحينها اقتسمت الدولة المسكوفية والدولة المنشورية ولاء القوقاز – وهم البقايا المحطمة المتفتتة للموجة السابقة للموجة الأخيرة الذين كانوا يريدون الآن على غير هدى متثاقلين في الجزء الشرقي من سهوب القفجاق بين الايريش والياك – وجدت جميع أوراسيا نفسها حتى الأطراف الشمالية الواحات التركستانية إما تحت السيطرة الروسية أو السيطرة الصينية.

ولم يقف الضرر الذي أوقعته نزعة تيمور العسكرية على العالم الإيراني بما في ذلك وطن الفاتح نفسه، التركستان، عند حد فقدان ميدان ذي إمكانيات كبيرة للتوسع عبر وحوالي السهوب الأوراسية. إن الإدانة القاطعة للنزعة العسكرية الحرية التي استحوذت على تيمور خلال السنوات الأربع والعشرين الأخيرة من مجرى حياته تتضمنه الحقيقة التي تتلخص في أنها فوق أنها نزعة عقيمة في حد ذاتها، فقد أدت فعلا

حينما حان الحين – حسبما انتهت إليه عواقها في الجيلين الثالث والرابع – إلى القضاء على العمل الإنساني الذي كرس تيمور له نفسه مدى تسعة عشر عاما قبل أن يتهور سنة ١٣٨١ م ويندفع يقتل وينهب دون وعي. إن محرر المجتمع الإيراني الذي نشأ في التركستان أمضى بقية حياته في استنفاد قواه بشكل متهور، تلك القوى التي جندها أول الأمر ضد المغير الرعوى، حتى أن العالم الذي أمنه ضد جحافل جغتاى وجيوجي وجد نفسه في مدى نيف و مائة عام بعد موت محرره الحربي الذي انقلبت أوضاعه قد أصبح معرض لعودة الخطر الرعوي متمثلا في الأزابكة ؛ وفي هذه الأزمة وقفت سلالة الأسرة التيمورية، الذين كانوا بصفتهم هذه ورثة للتركة الاجتماعية المثقلة بسبب الإفراط التيموري في الأعمال الحربية، عاجزين عن تكرار العمل الفريد الذي قام جدهم به. إن الزحف الأزبكي إلى قلب العالم الإيراني أوقف في النهاية الا عن طريق أي من أميرى فرغانة أو خراسان بل عن طريق الدولة الصفوية للشاه إسماعيل. وحتى الجيوش الإسماعيلية التي أوقفت فعلا التقدم الأزبكي الأعظم، لم تستطع أن ترد الغزاة تماما إلى المنطقة الحرام تلك المنطقة التي أتوا منها. إن إسماعيل بسبب قاعدته الحربية البعيدة نسبيا في أذربيجان وبسبب أطباعه التفاخرية في الغرب – تلك الأطماع التي ورطته في صراع غير متعادل مع العثمانيين – أصبحت مقدرته على القيام بدور المحرر في الجبهة الشرقية محدودة. و بعد أن طرد الأزابكة نهائية من خراسان أضطر في النهاية أن يتركهم في حوزة دائمة للتركستان.

ونتيجة لهذا وقعت التركستان تحت نير زمرة أخرى من الرعاة، من

الناحية الأخرى، كانوا أكثر وحشية حتى من الجنة الممقوتين المزدرين بعد قرن ونصف من السنة التي تأهب فيها تيمور لتحرير مملكته من سيطرة جحافل الجغتاى ؛ و تحت هذا النير قدر للزحف الإيراني السابق أن يظل هامدة لا حراك به مدى ثلاثة القرون التالية و النصف، حتى حصل في النهاية مزارعو الواحات التركستانية الذين استطال عذابهم على تخفيف لما يقاسونه باستبدال سيد روسى بسيد أزبكي.

وإنها لتبدو فكرة غريبة أن يظن أنه إذا لم يكن تيمور قد أدار ظهره الأوراسيا وجيوشه ضد إيران سنة ١٣٨١ م، كانت العلاقات الحاضرة بين التركستان وروسيا عكس ما هي عليه الآن فعلا. وعلى فرض حدوث هذا فإن روسيا كانت ستجد نفسها ضمن إمبراطورية مساحتها نفس مساحة الاتحاد السوفياتي، ولكن بمحور ارتكاز مختلف للغاية – إمبراطورية إيرانية تكون فيها سمرقند هي التي تحكم موسكو، بدلا من أن تكون موسكو هي التي تحكم سمرقند. إن هذه الصورة الخيالية لبديل لمجرى التاريخ الإيراني قد تبدو غريبة، إذ أن مجراه الحالي اتخذ وجهة مختلفة كل الاختلاف مدى القرون الأربعة الأخيرة وما يزيد. ولو أننا تمثلنا مجرى بديلا للتاريخ الغربي نتصور فيه أن عواقب النزعة الحربية لشارلمان كانت مخربة تماما لعالمنا، كما كانت نتائج النزعة الحربية لتيمور مخربة تماما لعالمة، فإن الصورة التي تتكشف أمام مخيلتنا لن تقل غرابة عن هذا. و قياسا على هذا فسيكون علينا أن نتصور إستراسيا وقد غمرها المجريون و نوستريا وقد غمرها قرصان الشمال في القرن العاشر، وقلب الإمبراطورية الكارولينجية وقد ظل من ذلك الوقت فصاعدا تحت

السيطرة البر بورية ليتقدم العثمانيون في القرن الرابع عشر ليفرضوا على هذه البلاد المتروكة الواقعة على تخوم الدول المسيحية الغربية حضارة غربية عليهم ذات أضرار أقل.

وعلى ذلك فإن تيمور هدم ما قام به شخصية من تحرير وطنه زيادة على خسارته أرض ميعاده. ولكن أعظم أعماله الهدامة ارتكبها ضد نفسه. إذ أنه نجح في تخليد اسمه. وكان الثمن الذي دفعه لذلك هو أن محا من عقول الأجيال التي خلفته كل ذكرى للأعمال التي يمكن أن يذكر بها بالخير. فكم من الناس سواء في البلاد المسيحية أو البلاد الإسلامية يثير اسم تيمور في مخيلتهم صورة بطل من أبطال المدنية ضد البربرية، قاد رجال الدين والشعب في مملكته إلى نصر باهظ الثمن بعد أن انتهى من كفاح من أجل الاستقلال استمر تسعة عشر عاما ؟ إن اسم تيمور لنك بالنسبة للغالبية العظمى لأولئك الذين يعنيهم هذا الاسم بأية حال يثير لديهم ذكريات محارب اقترف من الفظائع في خلال أربعة وعشرين عاما ما يعادل ما اقترفته سلسلة من الملوك الأشوريين من تيغلا تبصر إلى أشور بانيبال في خلال قرن من الزمان.

إننا نذكر الوحش الذي سوى اصفرايين بالأرض عام ١٣٨١، و بى من ألفي أسير ربوة حية غطاها بغطاء من آجر في سابزاوار – عام ١٣٨٣، وكوم خمسة آلاف رأس بشرية إلى أكوام على شكل مآذن في زيريه في السنة نفسها، وفي سنة ١٣٨٦ ألتق بأسراه في ليوي أحياء في هوة من فوق الصخور العالية، وفي سنة ١٣٨٧ ذبح سبعين ألف نفس في أصفهان و اتخذ من رءوس القتلى أكواماً على شكل مآذن. وقتل

مائة ألف أسير في دلهي سنة ١٢٩٨.

وفي سنة ١٤٠٠ دفن أربعة آلاف الجندي أحياء في حصن سيواس بعد استسلامهم ؛ وفي سنة ١٤٠٠، ١٤٠١ بني عشرين برجا من الجماجم البشرية في سوريا، وتصرف مع بغداد في سنة ١٤٠١ التصرف نفسه الذي تصرف به مع أصفهان قبل ذلك بأربعة عشر عاما. وقد جعل تيمور نفسه ملعونا في نفوس الذين يذكرونه مثل هذه الأعمال كغول من غيلان السهوب – من أمثال كنجيز خان وأتيلا وما شابهم – تلك السهوب التي قضى تيمور النصف الأحسن من حياته في شن حرب دينية ضدها. إن جنون العظمة الذي يتصف بالخبل للمجنون الذي يسفك الدماء ولا تخامره إلا فكرة واحدة فقط ألا وهي أن يجعل قوته الحربية تنطبع في أفكار الناس، وذلك باستعمالها استعمالا سينا مقوتا، يصوره لنا تصوير ارائها الشاعر الإنجليزي مارلو في الإطراءات التي وص فها على لسان بطله تامبر لين (١).

إني لأقيد آلهة الأقدار (٢) تقييدا محكما بأغلال من حديد.

وبيدي أدير عجلة الحظ.

وإنه لأفضل أن تهوى الشمس من فلكها.

من أن يقتل تامبرلين أو يقهر.

---

(١) تيمور

(٢) ثلاثة من الآلهة الإنات كان مفروضا أن يتحكمن في مصائر البشر وهن : جلوثو التي تغزل خيوط الحياة، ولاكوسيس التي تقدر أعمارها، واتروبوس التي تقطع هذه الخيوط.

إن إله الحرب تخلى عن مكانه لي.

قاصدا أن يجعلني قائد العالم.

إن يوبيتر [١]، إذا أبصرني في لمتى يشحب لونه ويصفر.

خشية أن تنتزعه قوتى من عرشه.

حيثما ذهبت تسبقني آلهة الأقدار التي تكد حتى تتصبب عرقا تجرى هنا وهناك ناشرة الملاك المريع لتظهر الولاء الدائم لسيفي إن ملايينا من الأنفس تقف على ضفاف نهر ستيكس [٢] منتظرة عودة فرى[٣] خارون [٤].

إن النار والجنة تزخران بأرواح الناس

التي بعثت بها في مختلف المعارك الحربية

لتذيع شهرتي في الجحيم والجنة.

ولم أول ملكا لملوك العالم.

ولم يتوجني يو بيتر وينصبني.

لأعمال الخير والنبل.

---

(١) أبو الآلهة وهي كلمة مجتمعية.

(٢) أحد أنهار الجحيم.

(٣) القارب النهري (كلمة بجمعيه).

(٤) ملاح الفري الذي يحمل أرواح الموتى إلى الجحيم على حسب الأساطير الإغريقية.

(المترجم)

ولكن حيث إني أتمتع باسم أعظم.

سوط الله ومرهب العالم.

يجب أن أؤهل نفسي لأصلح لهذه الألقاب.

حربا ودما وهلاكا وقسوة.

سأظل رعب العالم.

جاعلا الشهب التي ترى منطلقة فوق أبراج السماء.

كأنها رجال مسلحون.

تجرى في ذاك السماء مرسلة طعناتها هنا وهناك.

مكسرة رماحها الملتهبة في الهواء.

احتفاء بانصاراتي العجيبة.

وقد لاحظنا أثناء تحليلنا لمجرى حياة كل من تيمور و شارلمان وملوك أشور من تيغلا تبلاصر لأشور بانيبال نفس الظاهرة بعينها في الأحوال الثلاث جميعها. إن الإقدام الحربي الذي ينمية مجتمع بين حماة ذماره للدفاع ضد الأعداء الأجانب يتحور تحورا فاسدا إلى داء يتحكم في العواطف ألا وهو داء النزعة الحربية، وذلك عندما يتحول عن ميدانه الصحيح، وهو المنطقة الحرام فيما وراء الحدود، ويتجه ضد إخوة أولئك الحماة أنفسهم داخل بلاد تنحصر مهمة أو تلك الحياة في حمايتها لا تدميرها وإنه لمن الميسور أن يطرأ على مخيلتنا أمثلة أخرى

عديدة لهذا الشر الاجتماعي المدمر.

ستطرأ على مخيلتنا ميرشيا وهي تنقلب ضد الدويلات التي تخلفت عن الإمبراطورية الرومانية في بريطانيا بأسلحتها التي شحذتها من قبل في تأدية مهمتها الأصلية وهي الزحف الإنجليزي ضد ويلن. كما يبرز إلى مخيلتنا أيضا المملكة البلانتا جينيتية [١] في إنجلترا وهي تحاول في حرب المائة عام التغلب على أختها المملكة الفرنسية بدلا من توجيه اهتمامها إلى مهمتها الأصلية وهي توسيع حدود الأم المشتركة – البلاد المسيحية اللاتينية – على حساب الحدود الكلية. ويبرز إلى مخيلتنا أيضا ملك صقلية النورماندى، روجر، وهو يوجه قواه الحربية لتوسيع رقعة ممتلكاته في وسط إيطاليا – على احتساب الدوقيات اللومباردية الجنوبية والإمبراطورية الرومانية المقدسة والولايات البابوية – بدلا من تكريس نفسه الاستمرار في العمل الذي قام به أسلافه وهو توسيع حدود البلاد المسيحية الغربية في إقليم البحر الأبيض المتوسط على حساب البلاد المسيحية الأرثوذكسية والبلاد الإسلامية. وفي بلاد المكسيك ترى الأزتيك المدينين للتولتيك بتلقي الحضارة المكسيكية عنهم يشنون الحرب عليهم ويقهر ونهم، وذلك بدلا من تكريس أنفسهم لمتهم الصحيحة وهي حماية الحدود الشمالية ضد الكيكيميك القادمين من البراري. وفي بلاد الأنديز نرى الأنكا يحولون قواهم لإخضاع جيرانهم، الذين يقطنون الأراضي المنخفضة في السهول الساحلية، وجيرانهم الذين يقطنون المرتفعات في إكوادور الذين كانوا شركاء لهم في تراث المدنية

(١) الأسرة الملكية التي حكمت إنجلترا من ١٩٥٤ – ١٤٨٥م (المترجم)

الأنديزية وذلك على الرغم من أنهم أحرزوا تقدما قليلا ضد الأمزونيين المتوحشين الخطرين، أو ضد أقوام جنوب شيلى والبمبس البدائيين الذين أمنا وزا بيسالتهم، أولئك الذين كانت مهمتهم الأصلية إيقاف تيارهم. وعلى هذا المط فإن الطلائع المايسينية [1] للبدنية المنوا قية على أراضي القارة الأوربية، أساءت استعمال بسالتها بانقلابهاو تمزيقها كرمت، وطنهم الأم. والمقدونيون و الرومان، الذين كانت مهمتهم في العالم الهيليني أن يكونوا حماة لحدوده ضد هؤلاء البرابرة أنفسهم، ارتكبوا نفس الجريمة التي ارتكبها المايسينيون، حينما اشتبكوا في نزاع مع جيرانهم، وفي النهاية اشتركوا في صراع مع بعضهم البعض من أجل الحصول على غنيمة زعامة العام الميليني عامة، تلك الزعامة التي كانوا لا يستندون في طلبها إلى سند شرعى. وفي العالم الصيني لعب تسين الدور الذي لعبته روما، وهو الزحف غربا ضد رجال مرتفعات شنسى و شانسى المتبربرين وضد أقوام سهوب أوراسيا الرحل، حينما تقدم امراؤها إلى ساحة الصراع التي أوجدتها المنازعات الداخلية، وهناك في النهاية وجه تسين الضربة القاصمة في هذا الصراع بين الولايات المتنازعة.

والاندفاع الحربي الجنوبي البارع في الديار المصرية في ذلك القسم من وادي النيل الذي يقع أسفل الشلال الأول مباشرة كان من شأنه تدريب الجيش على فنون القتال عندما قام بالواجب المفروض عليه ألا وهو صد البرابرة النوبيين في أعالي الهر، وذلك لكي يدير وجهه إلى الناحية الأخرى، ويوجه جيوشه أسفل النهر ضد الجماعات المصرية في

(1) الإغريقية فيها قبل الهيلينية.

الداخل، مستغلا تفوقه الحربي، لينشئ المملكة المتحدة ذات التاجين. وهذا العمل الحربي، الذي كان في الوقت نفسه من صنع يد المدنية المصرية وتشويها لها، صورة مقترنة بالصراحة التامة التي يمليها شعور الرضاء عن الذات في سجل من أقدم السجلات المصرية التي وصلت إلى أيدي علماء آثارنا في العصر الحديث. إن لوحة نارمر تصور الرجوع الظافر للسيد الحربي لمصر العليا من غزو مصر السفلي، منتفخ الأوداج في قامة قدسية، ويسير الملك الغازى خلف طابور يتبختر من حملة الرايات في اتجاه صف مزدوج من جثث العدو المقطوعة الرأس، فبينما نجده يطأ في الجزء الأسفل من اللوحة، متمثلا في صورة ثور، على عدد سقط قتيلا، ويقوض أسوار مدينة محصنة. ومن المعتقد أن الكتابة التي تتضمنها هذه اللوحة تحصي عدد الأسلاب مائة وعشرين ألف أسير، وأربعمائة ألف ثور، ومليون وأربعمائة واثنين وعشرين ألف رأس من الغنم والماعز.

وفي هذه القطعة الفنية التي تركتها لنا مصر القديمة والتي تتمثل فيها مأساة النزعة الحربية بأكملها كما مثلت مرة تلو المرة وكرة تلو الكرة منذ عصر نارمر على يد أشخاص من أمثال سنحاريب وتيمور لنك وشارلمان ظهروا على مسارح عديد من المدنيات المختلفة و من أمثال محاربينا في العالم الحديث. وربما كان أشد تمثيل لهذه المأساة إيلاما في سياق تمثيلها، الذي استمر حوالي ستة آلاف عام إلى وقتنا هـ ذا، هو ما اقترفته أثينا. حينما حولت نفسها من محررة لبلاد الإغريق إلى مدينة طاغية إساءة استعمال قوتها البحرية للجور على حلفائها الإغريقيين

الذين كانوا يستظلون برايتها، تلك القوة البحرية التي تسلحت بها قبل ذلك بوقت قصير جدا لتنقذ نفسها – وتنقذ جميع بلاد الإغريق بعملها هذا – من اعتداء الفرس. إن هذا الانحراف الأثيني جلب على جميع بلاد الإغريق، كما جلب على أثينا نفسها، الكارثة التي حدثت في المدة بين ٤٣١ – ٤٠٤ ق. م، تلك الكارثة التي لم تفق منها أبدا. وإذا كانت مدينة مسلحة مثل أثينا استسلمت لخطأ فاحش مثل هذا له مثل هذه النتائج المملكة، فهل في استطاعة أية من الدول الحربية والبحرية في عالمنا العربي الحديث، التي تتفوق على أثينا في الأسلحة بدرجة واضحة كما تقصر عنها في الفنون، أن تتأكد من المحافظة على نزاهتها الخلقية؟

وفي جميع الأمثلة، التي كنا نعيدها من برهة قصيرة إلى ذاكرتنا في استعراض سطحى، نجد أن النزعة الانتحارية للروح الحربية تظهر بوضوح كما ظهرت في الحالات القديمة الثلاث التي عالجناها بإسهاب أطول، وتبدو هذه النزعة الانتحارية بصورة مدهشة للغاية حيث نجد أن تغيير الجهة الملك ليس مدمرا في آثاره فيسب، بل يتصادف أيضا أن يكون إنشائيا كذلك. إن تحول الجيوش الأثينية و المقدونية من الحدود الخارجية إلى داخلية بلاد الإغريق كان مدمرا للإغريق، مع أن الغزاة الأثينيين والمقدونيين كانوا يقومون بما من شأنه أن يؤدي إلى تزويد المجتمع الإغريقي بالنظام العالمي السياسي الذي كان المجتمع الإغريق في ذلك الوقت في حاجة إليه. إن تغييرات الجبهة المماثلة، التي قامت بها روما وتسين والأنكا كانت كذلك مدمرة للمجتمعات كل منهم، على

الرغم من الحقيقة التي تتلخص في أن الغزاة في كل من هذه الحالات نجحوا نجاحا أكيدا نتيجة لانتصار نزعتهم العسكرية في تقديم إمبراطورية لمجتمعهم. كما أن التغيير، الذي أحدثه نارمر في الجهة من أعلى النهر إلى أسفل النهر في وادي النيل، كان له تأثير سيء على مستقبل مجرى التاريخ المصري، مع أن نتيجته كانت إنشاء المملكة المتحدة. إننا نجد في لوحة نار مر أول دليل على تلك النزعة في الخلق المصري التي أوقفت في وقت جد ميكر ازدهار المدنية المصرية. إن فلاحى مصر السفلى، الذين قتلهم نار مر أو أمرهم، كانوا أولئك البشر الذين حولهم بناة الأهرام إلى قرة بشرية معجزة.

إن الميدان الحربي، الذي استقصيناه في هذا الفصل، ينير أمامنا السبيل لدراسة السلسلة المدمرة ذات الحلقات الثلاث الامتلاء، و الاعتداء و « الكارثة،، وذلك لأن المهارة الحربية والإقدام آلة قاطعة من شأنها أن تصيب أولئك الذين يتجاسرون على استعمالها بخطوب داهية إذا حدث أن تخلل استعمالها حتى أبسط الرعونة أو سوء التقدير. حينما يسيء فرد أو حكومة أو مجتمع فهم حدود الميدان الذي يمكن أن تستعمل فيه قوته استعمالا مثمرا، أو يخطئ الحكم ع لى طبيعة الأهداف، التي من الممكن أن يحصل عليها بها، فإن العواقب الفادحة لهذا الانحراف من المحتمل ألا تفشل في جعل نفسها واضحة للعيان نتيجة لخطورة عواقبها الفعلية. ولكن ما ينطبق انطباقا ملموسا على الأعمال الحربية ينطبق أيضا على نواحى النشاط البشرية الأخرى في ميدان أقل خطورة، حيث يكون الفتيل الذي يؤدي من الامتلاء إلى

الاعتداء إلى الكارثة ليس شديد الانفجار بمثل هذه الدرجة. ومهما يكن من شأن الطاقة البشرية أو من الميدان الذي تباشر فيه، فإن الفرض القائل بأنه من حيث إنه ثبت أن هذه الطاقة البشرية إنما هي ند لإنجاز عمل محدود في نطاق ميدانها الصحيح، فإنها لذلك قد يعتمد عليها في الحصول على إحدى الغايات المتطرفة في ظروف ذات اتجاه مخالف، إنما هو فرض ليس قط إلا انحرافا عقليا وأخلاقيا، ولا يؤدي أبدا إلا إلى كارثة محققة.

الفصل السادس

نشوة النصر

إن نشوة النصر هي إحدى الصور الأكثر شيوعا التي تبدى فيها مأساة "الامتلاء" "والاعتداء" و "الكارثة" نفسها، وذلك سواء كان الصراع الذي يؤدي إلى كسب الغنيمة الوبيلة صراع جيوش أو صراعا بين قوى روحية، إن كلتا الصورتين المتباينتين لهذه التمثيلية يمكن أن يوضحه لنا تاريخ روما، نشوة نصر حربي ابتدأ بسقوط الجمهورية في القرن الثاني ق.م. و نشوة نصر روحى ابتدأ بانهيار البابوية في القرن الثالث عشر الميلادي.

إن الفساد الأخلاق الذي ارتمت في أحضانه الطبقة الحاكمة في الجمهورية الرومانية بعد انتهاء نصف قرن من حرب ضروس امتدت من عام ٢٢٠ ق.م. حتى ١٦٨ ق.م. تلك الحرب التي ابتدأت بالتجربة المروعة للحرب الهانيبالية، وانتهت بفتح روما للعالم، وصفه ناقد إغريقي معاصر تصادف أن كان أحد ضحاياه وصفاً لاذعا.

"إن أول ثمرة من ثمار الصداقة بين بوليمبوس وسيبيو ايميليانوس كانت اندفاعا قويا نحو أمور أسمي استحوذت على كليهما فيها رغبة شديدة في اكتساب امتياز أخلاقي وفي التنافس في هذا الميدان مع معاصريهم بدرجة تظهر تفوقهما. إن الجائزة الكبيرة التي عقدا عليها العزم

كان من الصعوبة الحصول عليها في الظروف العادية، ولكن لسوء الحظ كان مستوى المنافسة في روما في ذلك الجيل منخفضا نظرا للانحلال الحلقي العام للمجتمع. إن البعض كانت النساء أكبر همه، وكان آخرون يوجهون جل همهم للعادة السرية، وكثيرون كانوا ينغمسون في الحفلات والشراب وكل الحماقات التي تهيؤها الحفلات والشراب. إن هذه الرذائل هي الرذائل التي استسلم لها الإغريق وانتقلت علتها إلى الرومان فورا أثناء الحرب الرومانية المقدونية الثالثة. إن الهيام بهذه الرذائل كان هياما جامحا لا ضابط له بدرجة أن كان من الشائع للغاية أن يشتري الإنسان خليلا بطالن (١) ودنا من الكافيار بثلاثمائة دراخما (٢). وهذا السلوك هو الذي أدى بماركوس كاتو أن يصرخ في خطاب عام صرخة حانقة متعجبا من أن الانحلال الخلقي للمجتمع الروماني قد افتضح أمره بدرجة بادية للعيان من مجرد الحقيقة التي تتمثل في أن ثمن الصبيان الرشقاء أغلى من ثمن الأرض وثمن أدنان الكافيار أغلى من ثمن الماشية. وإذا سئلنا لماذا اشتعل أوار هذا المرض الاجتماعي في هذا الوقت بالذات ؟ ففى استطاعتنا أن نذكر مبررين إجابة عن هذا : أولهما أنه بسقوط المملكة المقدونية، شعر الرومان أنهم لم يصبح أمامهم دولة في العالم في استطاعتها أن تتحدى سيادتهم. أما السبب الثاني فكان ينحصر في أن التباهى المادي في الحياة الرومانية الخاصة منها والعامة

---

(١) عملة رومانية (المترجم)

(٢) درهم إغريقي (المترجم)

قد علا علوا كبيرة من جراء نقل ممتلكات مقدونيا إلى روما [1].

كان هذا هو المأزق الأخلاقي الذي دفعت إليه الطبقة الحاكمة الرومانية بالنصر الكاسح الذي هبط على الجمهورية بعد أعوام من الآلام كانت تترنح فيها على حافة الهاوية. إن أول رد فعل أحدثه هذا النصر في الجيل الذي عاش هذه التجربة المبللة للأفكار وتشمل في فرض لا أساس له من أن القوة المادية للمنتصر التي لا تقاوم هي المفتاح الذي يمكن به حل جميع المشاكل البشرية، وأن الغاية الوحيدة التي يمكن للإنسان أن يفكر فيها إنما هي استمتاع لا ضابط له بأعظم الملذات التي يمكن لهذه القوة أن تضعها في قبضة يده. إن المنتصرين لم يدركوا أن هذه الحالة العقلية نفسها كانت شاهدا على الهزيمة الأخلاقية التي نجح القائد المغلوب حربيا، هانيبال، في إيقاعها بهم. إنهم لم يلاحظوا أن العالم الذي اعتبروا أنفسهم منتصرين فيه كان عالما مخربا. وأن جمهوريتهم الرومانية نفسها المنتشرة ظاهرا كانت أعظم الدول المصابة بين الدول المنهوكة جميعا التي كانت تتكون منها تلك الدنيا الخربة. لقد تخبطوا في هذا الانحراف الخلقي في تيه لأكثر من مائة عام، وفي هذا القرن أو قعوا مصيبة إثر أخرى بعالم وضعه نصرهم تحت رحمتهم، وكان أدهى هذه الخطوب هو الخطب الذي أصابهم.

وحتى في عملتهم الحربية التي كانت العملة المختارة لدهم سرعان ما أصبح إفلاسهم واضحا للعيان. إن الانتصارات الرومانية التي أحرزوها

---

(1) بوليبيوس Polypius في الجزء الواحد والعشرين من كتابه التاريخ المام، الفصل الخامس والعشرون

بعد عناء على هانيبال و بير سيوس تلتها سلسلة من التقهقرات المذلة على أيدي أعداء كانت تتفوق عليهم روما تفوقا تاما في القوة الحربية : القرطاجنيين المهزومين المنزوعى السلاح، المجردين تقريبا من وسائل الدفاع الذين قضت علهم الحكومة الرومانية دون اكتراث بالإبادة سنة ١٤٩ ق.م، والنومانتيين البرابرة الذين تحدوا كل المجهودات الرومانية لإخضاعهم من ١٥٣ إلى ١٣٣ ق.م، والشرقيين المنفيين المستبعدين الذين شقوا عصا الطاعة في المستعمرات الصقلية عام ١٣٥ و ١٠٤ ق م، والمجلدين المتمردين الذين أخذوا تحت قيادة سبارتا كوس يحوسون خلال إيطاليا جهارا من سنة ٧٣ إلى سنة ٧١ ق. م كما فعل هانيبال من قبل من سنة ٢١٨ إلى سنة ٢١١ ق.م، وأبناء الشمس الذين وضعوا ثقتهم في أرستونيكوس البرجامومى وصمدوا أمام قوة روما ثلاثة أعوام من سنة ١٣٣ – ١٣٠ ق.م مندفعين بقوة اعتقادهم في قدوم عهد جديد، والأميرين الوطنيين الثائرين جيوجورتا وميتراداتيس اللذين تخلا عن الولاء لروما وأنها قوى سددتهما التي انتهكت حرمتها للدرجة القصوى قبل أن تنجح في مناقشتهما الحساب.

لقد كان السبب الذي من أجله لطخت روما نفسها بعار حربي غداة حصولها على نصر حربي هو أنه خلال هذا القرن كأن ضباطها يتولون قيادة جنود لم يعد أمامهم شيء ليكتسبوه بنصر ضد عدو لم يعد هو الآخر أمامه شيء ليأمله من وراء إلقاء سلاحه. إن تجنيد الفلاحين الإيطاليين وإخضاع البرارة والشرقيين أصبح كلاهما عندئذ يستغل استغلالا لا شفقة فيه من أجل الربح المالي للطبقة الرومانية الحاكمة. إن

ثروة المستعمرات الرومانية و قوى سكانها الآدميين كانتا تستنفدان من أجل تزويد رجال الأعمال الرومانيين بصفقات تجارية مريحة، وتزويد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني بالقوة البشرية للعمل في مرانى مواشيهم ومزارعهم، و تلك الأرض، التي كانت تزود بهؤلاء العمال المسخرين الأجانب للإكثار من ثروات طبقة كانت ذات شراء من قبل، كانت أرضا إيطالية وضعت تحت تصرف هؤلاء الرأسماليين نتيجة لإفقار ملاكها الفلاحين السابقين وتجريدهم منها. إن نواة الضياع الكبرى التي خربت إيطاليا كانت المنطقة المدمرة في الجنوب التي أصبحت منافع عامة نتيجة للحرب الهانيبالية، وقد استولت الحكومة على جزء منها عقابا لانحياز الملاك الأصليين إلى معسكر الغزاة، وجزء لمجرد اختفاء ملاكها الأصليين. وكان في استطاعة الطبقة الجديدة من المزارعين و مربي الماشية أن يوسعوا بعد ذلك رقعة ممتلكاتهم بشراء العقارات التي كانت تعرض للبيع حينما كان يجند ملاكها ويظلون تحت السلاح أعواما متصلة في ميدان بعيد من ميدان حرب طويلة المدى على الحدود الغربية للولايتين الأسبانيتين أو على الحدود الشمالية لولاية مقدونيا.

إن رعايا ومواطني الجمهورية الرومانية في هذا العصر كانوا أمثالهم ضحايا طبقة حاكمة رومانية سابقة حولتها نشوة النصر إلى عصابة من اللصوص. وفي عام ١٠٤ ق.م. حينما ساد البلاد الهيلينية بأجمعها الرعب من الخطر العام للتهود البربري المندفع نحوهم من أوربا الشمالية، أمكن ملك بيتينيا التي كانت رسمية ولاية صديقة تحت الحماية الرومانية أن يجيب بسخرية لاذعة، حينما قدم إليه المندوب

السامي للحكومة الرومانية طلبا الإعداد فصيلة من الجنود، أن معظم رعاياه قد اختطفهم جباة الضرائب الرومان، وأنهم كانوا يعيشون حينئذ في عبودية في ولايات تحت الإدارة الرومانية. وفي سنة ١٣٣ ق.م. كان في استطاعة شاب أرستقراطى رومانى ثاقب الفكر حاول القيام بإصلاح اجتماعى محدثا بذلك ثورة على حين غرة، أن يعلن دون أن يناقضه أحد.

(إن الحيوانات المتوحشة التي تهيم في إيطاليا لها أوجار، وكل منها له عرينه ومأواه، ولكن الرجال الذين يحاربون ويموتون في سبيل إيطاليا ليس لهم من حظ أو نصيب في أي شيء إلا الهواء وضوء الشمس. إن هؤلاء يذهبون إلى ساحات الحروب ويضحون بأرواحهم من أجل ثراه أناس آخرين وتر فهم. إنهم يسمون سادة العالم، وليس في حوزتهم قطعة أرض واحدة يمكن القول بأنها ملك لهم)

إن الرفض الحربي لنبلاء تيبير يوس جراكوس حينما طلب معونتهم في البحث عن علاج للظالم التي أثقلت كاهل طبقة الفلاحين الرومان تسبب في ثورة تطورت إلى حرب أهلية. وإن أعمال العنف الانتحارية التي أطلق لها العنان في قلب بمجموعة الدول الرومانية بقتل مريد الإصلاح عام ١٣٣ ق.م. لم يكبح جماحها فقط إلا بأقامة عصر السلام الأوغسطى سنة ٣١ ق.م. بعد معركة أكتيوم.

ولم يكن السلام الأوغسطى فاتحة عهد ذهبى ولكنه كان عهد رخاء وصفاء قصير المدى. إن الأضرار التي ألحقتها من قبل الاعتداءات

الرومانية بروما نفسها و بالمجتمع الهيليني بأجمعه كانت ما لا يمكن إصلاحه. وكان أقصى ما في طوق آلهة الأقلية الحاكمة منحه لآخر أحظيائها مهلة لا خلاصا، وحتى هذه المهلة لم تفض إلى فائدة رعايا هذه الآلهة ذوي النفوس الخاوية بل إلى فائدة جيل جديد، جيل قادم تطلعت عيناه إلى أفق بعيد، وأعتقد في قوة مخلص من نوع آخر إن حركة الطبقة العاملة الانفصالية هو الحدث الذي استعصى على العلاج الذي وقع في البلاد الهيلينية بين عصر بوليدروس وعصر فيرجيل، والحدث الذي تبع هذا بين عصر فيرجيل وعصر ماركوس أوريليوس وشق طريقه دون هوادة كان ازدهار بذور نظام اجتماعى جديد وسط هذه الطبقة العاملة.

إن التذمر المادي الذي حاول جراكوس أن يعالجه بعمل سياسى أصلح في النهاية بطريقة فاسدة معادية للاشتراكية، حينما طردت سلسلة من قواد الحرب الثائرين ابتداء من سولا إلى أوغسطوس نفسه جورا من الأرض سلالة أولئك الفلاحين الإيطاليين الذين نجحوا من قبل في بقائهم متمسكين بالأرض، وذلك لكي يوجدوا إقطاعيات لسلالة إخوانهم الذين اقتلعوا من أرضهم، أولئك الذين ظلوا من عهد بعيد غير قادرين عمليا على العودة للأرض بعد أن أجبروا أعواما متصلة أن يجملوا المعسكر دارهم والسيف مصدر حياتهم. إن مسخ العلاج الجدي الذي انتواه جراكوس كان أشد سوءا حتى من علة وجود طبقة من العمال المواطنين مقتلعين من أراضيهم ومدربين تدريبا عسكريا. إن هذا المسخ وجه الضربة القاضية للزراعة الإيطالية. ولكن في اللحظة التي كانت فيها

مشاكل إيطاليا الاجتماعية تفسد كل مناورات رجال السياسة الرومانية تماما نجد أن مثل "الحيوانات البرية" و "الأوجار" و "الأوكار" الذي استشهد به مرة تيبير يوس جراكوس مجازيا في خطاب سياسى كنور كشاف ليظهر ظلما اجتماعية، استعمله ني في الشام لتوضيح حقيقة أخرى أشد عمقا، ذلك النبي الذي لم يحدث أثرا في أفكار السلطات الرومانية في ذلك العصر (حتى حينما سنحت لهم المناسبة، طبقا لعملهم الإداري الرتيب أن يعدموه) [١]. إن المسيح حينما أخذ على عاتقه الآلام التي يعانيها الفلاحون الجليليون الذين نهيتهم نفس اليد السالبة التي اغتصبت حقوق فلاحى آجر ما نقيانوس، وحينما قال للكاتب (للثعالب أو جرة ولطيور السماء أوكار – أما أين الإنسان فليس له أين يسند رأسه) [٢] إنما كان يستعمل الصيغة التي استعملها جراكوس، وذلك لكي يجعل الدهماء يفهمون أن سلب أمتعتهم المادية بالإكراه لم يكن مبررة للثورة أو أعمال الانتقام، أو حتى قد لا يكون مبررة للإصلاحات السياسية، ولكنه في الحقيقة نعمة عظمى في ثوب نقمة لأنه مصدر لا ريب فيه من مصادر الثروة الروحية.

"طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض.

طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السماء [٣] ".

ونشوة النصر التي أدت بالطبقة الحاكمة الرومانية إلى الهلاك بعد

---

(١) هذا رأي الكاتب ومسألة إعدامه يختلف فيها المسلمون مع المسيحيين.

(٢) متى الإصحاح الثامن عدد ٢٠

(٣) متى الإصحاح الخامس عدد ٥، ١٠ (المترجم)

فتح البلاد الهيلينية في نصف القرن المنتهي بموقعة بيدنا كانت أيضا هي السبب ولكن بدرجة أقل، في دمار الأسبانيين والبرتغاليين بعد فتحهما للعالم الجديد في بدأ العصر الحديث لتاريخنا الغربي، وكانت أيضا هي السبب في دمار البريطانيين بعد فتحهم للبنغال وكندا في حرب السنين السبع.

إن الأسبان والبرتغال الذين حصلوا في سنة ١٤٩٣م على قرار من البابا يحسم النزاع بينهما بتقسيمه عالم ما وراء البحار كله بينهما كما لم يكن هناك مطالبون آخر في الميدان، رأوا احتكارهم هذا منتهكا حرمته خلال ما يقل عن قرن حينما استباح الهولنديون والإنجليز والفرنسيون الممتلكات الأسبانية في أمريكا والممتلكات البرتغالية في إفريقيا والهند والممتلكات البرتغالية و الأسبانية في الشرق الأقصى، بعد هزيمة الأرمادا الأسبانية.. إن نشوة الرواد الأيبيريين بعملهم الفريد – غرورهم الصلف لعلمهم بأنهم كما قال شاعرهم.

ركبنـــا البحـــر إقـــداما وحزنـــا غايـــة الســـبق
وهـــذا البحـــر فـــي صـــمت دعانـــا أول الحلـــق

كان الثغرة في درعهم التي وجه إليها منافسوهم الأوربيون النشطون البعيدو النظر طعناتهم المعجزة في نهاية القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر.

أما فيما يختص بالإنجليز فإن مواتاة الحظ لهم مواتاة مسرفة بدرجة غير عادية حينما أضفى عليهم بإحدى يديه كندا وباليد الأخرى وفي

الوقت نفسه البنغال أخرجتهم مؤقتا عن اعتدالهم، ذلك الاعتدال الذي مارسوه أثناء هذا و قبله. وفي سنة ١٧٦٣ بدا من الواضح أن مآل الإمبراطورية البريطانية إلى ابتلاع شمال أمريكا بأكمله وكذلك الهند بأجمعها. ولكن بعد ذلك بعشرين عاما فقدت بريطانيا النصف الأحسن لإحدى القارتين الصغيرتين وكانت في خطر وشيك من فقد الأخرى بأجمعها. إنه لحق أن حكم التاريخ قد برأ الآن السياسة البريطانية من تحمل المسئولية في تصدع الإمبراطورية البريطانية الأولى بأكملها. إن المؤرخين الأمريكيين بذلوا الكثير من الجهد حديثا، ليظهروا أن الحرب التي قامت بين الإخوة من سنة ١٧٧٥ إلى سنة ١٧٨٣ كانت الجريمة فيها مقسمة، وأن اسم هيستنجز لم يعد يبدو سيئا كما قصد به أن يبدو منذ قرن ونصف. وعلى الرغم من ذلك فالواقع أن الثلاث عشرة مستعمرة ما كانت ليفقدها التاج البريطاني لو أنه من سنة ١٧٦٣ إلى سنة ١٧٧٥ أبدى ناحيتها نفس التقدير والاعتبار اللذين أبداها تجاه كندا من عام ١٧٧٤ فصاعدا. وما كانت

بنغال ليحتفظ بها، وما كانت بالأولى قد تضخمت إلى إمبراطورية تشمل الهند كلها، لو لم يضع حدا لأعمال السلب التي كان يقوم بها موظفو شركة الهند الشرقية من كليف ووارن هيستنجز فما دون، أثناء الستة والعشرين عاما التي أعقبت نصرهم في موقعة بلاسي الذي نفخ أوداجهم، التشريع الهندي المبتسر لسنة ١٧٨٣، والتشريع الهندي الناجح لسنة ١٧٨٤، والمحاكمة التي قامت بها الدولة واستمرت وقتا طويلا من سنة ١٧٨٦ إلى سنة ١٨٩٥. ومهما كان من إخلاص كليف

في تعجبه من اعتداله، فإن حصيلته المحدودة من الفضيلة قد كان من شأنها بكل تأكيد أن تكلف مواطنيه أن يفقدوا بسرعة مستعمرة شرقية أكسبتهم إياها على حين غرة عدم استقامته المفرطة، وذلك لو لم يحاولوا جهدهم أن يحسنوا معايير كليف الأخلاقية تحت تأثير الكارثة الأمريكية التي أفاقتهم من سكرتهم.

الفصل السابع

جالوت وداود

إن الشيء المماثل في تاريخنا البشرى للمنافسة التي قامت في المملكة الحيوانية بين الحيوان الثدي الضعيف ذي الفروة الناعمة و بين الزواحف الضخمة المدرعة بالحراشيف هو الساجة [1] التي تمثلت في المبارزة التي حدثت بين داود وجالوت. وإذا اتخذنا هذا الصراع السوري الذي نقلته إلينا الأساطير كنقطة نبدأ منها، فإننا سنجد أن نفس التمثيلية قد مثلت وأعيد تمثيلها في سلسلة متصلة الحلقات من مباريات بين الأساليب الحربية القديمة الطراز والأساليب الحربية الحديثة الطراز.

وإن جالوت قبل يوم هلاكه الذي تحدى فيه جيوش إسرائيل نال انتصارات باهرة برمحه الذي تشبه قناته نول النساج ويزن رأسه ستمائة شاقل [2] من الحديد، ووجد نفسه محصنا تحصينا تاما ضد الأسلحة المعادية في لمته المكونة من الخوذة ودرع حرشفى ومزراق بين كتفيه وجرموق على رجليه لدرجة لم يعد يفكر معها في أي سلاح بديل، ويظن أنه بهذا التسليح منيع لا ينال. ولذلك فهو يتحدى عدوه في ذلك اليوم ليختار بطلا ليبارزه، على فرض أنه لو قدم أي بطل، فإنه سيكون أيضا

---

(1) الساجة (م) قصة شاعت في القرون الوسطى عن أعمال البطولة التي قام بها بملل أورماندي، ومن ثم فيكون معناها هنا قصة البطولة (المترجم)

(2) وزن عبرى (المترجم).

حامل رمح مسلحا من رأسه لقدمه، ومتأكد من أن أي إسرائيلي يجترى" على محاربة البطل الفلسطيني بنفس أسلحته سيكون فريسة سهلة له. إن هاتين الفكرتين كانتا قد استوليتا على عقل جالوت استيلاء تاما حتى أنه حينما رأى داود يهرول قادما لينازله بلا لة على جسده، و بلا شيء في يده يسترعى النظر غير عصا، داخلته الريبة، وبدلا من أن يستولي الفزع عليه عندما شاهد عدم استعداد عدوه البادى للعيان، صاح قائلا (ألعلى أنا كلب حتى تأتي إلى بعصا ؟) [١]. إن جالوت لم يداخله الشك أن سفاهة هذا الشاب ليست باحدى السخافات الصبيانية، بل إنها على العكس من ذلك مناورة مدروسة بعناية (فإن داود قد تحقق فعلا وبوضوح تام كما تحقق جالوت نفسه أنه لا يمكنه أن يأمل أن يكون ندا لجالوت في إهابه الحربي هذا. ومن ثم كان رفضه الدرع، الذي ألح شاول أن يلبسه إياه، بعد ارتدائه ليقيسه). كما أن جالوت لم يلاحظ المقلاع في يد داود التي كانت لا تمسك بالهراوة، ولم يدخل في باله أن الحذر قد يؤتى من مأمنه. ولذلك فإن هذا الدناصور الفلسطيني يتقدم إلى الأمام متبخترا بجلال و هيبة ليجعل من جبهته غير المقنعة هدفا لحجر المقطع الذي يقتله بضربة واحدة، وذلك قبل أن يكون عدوه الذي استخف به على مرمى رمحه الذي ظل حتى ذلك الوقت يحمل الهلاك بين دفتيه.

إن جالوت الجتي [٢] لم يكن أول جندي مدرع في تاريخ الحياة

([١]) العهد القديم صمويل الأول ١٧ (المترجم).

([٢]) كان جالوت من أهالى جت (المترجم).

على الأرض يسعى إلى مثل هذه الهزيمة المميتة ويستهدف لها، فإن دروعا أشد ثقلا بكثير من درعه تسلحت بها حيوانات وزواحف جبارة، حيوانات وزواحف كانت تشبه جنودا في كامل عدتهم الحربية، وذلك من قبل أن يظهر على وجه البسيطة حد جالوت البشري الأول.

أنظر إلى بارنيز.إ.د في كتابه العلم والدين يقول في ص٤٧٤ – ٤٧٥.

(كانت نشأة الأسلحة الوقائية سبيلا من سبل التطور المغوية التي تؤدي في النهاية دائما إلى الهلاك. إن الكائن الحي يمكنه أن يق نفسه بالاستخفاء، وبسرعة الهروب، و هجوم مضاد مجد، وبتضامنه مع غيره من أفراد فصيلته في الدفاع والهجوم وكذلك بتغليف نفسه بشرائح و أصلاب عظمية. وقد اتخذت الأسماك الأصدفية للعصر الديفوني بدروعها اللامعة الطريقة الأخيرة. إن بعض السحالي في العصر الميزوزوى [1] الأخير كانت مغلفة تغليفا محكما، إن بعض الثديات في العصر الثلنى وخاصة في أمريكا الجنوبية كانت كائنات هائلة ذات أشكال غريبة، وإن الإنسان ليدركه العجب حينها تدبر كم من الزمن استغرقت في تاريخها التطورى لكي تسلح نفسها هكذا. إن تجربة التسلح كانت تجربة فاشلة باستمرار. إن المخلوقات التي سلكت هذا السبيل كانت تميل إلى أن تكون مخلوقات سمجة صعبة المأخذ. كان عليها أن تتحرك ببطء نسبيا. ونتيجة لذلك اضطرت أن تعتمد في معيشتها غالبا على الغذاء

---

(1) العصر الحيواني الأوسط (المترجم)

النباتي، وعلى ذلك كانت كفتها عموما غير راجحة عند مقارنتها بأعدائها الذين كانوا يتغذون على غذاء حيواني أجدى وأسرع. إن الفشل المتكرر للتسلح الواقي يرينا أن العقل، حتى في مستوى تطوري منخفض نوعا ما، انتصر على المادة المجردة. وهذا النوع من النصر تمثل في أعلى درجاته في الإنسان)

ولقد تمثلت هذه الحقيقة في أعلى درجاتها في قصة البطولة التي رواها لنا التاريخ عن داود وجالوت، ولكن فوق أن هذه القصة الفريدة تلخص لجميع العصور حقيقة فلسفية أوضحها أيضا تاريخ المنافسة البشرية في التسلح الذي يتكشف لنا ببطء، فإنها في الوقت نفسه لحقيقة تاريخية أن البطل المدرع الفردي في الفترة التالية للعصر المينوى – جالوت الجتي أو هيكتور الطروادى – لم يستسلم أمام مقلاع داود أو قوس فيلوكتيتس بل أمام الفيلق ذى الجنود الذين يطيعون طاعة عمياء، هذا الفيلق الذي هو تنظيم حقيقي ضخم ينتظم جما غفيرا من جنود مدرعين متكاتفين تتراص خوذاتهم و دروعهم جنبا إلى جنب. وعلى الرغم من أن كل جندي من جنود الفيالق التي يتكون منها مجموع الجيش كان صورة طبق الأصل من أمثال هكتور وجالوت في إهابه الحرفي، إلا أنه كان نقيضا لجندي المشاة المسلح تسليحا ثقيلا في العصر الهومرى في روحه، إذ أن الميزة الهامة للفيلق ليست في تزويده بالرجال المسلحين الذين يتكون منهم، بل في النظام الذي كان من شأنه أن حول حشدا همجيا من محاربين فرادى إلى تكوينات عسكرية يمكنها بتحركاتها المنظمة أن تقوم بعشرة أضعاف المجهودات الغريبة التنسيق

لعدو مساو لها من أبطال فرادى مسلحين مثلها تسليحا جيدا.

إن الأساليب الفنية الحربية الجديدة، التي نجد في ثنايا الإلياذة بعض اللمحات التي تبشر بها، سجلت نفسها على مسرح التاريخ تسجيلا لا ريبة فيه في صورة فيلق إسبرطي سار على نغمات إيقاع الأشعار التيرتيسية إلى نصره الحربي في الحرب الإسبرطية الحسينية الثانية، ذلك النصر الذي أدى إلى كارثة اجتماعية ؛ ولكن نصمر هذا الفيلق الإسبرطي لم يكن نصرا حاسما. إنه بعد أن أزاح كل القوات التي كانت تواجه من الميدان، استسلم بدوره أمام تنظيمات حربية جديدة ؛ ومما هو ذو مغزى أن هزيمة الفيلق الإسبرطى إنما حدثت بمجرد أن أغرت الأحداث الإسبرطيين أن تراخوا و يستنيموا لمصيرهم نتيجة لانتصارهم في الحرب الأثينية البليبونيزية التي استمرت من عام ٤٣١ – ٤٠٤ ق.م، ذلك النصر الذي بدا أنه أتم السيادة الحربية الإسبرطية على بلاد الإغريق، كما توج النصر الذي أحرزته نفس التكتيكات الحربية الإسبرطية على المسينيين قبل ذلك بأكثر من مائتي عام. وفي خلال ثلاث وثلاثين سنة من الانهيار الأثيني في عام ٤٠٤ ق.م. نجد الفليق الإسبرطي المنتصر يزاح من الميدان بطريقة مخزية يحشد من الجنود الأثينيين المسلحين تسليحا خفيفا بتروس مكسوة بالجلد – مجموعة من أمثال داود الذين وجد فيلق الجالوتيين نفسه غير قادر على التكافؤ معهم. وذلك بوساطة طابور طيى كان عبارة عن تجديد تكتيكي تضمن تحسينات أدخلت على نظام الفيلق كان لها تأثير حاسم، وذلك بإدخال توزيع غير. متعادل في عمقه و ثقل تجمعه و كره، و بذلك أضاف عنصر

المفاجأة إلى الأهمية القديمة للنظام. ومع ذلك فإن الانتصارات المتابعة للأساليب الأثينية والطيبية كان من نتيجتها وضع نهاية الأساليب الحربية لكليهما بطريقة مؤكدة سريعة كما حدث مع الأساليب الإسبرطية ذاتها، إذ أن انتصارات كل منها على الفيلق الإسبرطي في عام ٣٩٠، ٣٧١ ق.م. قد في أثرها بضربة واحدة سنة ٣٣٨ ق.م. من تشكيل عسكرى مقدونى استكملت فيه قوة جنود المناوشة والجنود المدرعين استكمالا منوعا بقوات من الفرسان المدرعين بدروع ثقال ومكونين قوة حربية واحدة.

وإذا قسنا تفوق الفيالق المقدوني بأسلحته الخفيفة وسلاح فرسانه بصفته أداة حربية بما بين الفتوح الإسبرطية و الفتوح المقدونية من اختلاف في المدى، وجدنا أن الهوة بين الأسلوبين الحربيين كانت واسعة حقا، وذلك لأن الفيلق الإسبرطي إنما فتح الإغريق فحسب، ولكن الجيش المقدوني فتح كلا من الإغريق والإمبراطورية الفارسية القديمة. إن المقدونيين أذوا يتقدمون كما يريدون دون أن يقابلوا أي عدو كان في طوقه أن يقف فر و جم و ذلك من ضفاف نهر سيفيسيوس و يورو توس إلى ضفاف نهر حاجزيتس ونهر بياس. ولكن أكثر الشواهد دلالة على بسالة الأداة العربية المقدونية ليست القائمة الطويلة للقوى الحربية التي هزمها فيليب الثاني و إسكندر الأكبر الواحدة إثر الأخرى، ولكنه الاعتراف الذي أدلى به بعد المعركة قائد الجيش المقابل المعادي في معركة حاسمة وقعت بعد نصر فيليب الساحق في خير و نيا مائة وسبعين عاما.

" إن القنصل لوكيوس (أيميليوس بولوس) لم يرقط فيلقا في حياته

حتى قابل واحداً لأول مرة في الحرب الرومانية مع بيرسيوس، وحينما انتهى الأمر كله، أخذ يعترف جهارا لأصدقائه في وطنه أن الفيلق المقدونى كان أشد المناظر المخيفة المرعبة التي وقعت عليها عيناه. وهذا من جندي لم يشاهد فسب، ولكنه اشترك فعلا في عدد من المعارك أكثر من أي قائد في عصره [1]"

ومع ذلك في بيدنا عام ١٦٨ ق.م. لم تكن فيالق بيرسيوس هي التي خرجت منتصرة من المعركة، والإطراء الذي أوردناه آنفا للجيش المقدوني إنما يعتبر في نفس الوقت رثاء ألقاه فوق جثته قائد الجيش الروماني الذي وجه إليه الضربة القاضية. إن الجيش المقدوني في القرن الثاني قبل الميلاد كان قليل القدرة على منازلة الرومان كما كانت القوات المحاربة الطيبية والفارسية القديمة قليلة القدرة على منازلة جيش فيليب الثاني أو الإسكندر الأكبر المقدوني. وسبب هذا الانقلاب المثير للأوضاع في المصائر الحربية المقدونية هو التكالب على تكنيك قد شاخ كان قد اكتسح كل شيء أمامه خلال خمسة أجيال متعاقبة. إن انتصار مقدونيا الذي نالته بمشقة على أثينا وطبية الصغيرتين تبعه فتح ٥ين للإمبراطورية الفارسية القديمة الشاسعة الأركان، و بعد ذلك دب التراخي في الجنود المقدونيين واستناموا لمصيرهم كسادة لا منازع لهم للعالم المعمور الذي لم يخرج عن سلطانهم إلا أطرافه، بينما كان الرومان، فما وراء أفقهم الغربي، يحدثون ثورة في الفن الحربي استقوها من التجربة التي اكتسبوها من آلامهم في صراعهم الهائل مع هانيبال. إن

(1) بولييبوس – المجلد التاسع والعشرون – الفصل السابع عشر.

التفوق العظيم للآلة الحربية الرومانية في العصر الذي تلا عصر هانيبال فوق الآلة الحربية المقدونية العصر الذي تلا الإسكندر تجلى بصفة حاسمة في أول لقاء. وإن الفأل الذي استقى من مناوشة قوة الفرسان في إيلليريا سنة ٢٠٠ق.م. تحقق سنة ١٩٧ ق.م. في سينوسيفاليا وتأكد سنة ١٦٨ ق.م. في بيدنا.

إن الكتائب الرومانية انتصرت على الفيالق المقدونية لأنها خطت خطوة واسعة إلى الأمام في تكميل جندي المشاة الخفيف بجندي الفيلق المدرع الأمر الذي كان المقدونيون قد بدءوه. وفي النظام المقدوني كانت هذه التكملة تعتمد على تنسيق تام يهتم بالتوافه بين سلاحين على أقصى طرفي نقيض ممكن في عتادهما وتدربهما ومنعزلين مع ذلك فعلا عن بعضهما البعض في وحدات منفصلة. ولو تصادف أن فشل هذا التنسيق الحيوي بين الفيلق المقدوني و بين جنود المشاة الخفيفة في ميدان المعركة، فإن ذلك من شأنه تعرض أي السلاحين الخطر وضع نفسه تحت رحمة عدو أكبر ميزة منه، وذلك لمجرد سبب تخصصه الدقيق. إذن فكل شيء كان يتوقف على دقة التحركات العسكرية في الميدان طبقا للخطة الموضوعة وهذه الدقة اللازمة كان من الواضح استحالة ضماها. إن مثل هذه الكوارث الطبيعية الارتباك الذي ساد في سينوسيفاليا والهزيمة التي حاقت بالجيش المقدوني في بيدنا كانتا كافيتين من جراء ما تخلف عنهما من نتائج فادحة لتقطيع أوصال فرق جيش مقدوني عندما يكون العدو قوة محاربة لها من الكفاءة ما للجيش الروماني في العصر الذي تلا عصر هانيبال.

إن هذه الكفاية الرومانية كانت شيئا عفا عليه الزمن، وذلك لأنه في وسط إيطاليا في أطراف العالم الإغريق نجد جيشا فيلقيا من طراز قديم ينتمي إلى طراز العصر قبل المقدوني وفي الحقيقة قبل الطبي يشاهد، في الميدان في تاريخ يواقع تاريخ مواقعة كاناى [1] حينما طوق هانيبال من الخلف بقوات فرسانه الأسبانية والغالية الثقيلة قوات المشاة الرومانية الثقيلة التي كانت متأهبة للحرب بطريقة التكوين الفيلقي الإسبرطي العتيقة، وذبحها ذبح الماشية بقوات المشاة الإفريقية الثقيلة من كلا الجناحين. ولكن الرومان قد تعلموا من الدروس القاسية التي لقنهم إياها هزائم الحرب الهانيبالية المتكررة أن يدخلوا تحسيناً في طرق تنظم قوة المشاة، ذلك التحسين الذي حول الجيش الروماني دفعة واحدة من كونه أقل القوات المحاربة في البلاد الهيلينية في ذلك العصر كفاية إلى أعظمها كفاية، وذلك بتخلصه من أسباب الضعف الهامة في النظام المقدوني. وفي تلك السنين الابتكارية أبتكر الرومان نوعاً جديداً من التسلح ونوعا جديداً من التنظيم العسكري أصبح معه من الممكن لأي جندي معين أو أية وحدة معينة أن يقوم أي منهما بدور رجل المشاة الخفيف أو بدور الجندي المدرع بدروع ثقيلة، ويتحول من نوع من التكتيكات الحربية إلى نوع آخر في مواجهة العدو فور إبلاغه.

إن تفوق تكتيك قوة المشاة الرومانية لما بعد العصر الهانيبالى على التكتيك المقدوني الذي ظل جامدة لا يتحرك لأكثر من قرن قبل نشوب الحرب الرومانية المقدونية الثانية عام ١٠٠ ق.م. شرحه بوضوح

([1]) سنة ٢١٦ ق.م (المترجم)

بوليبيوس الباحث الأركادي بقوله :

(إن الفيلق بتنظيمه الفريد القوى كما يتضح بسهولة للعيان يمكن أن يعتمد عليه في اكتساح أية قوة عسكرية معادية تجرؤ أن تقاتله وجها لوجه. إن هجومه لا يمكن أن يقاوم.. فما هو إذن سر انتصار الرومان ؟ وما هو العيب الذي يجعل استخدام الفيلق يحمل الهزيمة في طياته ؟

يوجد هذا العيب في التنافر بين خاصية عدم التحديد – لكل من مواقع العمليات الحربية وطبيعة الأرض التي تجرى عليها هذه العمليات – التي هي من مستلزمات الحرب كفن عملي، وهين عدم مرونة الفيلق، تلك المرونة التي تمكنه عملية فحسب أن يظهر كفايته في موقف خاص واحد وعلى نوع خاص واحد من الأرض. وبلا شك في أي وقت يكون الأمر فيه أمر اشتباك حاسم ويكون العدو حينئذ مضطرة أن يتقبل الموقف والساحة التي يتصادف أن تلائم الفيلق، فمن المسلم به حينئذ أن استخدام الفيلق يحمل في طياته عاملا سحرية لنصر محقق. ولكن إذا كان من الممكن دائما كما هو في واقع الأمر – بل ومن الممكن بسهولة – للعدو ألا يتقبل المعركة على أساس هذه الشروط، ففي هذه الحالة ينتهى مفعول التشكيل الفيلقى الرهيب.

وفوق ذلك فإن من المسلم به أن الفيلق يتطلب أرضا مستوية واضحة المعالم خالية من أية عقبات مثل الخنادق والنتوءات والأخاديد والقنن الوعرة و الممرات المائية –– تلك العقبات التي من شأن أي منها أن تخل تحركاته و تقطع أوصال نظامه. وإنه لمن المسلم به من

الجميع أيضا أن ذلك النوع من أرض المعركة التي يتطلبها الفيلق – تلك الأرض الخالية من العقبات لامتداد ألفي باردة أو ما يربو على ذلك – من المستحيل تقريبا إيجادها أو هي على أية حال نادرة للغاية، أو حتى على فرض أنها وجدت، فمن الممكن دائما كما بينا أن يتفادى العدو خوض المعركة....

" أو، إذا قبل العدو المعركة مع الفيلق على أرض مستوية، فيمكنه دائما أن يضمن النصر بالاحتفاظ بجزء احتياطي من قوته، ويشتبك مع الفيلق بقية قواته فقط إلى أن يخلخل تكوين الفيلق ويجعله يكشف جناحيه، وبعد ذلك يلقي بقواته الاحتياطية ضد جناحي الفيلق أو مؤخرته، وذلك عندما لا تعد هذه مغطاة بقوة المشاة الخفيفة أو قوة الفرسان [١].

و بالاختصار فإن المواقع التي في صالح الفيلق يمكن للعدو بسهولة تفاديها، بينما لا يمكن للفيلق تفادي المواقع التي تؤثر تأثيرا ضارا به، وإذا كانت الوقائع كما ذكرتها وقائع حقيقية، فمن الواضح أن هذا يكون عقبة كأداء.

وزيادة على ذلك فإن الفيلق مثله مثل أية قوة أخرى عليه أن يسير عبر جميع أنواع الأراضي، ويعسكر، ويبكر عن العدو في احتلال المواقع الرئيسية، ويتم الحصارات، ويتعرض لها، ويواجه أزمات طارئة لم يحسب حسابا لها. إن كل هذه العمليات – التي هي جزء لا يتجزأ من الحرب – قد تكون ذات أثر فعال و قد تكون في بعض الأحيان حاسمة في تقرير

---

(١) القمامة التي بين قوسين مي تلخيص القطعة المقابلة لها في الأصل – توينبي

مصير المعركة. وإننا لنجد أن التنظيم العسكري المقدوني تنظم ينقصه الإتقان فيما يختص بمثل هذه العمليات كلها وفي بعض الأحيان يكون عديم الجدوى تماما، وذلك لأنه لا يسمح للجندي الفيلقي أن يظهر كفاءته سواء وهو في صفوف الجيش أو كفرد من الأفراد، ومن جهة أخرى فإن التنظيم الحربي الرومانى تنظيم مجد بالنسبة لكل هذه العمليات على حد سوى، وذلك لأن كل جندي روماني بمجرد أن يكون تحت السلاح يكون كذلك مؤهلا تأهيلا جيدا ليحارب في أي نوع من الأرض أو أي موقع أو أية أزمة طارئة. وليس هذا فيسب، بل إنه أيضا يكون في مجاله المناسب ويكون كذلك سيد الموقف سواء استدعى ليشترك في اشتباك عام أو في اشتباك جزئي، أو ليحارب جماعات أو فرادى، وإنه من الملاحظ أن الأداة الحربية الرومانية متفوقة تفوقا هائلا على منافسيها في قدرتها من جميع النواحي، ولذلك فإنه من الطبيعي فيسب أن يكون الرومان أكثر نجاحا بدرجة عظيمة من أعدائهم في نيل أهدافهم الحربية.

إن تعدد المزايا الذي كان الطابع المميز للنبوغ الحربي الروماني البالغ غاية الازدهار جعل عملية إكمال الفن والمناوشة بالفرق المدرعة عملية تامة غير ناقصة، وذلك لأن سرعه تحرك جندي المناوشة و قوة الجندي المدرع التي كانت لا تقاوم أصبحت الآن مجتمعتين في شخص كل جندي من جنود الجيش. وقد وصل الجيش الروماني إلى أقصى درجات الكفاءة التي كانت في حيز الإمكان لجنود المشاة قبل اختراع الأسلحة النارية، وذلك حينما اكتملت مميزاته في خلال الحروب الرومانية ضد البرابرة، والحروب الأهلية، وذلك بفضل سلسلة من القادة

العظام ابتداء من ماريوس حتى يوليوس قيصر، وذلك بعد أن بعث بعثا جديدا أيام هانيبال واستخدم استخداما ذا أثر مدمر ضد القوة العسكرية المقدونية العتيقة. ومع ذلك في نفس اللحظة التي أصبح فيها الجندي الروماني كاملا على حسب ما هيا ته اله طبيعته تلقى أول هزيمة من سلسلة هزائمه الطويلة على يد قوتين من الفرسان المسلحين ذوي أساليب حربية مختلفة اختلافا تاما – قوة الخيالة الخفيفة الرامية للسهام، وقوة الخيالة المزراقية المدرعة أو الفرسان، المدرعين اللتين أمكنهما بالتعاون فيما بينهما أن يجعلا القوة العسكرية الرومانية تتقهقر في ميدان القتال ويتبدد شملها. إن انتصار قوة الخيالة الخفيفة الرامية للسهام على الجندي الروماني في موقعه كارهاي عام ٥٣ ق. م. سبق بخمس سنوات الصراع الفريد لجيش ذي ألوية ضد جيش لوائي آخر في موقعة فارساليا عام ٤٨ ق. م. تلك المعركة التي كان فيها تكتيك قوة المشاة الرومانية على أرجيح الآراء في أوج عظمته. إن النذير الذي وجهته معركة كارهاى تأكد بعد ذلك بأكثر من أربعة قرون في أدرنة حيث وجهت فرق الفرسان المدرعة الضربة القاضية للجيش الروماني عام ٣٧٨ م.

إن كارثة أدرنة التي كانت النهاية المفجعة للتفوق الذي احتفظ به الجيش الروماني – ولو أن ذلك كان بصعوبة متزايدة – مدة تقرب من ستمائة عام، وصفها وصفا رائعا ضابط رومانى معاصر كان مؤرخا لاتينيا كذلك (١)

(في عشية هذه الكارثة كانت لا تزال ثقة القيادة العليا الرومانية في

---

(١) أميانوس ماركسيلينوس في كتابه المآثر المجلد الواحد والثلاثون الفصول ١١ – ١٣.

النظم الحربية الرومانية التقليدية ثقة يملؤها الغرور لدرجة أن الإمبراطور فالينز، الذي كان قد تنجح في ملاقاة الجحافل القوطية التي كانت تجتاح مستعمرة تراقيا الرومانية، أصر على أن يوقع عقابا سريعا بالبرابرة الجموحين. إنه رفض انتظار الإمدادات التي كان ابن أخيه وزميله جراشيان آت بها تخطى عاجلة من الغرب، على الرغم من تسلمه رسائل معلنة أن جيش جراشيان كان حينئذ على وشك الانضمام إلى جيشه، ولم يرحب بالعروض التي حاول القوط أن يقدموها لعدوهم الإمبراطوري الخانق، أولئك القوط الذين أربكهم أن تصرفهم استدعى رد فعل حربي روماني بمثل هذه القوة. إن فالينز أعطى الأمر لألويته أن تحمل حالا على المعسكر القوطى. وكان يبدو لأول وهلة أن سياسته العنيدة لها ما يبررها من حيث مفعولها.

إن صلصلة أسلحة الألوية الرومانية المتشابكة المرعبة و قرعهم الباغى على دروعهم ألقيا الرعب في قلوب البرابرة – الذين أوهن عزائمهم أيضا غياب جزء من جيشهم الذي كان يقوم بعملياته الحربية على مسافة بعيدة تحت قيادة الاثيوس وسافر اكس، ولم يكن لديه وقت للعودة على الرغم من أن الأمر كان في طريقه إليه – لقد بلغ من رعهم هذا أنهم أرسلوا رسلا لطلب السلام).

وبدا كما لو أن الجيوش الرومانية نالت نصرها دون أن تضطر لتوجيه ضربة ما، ولكن الحقيقة أن عناد فالينز لم يحطم الروح القوطية، ولكنه بث فيهم شجاعة المستميت، وكانت المفاوضة خدعة.

كان غرض القائد القوطى فريتيجيرن بداهة هو اكتساب الوقت حتى يستطيع مواجهة التحدي الروماني بجميع قواته – ما فيها الكتيبة الغائبة التي كانت تتكون من قوة الفرسان المدرعة – وكانت خدعته خدعة ناجحة، إذ أنه استطاع أن يطيل في أمر المفاوضة – بينما كان الجنود الرومان يحملون أسلحتهم دون طعام أو ماء ويقاسون حرارة النهار – حتى ظهرت ثانية قوة الفرسان القوطية في الميدان يقودها الاثيوس وسافر اكس ودعمتها فرقة آلاني، وانقضت على الجيش الروماني انقضاض الصاعقة على سلسلة من الجبال، وهجمت بسرعة خاطفة، واكتسحت في عاصفة من القتل والتذبيح عددا كثيرا من الفرق الرومانية التي استطاعت أن تشتبك معها اشتباكا مباشرا. إن الألوية الرومانية اختل نظام تكوينها وانضم بعضها إلى بعض كأنها قطيع في كتلة كثيفة حتى لم يعد أمامها أي فسحة لأن تستعمل أو حتى تستل سيوفها من أغمادها. وفي هذه المحنة الموئسة لقيت المصير الذي أذاقه سلفاؤها يوما ما للفيالق المقدونية. وبعد أن أوقعت قوة الفرسان المدرعة الألوية الرومانية في هذا المأزق الذي لا فكاك منه اندفعت في هجومها دون أن تعطى أعداءها المندحرين فرصة للتجمع، حتى انهارت في النهاية تحت ضغط الهجوم البربرى واندفاعه صفوف الجيش الروماني، وولت ألوية الجيش الروماني الأدبار، تلك الألوية التي دفعها موقفها الميموس منه إلى آخر ملجأ لها، ولت في حالة من الفوضى لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. ويوافق المؤرخ على الحقيقة التي تتلخص في أن القتلى من الرومان بلغوا ثلثي الجنود الذين اشتبكوا في القتال (وكان الإمبراطور فالينز نفسه من بين المفقودين) ؛

ومن رأيه أنه باستثناء موقعة كاناى لم يسجل التاريخ الروماني الحربي في جميع أخبار وأية موقعة أخرى بلغت فيها المذابح هذا المبلغ العظيم.

ومقارنة أميانوس أدرنه بكاناي يبرهن على فراسته التاريخية، وذلك لأن مذبحة كاناي، حيث كانت قوة المشاة الرومانية تحت رحمة قوة هانيبال المدرعة هي التي أثارت النبوغ الحربي الروماني فعلته يحول الفيلق الثقيل الحركة المكون على النسق الإسبرطي القديم الطراز إلى لواء سريع الحركة انتصر أولا في زاما، وبعد ذلك في سينوسيفالى و بيدنا، ومع ذلك كان الدرس الذي استقى من كاناي قد مضى عليه في العام الذي وقعت فيه موقعة أدرنه ما يقرب من ستمائة عام. وفي خلال هذه القرون الستة كانت الجيوش الرومانية قد تراخت و استنامت لمصيرها مثلها مثل الفيالق المقدونية من قبلها، حتى سمحت لنفسها بأن تباغت وتهزم على يد قوة فرسان شرقية مدرعة كانت أداة حرب أشد صلابة من فصائل فرسان هانيبال الأوربية، ولم يكن من الممكن منازلتها بنجاح دون ابتكار جديد. إن هذا الابتكار الناجح اكتشف في النهاية ولكن ذلك لم يكن قبل انقضاء ألف عام، ولم يكن ذلك نتيجة للألمعية الرومانية. وعلى الرغم من أن الرومان تلقوا تحذيرات متكررة عن انحطاط مستوى جنود الألوية عن قوة الفرسان الشرقية – في كارثة كراسوس سنة ٥٥ ق.م وكارثة فاليريان عام ٢٦٠ م وكارثة جوليان عام ٣٦٣ م – إلا أن ذلك لم يحثهم على ابتكار تحسين في تكتيك المشاة. لقد تركوا الجيش يلقي مصيره دون أن يدخلوا إصلاحا عليه، وعند ما تلقي الضربة حينما حان الحين عام ٣٧٨م في أدرنة لم يفكروا في علاج جديد أكثر

من أن يغضوا النظر تماما عن الجيش الروماني المهزوم ويستخدموا قوة الفرسان المدرعة المنتصرة بعد استخدام غيرهم لها. إن زميل جراشيان وخليفته تيودوسيوس كافة الخيالة البرابرة على إبادتهم المشاة باستئجارهم الملء المكان الحالي. وحتى حينما دفعت الحكومة الإمبراطورية الثمن المحتوم لهذه المهلة القصيرة التي اشتريت هذه السياسة القصيرة النظر، ورأت هؤلاء الفرسان البرابرة المرتزقين يحزنون جميع ولاياتها الغربية إلى دويلات بربرية يقتسمون حكمها، فإن الجيش الوطني الجديد الذي أنقذ الإغريق والولايات الشرقية في آخر لحظة من أن تلقي نفس المصير كان مسلحة ومكونة من قوة راكبة على الطراز البربرى.

إن مما يزيد عار نهاية الجيش الروماني سوء تلك الحقيقة الغريبة التي تتلخص في أن قوة الفرسان المدرعة التي دحر ته في سهول تراقيا عام ٣٧٨م كانت هي نفسها أدني منه. إن الفارس البارياني الذي أجبر ألوية كراسوس أن تستسلم في موقعة كارهاى عام ٥٥ ق. م. كان من رماة السهام مثل ابن وطنه الرعوي الذي كان مثله الأول الذي احتذاه، كما كان الفرسان السارماشيون و القوطيون المدرعون الذين أبادوا جيوش فالينز في أدرنة مجرد فرسان مزراقيين قالوا نصرهم بطريقة الهجوم الشديد الفظة الخرقاء، وذلك بدلا من الطريقة الفنية السليمة وهي طريقة الإحداق بالعدو على منوال ما فعلته قوة فرسان سورين الرامية للسهام في كارهاى عام ٥٣ ق.م. مع سيل غير منقطع من القسي يمدهم بها ميارون لا ينضب معينهم يمتطون ظهور الإبل. إن موقعة كارهاى كان ينبغي أن تحدث انقلابة ثورية في الفنون الحربية العالمية، ولكنها لم تحدث في

الحقيقة إلا أثرا ضئيلا، فإن سوريناس قتل في السنة التالية وقضى على نظامه. إن المستقبل لم يصبح الآن للفارس غير المدرع الرامي للسهام، ولكنه أصبح للفارس المدرع الذي ظهر في موقعة ككارهاي في الصفوف البار ثمانية دون أن يساهم بأي نصيب يستحق الذكر في الانتصار الباهر الذي أحرزه زميله غير المدرع. وما كاد الفارس المدرع يرتدي درع رجل المشاة الأشوري حتى بدا ينبذ قوس رجل الرعاة المتنقل مستعيضة عنه برمح رجل المشاة الإغريق المدرع. إن الفارس المدرع الأشوري الأصلي كان لا يزال رامى سهام. والوصف الذي لدينا للقوة التي كانت مكونة من ألف من الساقا الذين حاربوا في صفوف آخر ملوك الفرس القدماء في جوجاميلا عام ٣٣١ ق.م. يظهر لنا أنهم كانوا لا يزالون مسلحين بقسي على الرغم من أن الجياد والرجال كذلك كانت مدرعة. ومع ذلك فيما نزل أنصاف الفوارس المدرعة الساقا هؤلاء إلى ساحة القتال لم يطلقوا قسهم بل انقضوا هاجمين. وكان الفارس المدرع البارثياني الذي بلغ مرحلة النضوج الموضحة على الرسوم الحائطية في دورا لا يحمل حتى مع رمحه قوسة. وعلى الرغم من النجاح الذي أحرزته قوة خيالة الرماح الخفيفة ضد كراسوس في كارهاى، فإن فشل قوة الفرسان المدرعة في هجومها ضد فنتيديوس في الجولة الثانية لهذا الصراع الروماني البارثي، و النجاح المتكرر لقوة الفرسان الخفيفة الرامية بالسهام ضد مارك أنطونيو، فإن البارثيين تخيروا نظام الفارس المدرع. وحذا حذو الإرساسيين خلفاؤه الساسانيون. إنه أصحيح أن قوات بيزاريوس الرومانية المدرعة في القرن السادس، كما يصفها بروكو بيوس، كانت فرسان من رماة السهام من

الطراز الأشوري. ولكن على وجه العموم فإن فارس المزراق المدرع لا فارس القوس المدرع هو الذي احتفظ بمكانته خلال الاثني عشر قرناً التالية بعد انتصار فارس القوس الخفيف في كارهاى. إن هناك تناسقاً غير عادي في أهب الحرب التي كان يرتديها هذا المزراقي خلال فترة من الوقت تربو على ألف عام في جميع أنحاء أوربا وآسيا طولاً وعرضاً. إن شخصيته لا يمكن أن يخطئها البصر سواء كانت الصورة التي تمثله لنا حائطية يرجع تاريخها إلى القرن الأول الميلادي المسيحي، في إحدى مقابر شبه جزيرة القرم، أو في النقوش البارزة للملوك الساسانيين في فارس في القرن الرابع والخامس والسادس، أو التماثيل الصلصالية الصغيرة للجنود في الشرق الأقصى الذين كونوا القوة المحاربة لأسرة تانج (التي تولت من ٦١٨م – ٩٠٨م)، أو الأقمشة المزركشة التي ترجع إلى القرن الحادي عشر في بابيه التي تصور هزيمة جنود المشاة الإنجليز العتيقة النظام في ذلك الوقت على يد فرسان الملك وليم الفاتح النورمانديين..

إن كان طول أجل نظام الفارس المدرع ووجوده في كل مكان يثيران الدهشة، فإنه من الجدير بالملاحظة أن هذا الوجود الشامل هو بصورة منحلة فسب. وبما أن المدى والقياس المادي الصرف قد يعتبر أن أعراضا للانحلال، فإننا لن تأخذنا الدهشة حينما نقرأ الفصل التالي لقصة الفارس المدرع. إن هذه القصة يمكن سردها مرة ثانية بقلم معاصر كان في هذه الحالة شاهد عيان.

(كنت في عسكر الدويدار الصغير، لما خرج إلى لقاء التمر

بالجانب الغربي من مدينة السلام، في واقعها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة، [1] قال فالتقينا بهر بشير من أعمال دُجيل. فكان الفارس منا يخرج إلى المبارزة، وتحته فرس عربي كأنه و فرسه الجبل العظيم، ثم يخرج إليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حمار، وفي يده رمح كأنه المغزل، وليس عليه كسوة ولا سلاح، فيضحك منه كل من رآه. ثم مات النهار، حتى كانت لهم الكرة، فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر ثم كان من الأمر ما كان) [2].

ولذلك فإن اللقاء الأسطوري بين جالوت و داود في جر التاريخ السورياني يعيد نفسه عند حلول الليل بعد ذلك بحوالي ثلاثة وعشرين قرناً حقيقة تاريخية شاهدة على صحة هذه القصة، وعلى الرغم من أنه في هذه المناسبة قام المارد والقزم بدورهما على ظهور الجياد بدلا من على الأقدام فقد كانت النتيجة واحدة.

إن القوقازي التتاري الذي لا يقهر و الذي تغلب على الفارس العراقي المدرع واستباح بغداد وأهلك الخليفة العباسي جوعا وسط خزائنه، وكال الضربة القاضية لخلافة كانت صورة معادة للإمبراطورية الفارسية القديمة، تلك الخلافة التي أعادت ضم أجزاء الإمبراطورية السريانية، كان هذا القوقازي التتارى فارس قوس غير مدرع من طراز الفارس الرعوي الأصيل الذي ظل على جموده دون تطوير وجعل نفسه

---

(١) تبدأ في الثامن عشر من يناير سنة ١٢٥٨م (المترجم)

(٢) فلك الدين محمد أيدمر – كما ورد في كتاب الفخرى ص ٦٩ تأليف محمد بن على ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقي

معروفا في آسيا الجنوبية الغربية ونشر الرعب فيها لأول مرة بسبب تدفق السيميريين و السيثيين في فترة الانتقال بين القرنين السابع والثامن الميلاديين. وفي قلب السهوب التي انساب منها التتار بدوره في القرن الثالث عشر الميلادي عاش النظام الحربي الرعوى القديم حتى أكد تفوقه عندئذ، في نهاية الأمر، على التقليد المدرع الماسح له الذي قامت به المجتمعات المستقرة الشغوفة بالتقليد في خلال نحو ألف عام تخللتها ابتكارات قصيرة المدى وفترات ركود طويلة الأمد. ولكن في تلك اللحظة التاريخية إذا كان أشباه داود قد هزموا بحق وهم متطون ظهور الجياد أشباه جالوت وهم على متون جيادهم، فإن نتيجة هذا اللقاء في هذه القصة المعادة كانت نتيجة تتفق اتفاقا تاماً مع القصة الأصلية. لقد رأينا أن البطل المدرع من الجنود المشاة الذي دحره حجر مقلاع داود يقوم مقامه بعد ذلك لا من هم على شاكلة داود ولكن فيلق من أشباه جالوت كان فيه كل جندى مزودا بعتاد حربي كعتاد جالوت تعلم استعماله بحيث يكون له مفعول أفضل في أثناء القتال، بانتظامه في تكوين منظم بدلا من انغماسه في رياضة المبارزة البدائية. وإننا لنجد الآن في عصر الفروسية أن النظام أحرز مرة أخرى انتصارا على الفردية. وذلك لأن فرسان هولاكو المغولي غير المدرعين، الذين تغلبوا على فرسان الخليفة العباسي تحت أسوار بغداد سنة ١٢٥٨ م، هزموا مرة تلو المرة – عام ١٢٦٠، وعام ١٢٨١، و عام ١٢٩٩ – ١٣٠٠، وعام ١٣٠٣– كلما عبروا الفرات وحاولوا أن يصلوا إلى نتائج حاسمة مع المماليك، سادة سوريا ومصر الذين وجدت سلسلة من الخلفاء

العباسيين ملجأ تحت كنفهم. إن المماليك في عتادهم لم يكونوا بأحسن ولا بأسوأ من زملائهم الفرسان المسلمين الذين هزموا هذه الهزيمة المشينة، قبل ذلك بسنين في نهر بشير، ولكنهم كانوا في تكتيكاتهم جديرين باسمهم، وما عرف عنهم من الخضوع للنظام، وقد كفل لهم هذا النظام التفوق على الفارس المغولي السديد الرماية وعلى الفارس الفرنجي المتجول.

وبعد أن شاهدنا الآن جالوت وداود يتحاربان أولا على الأقدام نم على ظهور الجياد [1] لا نستطيع مغادرة المسرح دون أن تنتظر لنرى

([1]) على سبيل التقصي التاريخي يمكننا أن نورد هنا في حاشية سفلية القطعة الآنية التي كتبت عام ١٩٣٨ والتي ظهرت في متن المؤلف الأصلي (دراسة التاريخ المجلد الرابع ص ٤٦٣)

أصبح من المؤكد بالفعل مرة أخرى في سنة ١٩٣٨ أن التكتيك الذي كسب حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ لن يكون آخر حلقة في السلسلة – إذ قد بلغ ضلال الجنس البشري درجة تجعله يستمر في توجيه اهتمامه إلى الفنون الحربية بعد أن بلغت درجة من قوة الإهلاك أصبح معها كل انغماس آخر في الحرب يبدو من المحتمل أن تجلب معه الملاك التام المجتمع، وقد يثبت في حرب أخرى في الغرب أن الأسطول البريطاني لما بعد الحرب، ونظام تحصينات الحدود الفرنسية تحت الأرض وفوقها، لا يعدوان أن يكونا مجرد أغلال في أعناق الذين كسبوا ما سيدكره ذراريهم حينئذ «لا كرب وضعت نهاية الحرب » ولكن مجرد حادث ١٩١٤ –١٩١٨ من حوادث المنافسة الحربية، تلاى المنافسة التي فشل المتنافسون الذين تمزقت أجسادهم أن يضعوا حدا لها في الوقت المناسب. قد تجتاز الحصون الفرنسية و تفرق الأسطول البريطاني في موانيه طيارات العدو المحملة بكل ما أنتجته اختراعات كمائيى القرن العشرين من أسلحة الدمار. إن الحرب القادمة لو أنها أتت يوما لتمحو المجتمع المتمدن من الوجود، يمكن أن يكتسبها – لو أن كلمة النصر حينئذ تظل محتفظة بأي مدلول لها – قوة محترفة في عصر ما بعد الحرب لا تكون قوتها في العدد ولكن في النظام والتدريب الذي يمكن انكشارية القرن العشرين هؤلاء من أن يستفيدوا من حوزتهم لمصانع أسلحة من طراز حديث. إن عصابة من أمثال هؤلاء الميكانيكيين المسلحين قد ينتصرون بنفس الفنون والمزايا التي

حلية الصراع و قد تحولت إلى معركة بحرية لمصارعينا ليكررا مبارزتهما فوق سطح الماء. وفي استطاعتنا أن نختم استقصاءنا للدمار الذي ينتج عن تقديس نظام سريع الزوال خاتمة مناسبة لإحدى طرائف التاريخ البحري. فينها اعتاد الرومان ركوب البحر أثناء الحرب الرومانية القرطاجينية (التي استمرت من ٢٤٦ – ٢٤١ ق. م) كان عليهم أن يواجهوا أسطولا قرطاجينيا ورث كل التحسينات التي أدخلت تباعا على فنون الحرب البحرية في البحر الأبيض المتوسط خلال القرنين اللذين مرا منذ عصر تستوكليس، وطبقا لما روته القصة – سواء كانت حقيقة أكيدة أو حقيقة أسطورية فلسفية – أوقع الملاحون الرومانيون قليلو الدربة الارتباك في صفوف سادة الفن البحري القرطاجينيين بمحو قرنين من التقدم البحري بضربة واحدة، وإرجاع الحرب البحرية مرة ثانية إلى النوع البدائي، الحرب البرية فوق ظهور السفن، ذلك النوع الذي اتخذه الصراع البحري بادي ذي بدء. فحينا رأى الرومان، الذين كانوا يفكرون مليا والأسف يحدوهم في سيادتهم الواضحة للعيان، أنهم عاجزون عن ملاقاة القرطاجينيين في ظروف متكافئة، اخترعوا صقالة يرمي بها من صارى السفينة مجهزة بكلاب حديدي، أمكنهم بوساطتها أن يشتكوا اشتباكا حقيقيا مع السفن الحربية القرطاجينية. وبهذا الابتكار في الأسلوب الحربي الخارج على الأصول الفنية بدرجة صارخة، أصبح لهم الأولوية التكتيكية، ومنعوا خصومهم الخانقين الذين استولت عليهم

امتاز بها قاذف قنابل فردريك الأكبر وحملة بنادق سليم الأول. وإذا كانت هذه العصابة المنتصرة من جنود الحرب الخاطفة من الأمان، فإن عجلة التاريخ الحربي الأوربي قد تدور دولة كاملة إلى الوراء.

الدهشة، من استخدام تكتيكاتهم من مناورة وقذف بالرّام [1]، وأجبروا على أن يستبدلوا بها التشابك واقتحام السفن ما أحدث نتائج حاسمة في مصائر الحرب.

وإذا كان في هذه القصة ظل من الحقيقة، فإنها تظهر لنا بوضوح تام الصلة بين الانهيار وبين و ثنية الأوضاع، وذلك لأننا نرى في هذا المثل تكنيكا أعلى في جوهره، قدسه المضطلعون به، يدحره تكنيك أدني في طبيعته إلا ميزة له سوى أنه لم يجد الوقت الكافي ليصبح مقدسا، و ذلك لأنه ابتكار، وهذا المشهد الغريب يوحى إلى النفس قسرا أن تقديس النظم هو منبع الأذى كله، وليس منبع هذا الأذى صفة جوهرية أخرى في الموضوع.

(1) الرام [كلمة مجمعية] ناشرة في سفينة برأس كبش لإتلاف سفن العدو [المترجم]

الفصل الثامن

ثمن التقدم في الأساليب الحربية

كانت النزعة الحربية أشد أسباب انهيار المدنيات شيوعا خلال الأعوام الأربعة أو الخمسة آلاف التي شهدت سقوط المدنيات العشرين أو نحوا من ذلك التي سجلها التاريخ حتى وقتنا الحالي. إن النزعة الحربية تجعل المدنية تتداعى بتسيبها في جعل الولايات المحلية التي يتكون المجتمع منها تتصادم مع بعضها البعض في حرب ضروس مدمرة، ويصبح البناء الاجتماعي كله في هذه العملية الانتحارية وقوداً يغذى اللهب الفاغر فاه في صدر مولوخ [1] المتحجر. إن الفن الحربي إذا وجهت له العناية دون غيره، فإنه يتقدم على حساب الفنون التي لا تزدهر إلا وقت السلم، وقبل أن ينتهي الطقس المميت من تدمير مريديه، قد يصبح هؤلاء المريدون على دراية تامة باستعمال أدوات القتل التي في حوزتهم، حتى أنه لو تصادف أن توقفوا برهة عن لهوهم الخليع في تقتيل بعضهم البعض ليوجهوا أسلحتهم فترة ما ضد صدور قوم غرباء فإنهم يكونون قادرين على اكتساح كل ما أمامهم.

ولدينا حالة في صلب الموضوع ألا وهي امتداد الحضارة الإغريقية الأخير إلى الهند وبريطانيا بين القرن الرابع قبل الميلاد والقرن الأول

([1]) صنم كنعاني كانت تقدم له الأطفال قرابين (المترجم).

الميلادي، وذلك لأن السبل التي سلكها هذا التوسع قد فتحتها الجيوش المقدونية والرومانية، وهذه الجيوش قد صهرتها وجعلت منها جيوشا ذات كفاءة لا تقاوم، تلك الحرب الضروس الطويلة المدى بين القوات العظمى للبلاد الإغريقية، تلك الحروب التي فشلت فيها أثينا في توطيد سيادتها، ونجحت فيها روما في توجيه الضربة القاضية. ولذلك فقد كانت النزعة الحربية في التاريخ الإغريق مسئولة مسئولية جزئية على الأقل عن التوسع الأخير للعالم الإغريق، كما هي مسئولة أيضا عن انحلال المجتمع الإغريق الذي عاصر هذا التوسع.

ويمكننا أن نشاهد مثلا من أمثلة تقدم التكنيك مع تدهور المدنية في التباين بين العصر الحجري المتوسط الأعلى في أوربا والعصر الحجري الحديث الأسفل الذي يعتبر وريثه المباشر في السلسلة التكنولوجية. إن مجتمع الزمن الأول من العصر الحجري المتوسط ظل قانعة بأدوات غير مصقولة الصنع، ولكنه أظهر إحساساً رفيعاً بالجمال، ولم يغفل عن اكتشاف بعض الوسائل البسيطة للتعبير عن هذا الإحساس بأسلوب تصويرى. إن مما يثير دهشتنا وإعجابنا تلك الرسوم التخطيطية الزاهية البارعة للحيوانات بالفحم النباتي، تلك الرسومات التي لا تزال باقية على جدران المغارات التي سكنها إنسان العصر الحجري المتوسط وقد اكتشفها هناك علماء الآثار في العصر الحديث. إن مجتمع الزمن الأخير من العصر الحجري الحديث عانى مجهودات شاقة لا حد لها ليزود نفسه بآلات مصقولة صقلا جيدة. ومن المحتمل أنه استفاد من هذه الآلات باستعمالها كأسلحة في صراعه من أجل البقاء مع إنسان

العصر الحجري المتوسط ذلك الصراع الذي اندحر فيه الإنسان البقطى [1] وترك الإنسان الفابي سيد الميدان. وعلى أية حال فإن مجتمع العصر الحجري المتوسط تلاشي واحتل مجتمع العصر الحجري الحديث مكانه. وهذا التغيير الذي يعد فاتحة عهد من تحسينات تدعو إلى الدهشة فيما يختص بالأمور التكنيكية إنما هو نكسة واضحة للوراء فيما يختص بالمدنية، إذ أن فن إنسان العصر الحجري المتوسط في الزمن الأول اندثر معه. وإذا كان لدى إنسان العصر الحجري الحديث في الزمن الأخير أي وميض من الإحساس بالجمال، فإنه على أية حال لم يعبر عنه تعبيراً مادياً.

ويوجد مثل آخر من أمثلة توافق وجود التحسين الأسلوبي مع حدوث نكسة إلى الوراء في سير المدنية في فترة الركود التي سارت فيها الحضارة المينوية إلى هاوية الانحلال. إن المجتمع المينوى عاش في العصر البرونزى من أول تاريخه إلى آخره. إن آخر وأكثر جحافل القارة الأوربية هي يجية، أولئك الذين انقضوا على أراضي المجتمع المينوى المتداعية في حركة الهجرة الشعوبية بعد العصر المينوى، قدموا مسلحين بأسلحة مصنوعة من الحديد بدلا من البرونز. وقد استفادوا قطعة من معرفتهم لهذا المعدن الأشد بأسا في غزوهم الذي كتب لهم فيه النصر على ورثة المدنية المينوية. ولكن انتصار هؤلاء الأوربيين المسلحين بسيوف حديدية على المينويين المسلحين بسيوف برنزية كان انتصارا للبربرية على المدنية. وذلك لأن أي سيف حديدي أو ما يدخل في نطاق

---

(1) كلمة مجمعية، نسبة إلى قبيلة قديمة كانت تسكن بريطانيا (المترجم)

هذا من دبابة من صلب أو غواصة أو قاذفة قنابل أو أية أداة أخرى من أدوات القتال في عصرنا الآلي الحديث قد يكون تميمة من تمام النصر دون أن يكون تميمة من تمائم الحضارة. إن الدوريين لم يتخلوا عن بربريتهم حينما اتخذوا أسلحة من الحديد بدلا من الأسلحة البرونزية. وليس هناك ما يدعونا حتى لأن تنسب لهؤلاء البرابرة العمل الفني الذي يتلخص في اكتشاف مادة جديدة أفضل لاستخدامها في صناعة الأشياء المعدنية. إنه من المحتمل أن الحديد الدوري لم يكن من اكتشاف الدوريين أصلا، ولكنه كان سب عارية أدت الصدفة الجغرافية بهؤلاء البرابرة إلى أن يستعيروها مقلدين فيها الصناع المهرة لقطر مجاور. إن مقياس التقدم التكنولوجي في المدنية يمكن إقامة البرهان على دحضه بنقض نقيضه، وذلك لأننا مضطرون طبقا للقياس التكنولوجي أن تبين أن فترة الركود التي تلت العصر المينوى وهي في دركها الأسفل شاهدت تقدمة في حضارة المنطقة الإيجية. وهذا التقدم كان أكثر أهمية من أي تقدم تم في تاريخ الحضارة المينوية بأكمله، وأنه حدث نتيجة للعصابات الغازية من حاملي السيوف الحديدية الدوريين في الوقت الذي كانوا يستعملون هذه الأسلحة الحديدية ليوجهوا إلى الحضارة المينوية المسلحة بالسيوف البرنزية الضربة القاضية.

إن الأمثلة المستقاة من التاريخ القديم لها ما يشابهها في التاريخ الحديث للعالم تشابهاً تامة بدرجة مدهشة.

(إن نشأة العصر المایاني والتولتيكي يحدد في حدود ضيقة نسبية بداية العصر المعدني في أمريكا الوسطى والمكسيك. ففي أثناء أعمال

الحفر في كو بان وكويريجوا والمدن المايانية الأخرى في الإمبراطورية الأولى لم تشاهد أية عينات معدنية أو حتى أية شائبة نحاسية. إن لاس كويبرداس في جواتيمالا بنيت على منجم من التبر. ولكن في عمليات استخلاص التبر من التربة، تلك العمليات التي دمرت المكان تقريبا، لم توجد أية عينات من الذهب المصنوع كما لم توجد على الآثار القديمة الأولى صور لأية حلى معدنية مثل الأطواق والأجراس. ولذلك فإننا نستنتج أن العصر المعدني لم يبدأ إلا بعد سنة ٦٠٠م. ومع ذلك ففي سنة ١٢٠٠ م كانت صناعة المعادن في الذهب والفضة والنحاس الأحمر والسبائك المختلفة قد نهضت نهوضة عظيما. إن كثيرا من العينات التي وجدت في أتشكن إنزا في يوكاتان الشمالية هي من أصل كوستاريكى وكولومي. وطريقة صناعة المعادن هى التي كانت سائدة من كولومبيا الجنوبية إلى المكسيك الوسطى. ومن الظاهر أن هذه الصناعة وردت من أمريكا الجنوبية حوالي سنة.١٠٠ م ونمت نمو سريعة في الأعوام المسائية التي سبقت الفتح الإسباني [1]).

وإنه من الملاحظ أن هذه الصورة التي استقيناها من أمريكا الوسطى الموضوع بحثنا والصورة السابقة التي استقيناها من منطقة بحر إيجه تلقيان بعض الضوء على بعضهما البعض. وقد نهض المجتمع الماياني في العالم الجديد وسقط دون أن ينتقل قيد أنملة من العصر الحجري إلى العصر المعدني، وذلك هو بالضبط ما حدث في الدنيا القديمة للمجتمع المينوى الذي قام بأعماله العظيمة وعاش حياته بأكملها دون

---

(1) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الثالثة عشرة المجلد الأول ص ١٩٥.

أن يتخطى العصر البرونزي إطلاقا. أما فضل إدخال طريقة صنع الأشياء من المعادن فقد احتفظ به المدنيتين كلتيهما تنتسبان المدنية المايا، ولا يمكن مقارنة إحداهما فيما يختص بالمستوى الثقافي العام بالمدنية السابقة، ونجد هنا أيضا أن التقدم الفني كان معاصرا لفترة ركود ثقافي.

إذا كان دليل الخلف للمقياس التكنولوجي هو الادعاء بأن مدنيات الطبقة الثانية التي كانت تنتسب المدنية المايا أو البرابرة الإيحيين الغزاة في العصر التالي للعصر المينوى والسابق لعصر الركود الإغريق كانت رسلا من رسل المدنية بفضل مهارتها الفائقة في الأساليب الفنية، فما يدعو إلى التسلية أن نجد ادعاء مبالغا فيه كهذا على أساس تكنولوجي مماثل في صالح فترة الحمول التالية للعصر الإغريق يقدمه لنا آخر المؤرخين الإغريق العظام.

إن بروكوبيوس القيصرى[1] كتب تاريخ حروب الإمبراطور الروماني جستنيان (الذي تولى من ٥٢٧ م إلى ٥٦٥م) تلك الحروب التي كان فيها هلاك المجتمع الإغريق بالفعل. إن جستنيان في كفاحه العنيد لتحقيق مطمحه الخاطئ في استعادة تماسك الإمبراطورية الإقليمي جلب خرابا ماليا على الولايات الشرقية مع إقفار الولايات البلقانية من سكانها كما جلب دمارا على إيطاليا. وحتى مع هذا الثمن فشل في تحقيق هدفه الذي سار فيه قدما

دون أن ينكص فيه، و ذلك لإنه باستئصاله الفاندال في إفريقية مهد

([1]) نسبة إلى قيصرية (المترجم).

الطريق العرب ليحلوا محلهم، وباستئصال شأفة القوط الشرقيين في إيطاليا أوجد فراغا قدر له أن يملأ في خلال ثلاث سنوات من موته باللومبارديين الأشد همجية. إن القرن الذي تلا حروب جستنيان كان بالفعل أكثر فترات ما بعد العصر الإغريق ركودا. لقد كانت هذه هي مأساة عصر بروكو بيوس كما يراه الأعقاب حينما يرجعون ببصره إلى الماضي، وكان هذا في الحقيقة واضحا وضوحا ألما في ذلك الوقت، وكان من المعترف به في كل مكان بين معاصرى بروكو بيوس أنه مهما كانت النهاية البعيدة أو الوشيكة للحضارة الهيلينية، فإن التاريخ الهيليني كان قد جاوز أوج مجده من أمد طويل. ومع ذلك في كتابة هذا المؤرخ الشهير لمقدمة قصته عن الحوادث المهلكة التي وجهت الضربة المميتة للحضارة الإغريقية قبل أن يتناول قلمه ليكتب، نجده يتبلبل فيجادل في معركة من تصوره بين المحدثين والقدامى، معركة يقر فيها بالفضل للمحدثين بسبب تفوقهم في فنون الحرب، استمع إليه وهو يقول:

(إن من الواضح لكل عقل غير متحيز أن عواقب هذه الحروب هي على الأقل عواقب مسترعية للنظر و مؤثرة كأية حوادث أخرى في التاريخ. إنها قد تسببت في حوادث ذات طابع أكثر غرابة من أية حوادث أبقاها لنا التاريخ على صفحاته، ولعل ما يستثنى من ذلك وجهة نظر القاري الذي يصر على إعطاء الأفضلية للقديم ويأبى أن يتأثر بأي شيء في العالم المعاصر. إن أول مثل يتبادر إلى الذهن هو تقليدنا المتكلف للقديم الذي يجعلنا نشير إلى الفرق الحديثة باسم رماة السهام، ونحتفظ بتلك المسميات التي كانت تطلق على المحاربين

القدامى مثل المقاتلين المتشابكين، والرجال تحت السلاح، و ذلك مع وثوقنا أن هذه الصفات الحربية قد أصبحت صفات بائدة في عصرنا هذا. إن هذه الادعاءات إنما تقوم فحسب نتيجة لنظرة سطحية ونقص تام في الخبرة في أولئك الذين يتمسكون بها. إنه لم يخطر ببالهم قط أن رماة السهام الذين ورد ذكره في أشعار هومر وكان سلاحهم سبة وعاراً في جبينهم لم يكونوا يمتطون ظهور الجياد، ولم يكن بأيديهم رماح، ولم تغط أجسامهم دروع أو لمات. إنهم كانوا يذهبون إلى ساحة القتال مشاة وكانوا مضطرين إلى الاحتماء إما خلف دروع زملاء لهم أو بالاستناد إلى شاهد ضريح. وكان هذا الوضع يحول بينهم وبين النجاة بأنفسهم في حالة الهزيمة و بين تتبع عدو متقهقر كذلك، وفوق ذلك يحول بينهم و بين الحرب في العراء. ومن ثم كانت شهرتهم أنهم كانوا يقومون بدور خفي في النشاط الحربي بين الم يهتموا، بصرف النظر عن هذا، إلا اهتماما قليلا جداً بالأسلوب الفني لدرجة أنهم وهم يصوبون مهامهم لم يكونوا يفعلون سوى أنهم كانوا يشدون أوتار أقواسهم إلى صدورهم، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك استنفاد قوة السهم وزوال آثره، وذلك قبل وصوله إلى هدفه. إن هذا بلا شك كان المستوى الذي وصل إليه فن الرمي بالسهام في الأيام السابقة. وعند المقارنة نجد أن رماة السهام المحدثين يتوجهون إلى الميدان لابسين دروعا وأحذية ذات رقية تصل إلى ركبهم وكنانة في جانبهم الأيمن وسيفاً في جانبهم الأيسر، بينما لدى بعض جنود سلاح الفرسان رماح مدلاة من فوق أكتافهم، ودروع صغيرة لا مقابض لها، يكفي قطرها لتغطية الوجه والرقبة. ولكونهم فرسانا على

درجة من البراعة تثير الإعجاب فإنهم مدربون على توجيه قسيهم لأي جناح وهم يركضون بجيادهم بأقصى سرعة أو توجيه ضرباتهم إلى جيش يقتفيهم من الخلف وكذلك إلى جيش يتقهقر بين أيديهم. إنهم يشدون أوتار قسيم بمحاذاة وجوههم في مستوى الأذن اليمنى تقريبا، وهذا يعطى للقذيفة قوة كبيرة لدرجة أن قوة اصطدامها تكون دائما ميتة، وليس في استطاعة درع أو زرد أن يقاوم قوة وقعها. ومع ذلك فإن بعض الناس الذين أردوا تجاهل وجود هذه الفرق يتمادون في إطراء الأوضاع القديمة إطراء مبالغا فيه للغاية رافضين أن يعترفوا بتفوق المخترعات الحديثة. إن المفاهيم الخاطئة التي من هذا النوع ليس لها بالطبع من القوة ما يكفي التجريد الحروب الحديثة من أهميتها وعظم شأنها).

إن حجج بروكو بيوس حجج مبالغ فيها تدحض نفسها بنفسها والتعليق الوحيد الذي يبدو ضروريا أن نقوم به هو أن الفارس المدرع الذي يقدمه بروكو بيوس لقرائه على أنه تحفة من تحف الأساليب الحربية الإغريقية والرومانية – أكفأ طراز للمحارب الذي نشأ في أي وقت في العالم الإغريق أثناء الفترة الطويلة التي مرت بين العصر الهومرى وعصر المؤلف – لم يكن بالفعل ابتداءا أصيلا للنبوغ الحربي الإغريق أو الروماني أكثر مما كان الحديد اكتشاف دورية. إن هذا الفارس الرأي بالسهام – المسلح من قمة رأسه لأخمص قدمه الذي يبث الرعب بسبب جسارته الشخصية في امتطاء الجياد والتصويب – كان غريبة تماما على العرف الحربي الإغريق والروماني الحقيقي، الذي خصص دورة ثانوية السلاح الفرسان ووضع ثقته في قوة مشاة كان مصدر قوتها في

تماسك الفرقة الذي يجعل منها وحدة متضامنة، وفي نظامها، أكثر مما كان في تسليح الجندي ودرايته. وكان سلاح الفرسان المدرعين ابتكار آ حديثة في الجيش الروماني – سلاحا لم يكن قد مر على اتخاذه أكثر من قرنين من الزمان قبل عصر بروكو بيوس. وإذا كان قد قدر لهذا السلاح أن يصبح دعامة القوة الحربية الرومانية خلال هذه المدة القصيرة نسبية، فإن هذه الثورة في الأساليب الحربية تقوم شاهدا على الانحلال التاريخي السريع المؤسف لسلاح المشاة الروماني. وفي الحقيقة فإن سلاح الفرسان المدرعين في الجيش الروماني في عصر بروكو بيوس ملأ فراغا كان من صنع سلاح الفرسان نفسه، وذلك لأن سلاح المشاة الروماني السابق، الذي كان منيعا لا ينال، قابل لأول مرة ندة له اعترف في النهاية بتفوقه، وذلك حينما اشتبك مع الفارس المدرع في سهول أرض ما بين النهرين في الجيوش الأرساسية والساسانية، وفي سهول الدانوب في العصابات المحاربة للسامارشيين [1] والقوط. إن الدروس الحربية التي استقيت من الاشتباكات الطويلة بين ألوية الجيش الروماني و بين أسلحة الفرسان المدرعة التي ابتدأت بكارثة كراسيوس في كارهاى عام ٥٣ ق.م والتي بلغت ذروتها في كارثة ڤالينز في أدرنة عام ٣٨٧م أدت في النهاية بالسلطات الرومانية أن تضرب صفحا عن رجل المشاة الروماني التاريخي الذي أكسب الإلهة روما في الأصل إمبراطوريتها بسيفه وآلة حفر خنادقه، وتحل محله نظام الفارس المدرع الشرقي المنتصر على الرغم من أنه نظام دخيل عليهم.

([1]) سكان سارماشيا القديمة (روسيا وبولندا) (المترجم)

وبإطراء بروكو بيوس للفارس المدرع، فإنه بذلك في الحقيقة يناقض تمام المناقضة ما يفترضه و ينتويه. فبدلا من احتفائه بإصلاح الأساليب الفنية الحربية الرومانية، فإنه يؤبنها. ولكن على الرغم من أن بروكو بيوس تخير وسيلة إيضاح غير موفقة للهدف الذي يريد أن يصل إليه، فإن دعواه العامة أنه كان هناك إصلاح تقدم في الأساليب الفنية الإغريقية صحيحة على وجه العموم في نطاق الأساليب الحربية التي يقصر مناقشته عليها. وعند استقصائنا لهذا النطاق من التاريخ الاجتماعي الإغريق والروماني، دعنا نستبعد من حسابنا الخاتمة غير الطبيعية للفارس المدرع، ونحصر استقصائنا على نطاق السنوات الألف التي بدأت بابتكار الفيلق الإسبرطي في الحرب الإسبرطية المسينية الثانية في النصف الأخير من القرن السابع قبل الميلاد، والتي انتهت بالاندحار النهائي للجيش الروماني في موقعة أدرنة عام ٣٧٨ م وانهيار الثقة فيه. إن تطور الأساليب الفنية الحربية الإغريقية الأصيلة يمكن اقتفاء أثره دون أن نجد ثلمة في حلقات تسلسل استمراره، خلال تلك السنين الألف. وفي اقتفاء أثره سنجد أن أي توقف أو أية نكسة في المدنية الإغريقية كان يصحبها دوما تحسن في الفن الحربي الإغريق.

وأول مثل نبدأ به كما قد رأينا من قبل هو أن ابتكار الفيلق الإسبرطي الذي كان أول تحسين مشهور احتفظ لنا التاريخ به في سجلاته، كان نتيجة النفس الحوادث التي أدت إلى توقف نمو الفرع الإسبرطي من المدنية الإغريقية توقفاً سابقاً لأوانه.

والتحسين الشهير الذي تلا هذا كان انقسام الجنود الإغريق إلى

نمطين شديدي التباين، جندى الفيلق المقدوني، والجندي الأثيني ذي الدرقة المسلح تسليحاً خفيفة. لقد كانت الفيالق المقدونية المسلحة بمحراب ذات مقبضين بدلا من رماح الطعان القصيرة ذات المقبض الواحد أشد رهبة في ترابطها بكثير من طلائعها الإسبرطية، ولكنها كانت أيضا أصعب مأخذ في حركاتها العسكرية، وأكثر قابلية أن تقع تحت رحمة العدو لو أنها تصادفت مرة أن اختل تكوينها، ولذلك فإنه لم يكن من الممكن أن يدفع بها بأمان إلى ساحة القتال دون حماية أجنحتها بوساطة الجنود المسلحين بالتروس، وه نوع جديد من جنود المشاة المسلحين تسليحاً خفيفة أخذوا من بين صفوف الجيش ودربوا على القيام بدور المناوشة أثناء القتال. وكون جندى الفيلق المقدوني والجندي الأثيني ذو الترس بتعاونهما نوعا من المشاة أشد أثرة بكثير من جنود الفيلق الذي لا تنوع فهم من الطراز الإسبرطي. وهذا الإصلاح الثاني في الأسلوب الحربي الإغريقي كان نتيجة لقرن من الحرب الضروس في العالم الإغريقي في القرن الذي امتد من نشوب الحرب البليدونيزية الأثينية عام ٤٣١ ق.م حتى النصر المقدوني في خيرونيا عام ٣٣٨ ق.م تلك الحرب التي شاهدت انهيار المدنية و دخولها في دور الانحلال.

والتحسين الملفت للنظر الذي تلا هذا في الأساليب الحربية الهيلينية هو التحسين الذي أدخله الرومان حينما نجحوا في الجمع بين مزايا جندي الترس والجندي الفيلق، وعملوا على تجنب ما بها من عيوب في تكتيكات جيشهم وتسليحه. لقد سلح جندي الجيش الروماني بمزراقين و سيف طعان. وكان اللواء يتقدم إلى وطيس المعركة في نظام

تام على موجتين تعززها موجة ثالثة، مسلحة ومنظمة على طريقة الفيالق القديمة من تغطية الهجوم بقوات احتياطية. إن هذا التحسين الثالث في الأسلوب الحربي الإغريقي كان نتيجة الدورة جديدة من الحروب الضارية التي ابتدأت بنشوب الحرب الهانيبالية في عام ٢١٨ ق. م. وختمت بانتهاء الحرب المقدونية الرومانية الثالثة في عام ١٦٨، تلك الحرب التي كال فيها الرومان لكل قوة من القوى الكبرى في العالم الإغريقي لذلك العصر ضربة قاضية.

أما الإصلاح الرابع والأخير فكان الوصول بالجيش الروماني اللوائى إلى درجة الكمال في عملية بدأها ماريوس وأتمها قيصر، كانت نتيجة قرن من الثورات الرومانية والحروب الأهلية. إن الألوية الرومانية كانت على الأرجح في أحسن حالاتها في الجيش الذي حارب من أجل قيصر في موقعة فارساليا عام ٤٨ ق.م. وذلك بعد مرور خمس سنين من موقعه كارهاى في ٥٣ ق.م التي قابلت فيها الألوية الرومانية التي كانت تناصر كر اسيوس ندا لها في فرسان بارثيا المدرعة. وعلى ذلك فإن جيل قيصر وكراسيوس شاهد الأسلوب الحربي الروماني يصل أوجه ويتجاوزه. وشاهد نفس المدنية الهيلينية تدخل المرحلة التي تسبق المرحلة قبل الأخيرة من تدهورها وسقوطها، وذلك لأن ذلك القرن من الثورات الرومانية والحروب الأهلية الذي بدأ عام ١٣٣ ق.م. بتربيونية [1] تيبريوس جرا كوس كان ذروة وقت المتاعب، الهيلينية. وكانت مهمة قيصر وضع حد لوقت المتاعب بافتتاحه عهد الإمبراطورية التي أقامها في النهاية اكتافيوس

---

(1) من تربيون وهو حاكم في التاريخ الروماني (المترجم).

أوغسطوس بعد موقعة اكتيوم.

وفي تتبعنا لهذا التاريخ، تاريخ التحسينات المتابعة في الفن الحربي الإغريق، نجد أن لدينا حالة لا تحتاج إلى بيان، حالة لا يسير فيها ازدهار المدنية بل توقفها وتدهورها جنبا إلى جنب مع التحسينات في الأساليب الحربية، كما تقدم لنا تواريخ المدنيات البابلية والصينية أمثلة مفيدة توضح نفس الظاهرة. ففي وقت المتاعب البابلي، حينما كان المجتمع البابلي يمزق نفسه إربا في غمرة الجنون الحربي الأشوري، وكذلك في وقت المتاعب الصيني حينما كانت قوة تسين الحربية توجه الضربة القاضية لولايات العالم الصيني الأخرى التي كانت تنازعه السيطرة، تمت تحسينات واضحة في الأساليب الحربية. فمثلا في كلتا الحالتين صرف النظر عن الاستعمال القديم لجياد الحرب حيوانات جر تجر العجلات الحربية ليحل محله استعمال أكثر فاعلية وهو استخدامها مطايا للفرسان. وربما نستطيع من استقصائنا السابق أن نستنتج أن إدخال تحسينات في الأساليب الحربية هو عادة إن لم يكن دائما عرضا من أعراض التدهور في المدنية.

إن رجلا إنجليزيا من الجيل الذي عاصر الحرب العالمية ١٩١٨–١٩١٤ في استطاعته أن يستعيد فيما يختص بهذا الموضوع ذكرى حادثة وقعت في ذلك الوقت، حادثة تصدمه كرمز أليم. فبينا كانت الحرب في عنفوانها الذي كان يتزايد باستمرار تتطلب مزيدا أكثر وأكثر من الضحايا البشرية من الأمم المحاربة – كأحد الأنهار العظيمة الذي فاض فحطم جسوره وأغرق حقلا تلو حقل مكتسحا قرية تلو قرية –

حانت لحظة في إنجلترا استولى فيها بأمر عسكري على مبنى وزارة التربية في هويتهول لاستخدامها كمصلحة جديدة من مصالح وزارة الحربية أنشئت للقيام بدراسة دقيقة لحرب الخنادق. وقد وجدت وزارة التعليم المطرودة مأوى لها في متحف فيكتوريا وألبرت، حيث ظلت هناك على مضض، كما لو كانت أثرا غريبا من آثار الماضي البائد. ونتيجة لذلك فقد نشأ قبل هدنة ١١ من نوفمبر سنة ١٩١٨ بعدة سنين في قلب عالمنا الغربي دراسة تهدف إلى القتل بين جدران مبنى عام أقيم ليساعد في نشر دراسة من أجل الحياة. وبينا كان مؤلف هذا الكتاب يسير يوما في ربيع ١٩١٨، وجد نفسه يكرر قطعة من إنجيل متى.

(فمتى نظرتم رجسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي قائمة في المكان المقدس ليفهم القارى.... لأنه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن..... ولو لم تقصر تلك الأيام لم يخلص جسد[1])

ولا يمكن القارئ أن يقصر عن إدراك أنه حينما تخلى وزارة التربية والتعليم في مملكة غربية و تعطى لدراسة الفنون الحربية، فإن التحسن في أساليبنا الحربية الغربية الذي يشتري مثل هـ ذا الثمن مرادف لدمار مدنيتنا الغربية.

([1]) الإصحاح ٢٤ أعداد ١٥، ٢١، ٢٢

الفصل التاسع

فشل المخلصين بالسيف

إن مريد الإصلاح المجتمع منحل هو بالضرورة مخلص بالسيف، ولكن السيف قد يكون سيفا مشهورة أو سيف) موضوعاً في غمده، ويمكننا أن نتبين حامل السيف في أي من هذين الوضعين المتناظرين. إنه إما أن يناضل نضال الأبطال مجردة سلاحه في يده، كالآلهة في قتالها مع المردة كما هي مصورة على الإفريز الدلفي أو البيرجاميني، أو من جهة أخرى قد يكون جالساً تحفه هالة من الأبهة و العظمة وسيفه متوار عن الأنظار في قرابه كغاز منتصر وضع أعداءه تحت أقدامه. والوضع الثاني هو الغاية التي تتخذ من الوضع الأول وسيلة لها. وعلى الرغم من أن شخصا كداود أو شخصا كهر اقليز لا يتخلى إطلات عن كفاحه حتى يموت وهو متقلد سيفه، قد يكون شخصية من شخصيات الأساطير أكثر شهرة من سلمان في كل مجده ومن زيوس في كل عظمته، إلا أن أعمال كفاح هيراقليز وكل حروب داود تعتبر مجهودات لا هدف لها إن لم تكن غايتها رصانة زيوس ورخاء سلمان. إن تناول السيف يمكن أن يكون حسنا فقط، إذا كان الغرض من القدرة على استعماله غرضا طيبا بدرجة أنه لا يجد أمامه في النهاية عملا آخر يقوم به. ولكن هذا الأمل مجرد وه، وذلك لأنه في عالم الجن فسب نجد أن السيوف هي التي تحل

العقد الجوردية [1] التي لا يمكن للأصابع أن تحلها. إن قانون الحياة الحقيقية الذي لا يمكن أن يكسر هو "كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون " [2]. كما أن اعتقاد حامل السيف في إحراز نصر حاسم إنما هو مجرد وهم. وبينما نجد أن داود لا يسمح له قط ببناء الهيكل، نجد مبنى سليمان أقيم فقط ليدمره بختنصر حرقا. وبينما نجد أن هراقليز لا يمكنه قط أن يشق طريقه في الحياة حتى يصل إلى قم أوليب [3]، نجد زيوس يقيم عرشه على قمة الجبل المنيع، وذلك لكي يلاقي نسب نهايته المحتومة، إذ التي بدوره في الهاوية التي قذفت يداه إليها المردة من قبل.

ومع ذلك فلماذا لا يستطيع السيف أن ينقذ المجتمع المنحل حتى حينما يكون حامل السيف راغباً رغبة أكيدة في أن يرجع سيفه إلى قرابه في أقرب فرصة ممكنة ويحتفظ به هناك غير مستعمل ومتوار عن الأنظار أطول مدة ممكنة من الوقت ؟ أليس هذا العمل المزدوج من سحب السيف من غمده، ووضعه ثانية في غمده دليلا على فضل ينبغي أن يكون له جزاء حسن ؟ إن المحارب الذي يرغب في أن يقلع في أول فرصة تسنح له عن استعمال آلة أصبح في طوقه عندئذ فقط أن يضعها جانبا، لأنه قد استعملها قبيل ذلك استعمالا ناجحة جدة، يجب أن يكون منتصرا ذا حنكة سياسية أيضا، و سياسية على قدر من الحكمة.

---

(1) يعني بذلك المعضلات.

(2) إنجيل متى الإصحاح ٢٦ العدد ٥٢.

(3) يقصد بذلك يصل إلى مرتبة الآلهة. (المترجم)

ولابد أن يكون على قدر من الإدراك الذي يقوده إلى النجاة، و متخلقة بفضيلة ضبط النفس الأكثر سمواً. إن قرار نبذ الحرب كأداة من أدوات السياسة إنما هو قرار يبشر بأن يكون قرارة مثمرة بقدر ما هو نبيل وحكم. وفي أي وقت يتخذ بإخلاص، فإنه يثير آمالا واسعة.

لماذا يقدر لكل هذه الآمال التي تبدو آمالا حقيقية أن تنتهي إلى خاتمة مخيبة للآمال – كما حدث لها في الفشل الذريع لعصر السلام الأوغسطى في تحقيق الدوام الذي كان متوقعة له ؟ أليس هناك إذن فرصة للتوبة ؟ ألا يستطيع إطلاقا الحاكم الذي استباح النفوس مرة وانتهك الحقوق والحرمات أن يغير حقا من هيئته ويتدثر بدثار الأب الروماني ؟ إن الإجابة عن هذا السؤال المؤلم تتضمنها أنشودة هورسية [1] نظمها شاعر إنجليزي عند رجوع قيصر غربي من غزو ته الظافرة التي بدا فيها أن الظافر في النهاية قد أتم عمله الحربي منتصرة، قصيدة يدل فولها على أنها أنشودة نصر قيلت احتفاء بنصر معين تدق أجراس الموت ناعية كل حالات النزعة الحربية في المرشحين الاثنين الأخيرين منها :

ولكنك تزحف إلى الأمام بلا كلل

يا ربيب الحرب والحظ السعيد

وما زلت تبقي السيف منتصبا

---

(1) من طراز شعر هورس ذلك الشاعر الروماني الذائع الصيت.

حتى تنال النصر الأخير

إن سيفك عليه أن يرهب فوق إرهاب الجيوش

أطياف الليل البهيم

وعليه أن يحتفظ بالسبل التي

تؤدي إلى القوة بشكل أكيد[١]

إن الحكم المصاغ بأسلوب بديع على مجرى حياة أسبق مريدي الخلاص بالسيف في التاريخ الحديث لمدنيتنا الغربية له حمة في ذيله لها مع ذلك وخذ أشد قوة يتمثل في قول القرن التاسع عشر المأثور إن. الشيء الوحيد الذي لا يمكنك عمله بحراب البنادق هو أن تجلس عليها، إن الأداة التي قد استعملت مرة لتسلب الحياة، لا يمكن إذن أن تستعمل لحفظ الحياة وقتها بريد مستخدمها. إن مهمة الأسلحة هي القتل. وإن ذلك الحاكم الذي لم يتردد في أن يخوض طريقه إلى العرش على أشلاء القتلى، سيجد – إن هو حاول أن يحتفظ بقوته بعد ذلك دون التجاء آخر إلى الفنون البشعة التي أكسدته إياه – إنه عاجلا أو آجلا – ستواجه مشكلة الاختيار بين أن يدع قوته تفلت من بين يديه و بين أن يلجأ إلى تجديد تمسكه بها عن طريق دورة أخرى من دورات إراقة الدماء. إن الرجل الذي يسلك سبيل العنف لا يمكنه أن يتوب توبة نصوحا عن عنفه، وفي نفس الوقت يستفيد به باستمرار. إن قانون كارما

---

(١) الشاعر أندرومارفيل في قصيدته المدرسية بمناسبة رجوع كرمويل من ارلندة. (المترجم)

الذي يتلخص في اعتقاد البوذيين أن حالة الإنسان مرتبطة بحياته السابقة لا يمكن التملص منه بهذه السهولة. إنه من المحتمل أن يكون في استطاعة مريد الخلاص بالسيف أن يبني بيته على الرمال، ولكنه لا يستطيع أبدا أن يقيمه على صخر صلد، ولا يستطيع أن يشيد بناء خالداً عن طريق التناوب بتقسيم العمل بين أشخاص كداود مخضبة أيديهم بالدماء و بين أشخاص بر آه كسليمان، وذلك لأن الأحجار التي سيستعملها سليمان في البناء ستكون من نحت داود وإن الاعتراض الذي وجه للوالد : لا تدنى بيتا لاسم لأنك رجل حروب وقد سفكت دما[1] » هذا الاعتراض ينبيء عن مصير البيت الذي بناه الإبن بالنيابة عن والده.

إن الفشل النهائي لجميع الجهود لكسب الخلاص لا تعلنه الأشعار والأساطير والأقاصيص حسب، ولكنه يتضح في التاريخ أيضا ؛ وذلك الآن. الجرم الذي يقترفه الآباء بالتجائهم إلى السيف تمتد لعنته إلى الجيل الثالث أو الرابع من أولادهم، وإننا لنجد في عصرنا هذا أن سلالة المستعمرين البروتستانت الذين أقامهم كرمويل في أرلندة لقمع مملكة كاثوليكية مغلوبة على أمرها أخرجوا من أملاك أجدادهم الذين حصلوا عليها بوسائل غير مشروعة بنفس وسائل العنف والجور التي هم مدينون لها بحصولهم على تركتهم المحلية للعنات وفي سنة ١٩٣٧ نجد أن ثروة رجال الأعمال البريطانيين في ميناء ومستعمرة دولية في شنغهاي أنشئت جورا نتيجة لحرب الأفيون ١٨٤٠ – ١٨٤٢ م حاق بها الدمار

(1) التوراة : أخبار الأيام الأول إصحاح ٢٨ العدد ٤. (المترجم)

على أيدي اليابانيين والصينيين الذين تتلمذوا في مدرسة النزعة الحربية يحدوهم الممثل الذي استقوه من النجاح البريطاني الماضي المؤقت في تحويل فظاظتهم الحربية إلى ربح تجاري وهذان الحكمان التاريخيان ليسا بحكمين استثنائيين. إن المخلصين بالسيف القدامى كانوا قوادا وأمراء اجتهدوا أن يؤسسوا أو نجحوا في تأسيس تلك الإمبراطوريات التي آلت إليها المدنيات المنحلة أو في الاحتفاظ بها، حينما عاشت خلال أوقات المتاعب، إلى النهاية المريرة. وعلى الرغم من أن الانتقال من وقت المتاعب، إلى الإمبراطورية كفيل بأن يجلب معه نجدة عاجلة للأبناء المعذبين المجتمع منحل، لدرجة أنهم أحيانا يظهرون عرفانهم بجميل مؤسس هذه الإمبراطورية الظافر بعبادته كإله، فإننا نجد حينما نقبل على دراسة هذه الإمبراطوريات بتحقق أكثر، أنها على أحسن حالاتها قصيرة الأجل. ولو أنها أصرت على تجاوز مدى عمرها العادي، نتيجة لأحد الأعمال الباهرة، فإن عليها أن تدفع ثمن امتداد أجلها غير الطبيعي، بانحدارها إلى جرائم اجتماعية شنيعة تحمل من الوبال في طياتها ما تجلبه أوقات المتاعب، التي تسبق تأسيس الإمبراطوريات، أو ما تجلبه فترات الخمود التي تعقب سقوطها حينما يحين أجلها العادي.

وفي وقت المتاعب الإغريقية الذي استمر من حوالي ٤٣١ ق.م إلى ٣١ ق.م يمكننا أن نلاحظ في الجيل الأول براسيداس الإسبرطي الباسل يضحي بحياته لتحرير دول المدن الإغريقية في خالكيديسيا من النير الأثيني – وذلك حسب لتهدم ما بناه في خلال أقل من نصف قرن أيد إسبرطية أخرى قدر لها أن تفتح الطريق أمام فيليب ملك مقدونيا

ليضع نيرا أثقل على عنق كل ولاية في بلاد الإغريق عدا إسبرطة نفسها. وفي أعقاب براسيداس يقدم متشامخا مواطنه ومعاصره الشرير ليساندر الذي حرر بنجاح دول المدن الإغريقية على الشواطئ الأسيوية ليحر إيجه، ووجه ضربة قاضية للسيادة البحرية الأثينية، وذلك فسب ليجلب على رعايا أثينا السابقين ألوانا من العذاب أشد وأقسى بكثير مما كان يصيبهم على أيدي الأثينيين، وليضع أقدام دولته على طريق قدر له أن يدفع بها في خلال ثلاث وستين سنة من ايجوسبوتامي إلى ليكترا. ومن ذلك الوقت فصاعدا نجد كل جيل يتلو ذلك يضيف شخصا ما إلى استعراضنا هذا. إننا ترى شخصا كإبامينونداس الطيبي يحرر الأركادين والمسينيين وينزل عقابا بإسبرطة كما أوقع ليساندر عقابا بأثينا. وذلك فقط ليستفز الفوشيين ليوقعوا بطيبة نفسها نفس العقوبة. ونرى شخصا كفيليب المقدوني يخلص الإغريق من النقمة الفوشية وينادي به أهل طيبة وتساليا المكابدون الأصليون لهذه النقمة و صديقا بارا ومخلصا – وذلك فسب ليكيت حرية هذين الشعبين الإغريقيين اللذين بلغ بهما البله يوما إلى أنها عقدا منتهى آماطها عليه. ونرى شخصا كالإسكندر ينشد رضاء الهيلينين عن زعامة مقدونيا بقيادته لهم في سعيه لتقديم الإمبراطورية الفارسية القديمة غنيمة لهم – وذلك فحسب ليفقد مقدونيا الزعامة التي أكسبها والده لها، وليغذي نار حرب أهلية بسكبه في الخزائن الحربية لحلفائه كنزا أنفق أباطرة الإمبراطورية الفارسية القديمة قرنين في جمعة.

ويمكننا أن نلاحظ في النصف الآخر من العالم الهيليني إلى الغرب

من الإدريا تيكى موكيا معاصرا من المخلصين بالسيف الفاشلين. إن علينا فحسب أن نسرد أسماءهم – ديونيسيوس الأول، وديونيسيوس الثاني، واجاتوكليس، وهيورو، و هيرنيموس – وذلك لكي نلاحظ أن فشل هؤلاء الدكتاتوريين كل بدوره يتضح من مجرد الحقيقة التي تتلخص في احتياج كل منهم إلى خلف ليقوم بنفس العمل كله مرة أخرى. إن مشكلة إنقاذ الحضارة الهيلينية في الغرب بإقامة اتحاد مقدس على قوة كافية لمقاومة الضغط المزدوج المنافسين السريانيين من إفريقيا والمتطفلين البرابرة من إيطاليا بقيت دون حل، حتى دمر منبت الحضارة الهيلينية في صقلية بتحويله إلى ساحة للصراع من أجل السيادة العالمية بين قرطاجنة وروما.

ويمثل كتيبة مريدي الخلاص هذه في العالم المسيحي الأورثوذكسي أشخاص أكثر رحمة دون أن يكونوا أشد أثرا. وفي المجتمع الرئيسي للبلاد المسيحية الأورثوذكسية نرى اليكسيوس كو منيسيوس (الذي تولى من ١٠٨١ م إلى ١١١٨ م) ينتزع إمبراطورية رومانية شرقية متداعية من بين في النورمانديين و السلاجقة ببسالة تماثل ما اتصف به داود حينها أنقذ حمله من بين أنياب الأسد والدب. وبعد ذلك بقرن نرى شخصا كتيودور الاسكاريس يأبى أن يقنط من حالة الإمبراطورية بعد كارثة ١٢٠٤م الفادحة التي لم يسبق لها مثيل، ويقف صامدا خلف جدران نيقيا ضد الغزاة الفرنجة المدينة قسطنطين المقدسة. ولكن هذه البطولة البيزنطية كلها ذهبت أدراج الرياح. وذلك لأننا نجد في التاريخ المفجع للإمبراطورية الرومانية الشرقية أن جالوت الفرنسي الذي أخذ يتجول طلبا للفريسة في الحرب الصليبية الرابعة لم يلق مع ذلك المصير الذي لقيه

الدب النورماندى والأسد السلجوقى. وإن استرجاع القسطنطينية النهائي بوساطة ميخائيل باليولوجوس، ذلك الاسترجاع الذي بدأ في تلك اللحظة أنه قد توج عمل تيودور لاسكاريس بنجاح يتيم، ثبت أن عاقبته كانت فحسب وضع نهاية للإمبراطورية بأن أبان للعثمانيين الطريق من الجانب الأسيوي إلى الجانب الأوربي لمضايق البحر الأسود. وفي تاريخ الفرع الروسي من المجتمع المسيحي الأورثوذكسي في اسطاعتنا أن نتبين مماثلين لأليكسيوس كوميسيوس و تيودور لاسكاريس في إسكندر نيفيسكي (الذي تولى من ١٢٥٢ إلى ١٢٦٣ م) وديمترى دو نسكوى (الذي حكم من ١٣٦٠ إلى ١٣٨٩) أولئك الذين استعملوا سيوفهم من أجل خلاص العالم الروسي في أثناء وقت متاعبه المتقطع (من حوالي ١٠٧٨م إلى ١٤٧٨م) من هجمات الوثنيين اللتوانيين والصليبيين التوتونيين من الشمال الغربي التي حدثت في نفس الوقت مع هجمات الرعاة المغول من الجنوب الشرقي. إن أبطال المسيحية الأرثوذكسية هؤلاء كانوا أسعد حالا في عصرهم من أنداده الإغريق، وذلك لأن الحصن الذي احتفظوا به ببسالة كبيرة وسط هذه الظروف القاسية غير المواتية لم يكن ليقع في أيد أجنبية في الفصل الثاني من الرواية. ولكن إسكندر وديمتري لم يكونا أكثر نجاحا من أليكسيوس و تيودور في إنجاز مهمتهم الشخصية ألا وهي وضع حد "الوقت المتاعب"

ومن الجلي أن هؤلاء المخلصين بالسيف الذين كان من حظهم أن وجدوا في أوقات المتاعب، من معدن هيرقليز دون أن يكون بهم مسحة

من خلال زيوس. ولكن الكتيبة التي تأتي في الاستعراض في أعقابهم تتكون من مولدين من الطراز الهرقلي والطراز الجوبيتري[1]. إنهم لا يعفون من القيام بما قام به هيراقليز من أعمال الكفاح، ولكنهم أيضا لا يقضى عليهم أن يقوموا بها دون أمل في الحصول على جزاء من جوبيتر. إن هؤلاء الهيراقليين الجوبيتريين هم رواد مؤسسي الإمبراطوريات الناجحون. إنهم يقومون بالدور الذي قام به موسى بالنسبة ليوشع، أو الدور الذي قام به إلياس بالنسبة للمخلص الدنيوي، أو الدور الذي قام به يوحنا المعمدان بالنسبة للمسيح (إذا صح أن يقارن مريدو الإصلاح في مجتمع دنيوى برسل مملكة ليست في هذه الدنيا). إن بعضا من هؤلاء الرواد يموتون كما مات موسى دون أن يجتاز نهر الأردن أو يحصل على أكثر من نظرة من فوق قُنَّة القسجة [2] إلى أرض الميعاد. بينما هناك آخرون ينجحون في شق طريقهم ورفع راية مملكتهم هنيهة على الشط الآخر، ولكن هذه الأرواح المقدامة التي تسعى أن تنتزع نصرا مبتسرا من بين يدي قدر ممتنع يقتص منهم بعقاب يتفاداه أنداده الذين يستسلمون لمصيرهم ويحنون الرأس له، وذلك لأن الإمبراطوريات المبتسرة التي أقاموها تنهار كأنها بيوت من الورق المقوى، بالسرعة التي أقيمت بها. وتحتل المجهودات المبتسرة لمقيمي هذه الأبنية الواهنة مكانها في التاريخ كتفاريغ ورقية مظهرة صلابة عمل خلفائهم الذين يصلحون الكارثة بإعادة تشييد البناء المتهدم بأحجار من الجرانيت بدلا من ورق مقوى.

---

(1) نسبة إلى الإله جوبيتر كبير الآلهة عند الرومان (المترجم).

(2) قمة في جبل نبو الذي مات فوقه موسى (المترجم)

إن موسى الذي مات في البرية له صورة مماثلة في التاريخ الميليني وهو ماريوس الذي أبان الطريق ليوليوس ليقتفي أثره في الجيل التالي، وذلك على الرغم من أن خطوات ماريوس المترددة المبعثرة في سبيل إنشاء دكتاتورية تسودها المساواة لم تفشل في إقامة عهد يسوده النظام فحسب، بل ضاعفت أيضا حركة الفوضى القائمة بدرجة محزنة. وفي البلاد المسيحية الأرثوذكسية الرئيسية نجد با يزيد يلدريم العثماني قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من أن يكون له السبق في القيام بالعمل المزدوج الذي قام به محمد الفاتح وهو الاستيلاء على القسطنطينية و تصفية الحساب مع كارامان، وذلك حينما اجتيح الصاعقة وسط المعركة بتصادمه المفاجئ مع قوة حربية أعظم منه تصادما لم يكن هناك من سبيل لمقاومته.

وتتلو هذه الطليعة التي ترى أرض الميعاد دون أن تطأها إطلاقا فرقة ثانية من الرواد الذين يقدمون أظافر غول الفوضى المخيف إلى حين – ولكن ليس بشكل حاسم لا يمكنه من أن يرفع رأسه مرة ثانية أو يكشر عن أنيابه.

وفي البلاد الهيلينية تقاسم شخص كبومى و شخص كقيصر مهمة تقويم عهد من الفوضى الرومانية ليحلا محله عهدا من الأمن الإمبراطورى – وذاك لحسب لكي يتقاسما وزر القضاء على عملها المشترك بتحويل جيوشه ها ضد بعضها البعض. إن سادة الحرب المتنافسين قضيا على العالم الذي كانت مهمتهما أن ينقذاه بأن ابتلياه بنوبة أخرى من الحرب

الرومانية الأهلية، وقد تغلب المنتصر لكي ينبذ كما نبذ (عيسو) [1]، في الوقت الذي كان سيرث فيه البركة، وحينها لم يجد مكانا للتوبة إلى نشدها مخلصا بدموعه. إن قيصر لم يكفر عن موت بومى وكاتو مع ما اشتهر به من حلم ساعة قدرته المطلقة البادية للعيان. ومع ذلك فإن القاتل، الذي أمسك سيفه عن ذبائح أخرى، قدر له أن يلقي حتفه بخناجر أعداء منهزمين كان قد أبق على حياتهم، وبهذه الموتة الشنيعة أورث قيصر لعالم يرثي له رغب رغبة مخلصة في إنقاذه، ضمن تركته التي لم تتضمنها وصيته، نوبة أخرى من الحرب الأهلية. وكان على السيف أن يتقاضى ضرائب أخرى من الأنفس ومن سعادة الناس قبل أن ينجز ابن قيصر المتبنى إنجازا حقيقيا تاما المهمة التي أذهبها قيصر و بومى بتزقهم الشديد أدراج الرياح. إن أوغسطوس نجح تماما بعد التغلب على آخر أعدائه، في تسريح الجيوش المتضخمة التي تركت تحت تصرفه غداة موقعة أكتيوم.

وفي التاريخ السرياني نجد ندا لديفوس يوليوس في كورش، الذي أراد

أن يسدل عهدا من السلام الفارسي على عالم قد مزقته سورة الجنون الحربي الأشورى. إن الاهتمام الذي أبداه كورش للعلامة التي أرسلت من السماء بوساطة أبولو [2] تلك العلامة التي جعلته يستغفر عن الشر الذي أراده بكرويسوس كان عديم الجدوى. وبدلا من أن يعرق

---

(1) أخو يعقوب عليه السلام (المترجم).

(2) إله الشمس والشعر والموسيقى والغيب والشفاء.

كورش عدوه المهزوم حيا، أخذه مستشارا له ووضع ثقته فيه، ليفقد حياته بعد ذلك بسنين، بسبب أتباعه لنصيحة سيئة أسداها له كرويسوس بنية حسنة. إن الكلمة الأخيرة في مجرى حياة كورش قالتها ملكة الرعاة حينما قطعت على نفسها عهدا أن تروى شهوة سيد الحرب الفارسي للدماء، تلك الشهوة التي لا يطفأ ظمؤها. وقد نفذت توميريس تهديدها في حينه في ميدان القتال بملأ قربة من قرب الخمر بدماء القتلى وتخضيل شفتى جثة كورش فيها. ولم يكن كورش نفسه هو الذي هلك فحسب بالسيف الذي استله ؛ إذ أن موت مؤسس الإمبراطورية الفارسية القديمة قد توج بتداعي صرحه المهيب. وقد ألحق كامبيسيس بعد السلام الفارسي الذي أقامه كورش نفس الدمار الذي ألحقه شخص مايوس وشخص كنير ون بعهد السلام الروماني الذي أقامه أكتافيوس. وكان على دارا أن ينقذ عمل كورش المتداعي من الفناء، كما أنقذ فسياسيان عمل أوغسطوس.

ونجد بعد ذلك بأكثر من ألف عام في نفس العالم السرياني أن سيد الحرب العربي عمر قد وضع نهاية متأخرة لفترة طويلة من التدخل الهيليني باتخاذه خطة سيد الحرب الفارسى كورش في الأعمال الحربية الخاطفة. وقد أظهر فاتح بيت المقدس نفس الأناة التي أظهرها فاتح سارديس – وذلك ليظهر مرة أخرى أن لا مكان للتوبة لمريدى الخلاص بالسيف – فإن البناء الذي شيده عمر تحطم بدرجة مخزية وبعد ذلك أنقذ من الفناء بطريقة تدل على المهارة الفائقة، وذلك على الرغم من أنه في تاريخ الخلافة، نجد أن دورى كامبيسيوس و دارا قد قام بكليهما

الواحد بعد الآخر في تناسق تام نبوغ سياسى عربى واحد متعدد الكفايات. إن معاوية قضى دون اكتراث على عالم أنهك قبيل ذلك بوساطة آخر جولة من صراع غير حاسم بين روما وفارس أن يعذب بحرب أهلية لكي يغتصب الداهية الأموي من يدي ابن عم النبي وزوج ابنته تركة النبي محمد السياسية.

ومع ذلك فهناك جماعة ثالثة في كتيبة روادنا، وتتكون هذه من الهرقليين الذين يورثون خلفاءهم ثمار أعمالهم دون أن يتذوقوا هذه الثمار أنفسهم، ولكن أيضا دون أن تكون هناك ثلمة أو نكسة. في العالم البابلي نجد نابو بلاصر (الذي تولى من ٦٢٦ إلى ٦٠٥ ق.م) يقضي حياته في إتمام القضاء على حياة النمر الأشوري، وذلك لكي يجلس بختنصر (الذي تولى من ٦٠٥ إلى ٥٦٢ ق.م) غير منازع على عرش الإمبراطورية البابلية الجديدة التي لم تكن لتستطيع أن تبقى في أمان حتى تدمر نينوى.

وفي نظر مؤرخ من عصر أحدث يمكنه أن يرى مجريات حياة مؤسسى الإمبراطوريات في ضوء عواقبها البعيدة، لا يبدو هؤلاء الأشخاص الذين هم من الطراز الجوبيتري مختلفين اختلافا بينا عن أسلافهم من الطراز الهرقلي. ولكن الناقد المعاصر الذي لا يستطيع أن ينظر إلى الأشياء نظرة سطحية يبدو لناظريه في هذا المجال كل ما بين الفشل والنجاح من تباين. إن منشى الإمبراطوريات يبدو أنهم قد حققوا في اللحظة المناسبة برجولة كل ما كافح أسلافهم من أجله ولكن دون جدوى ؛ ويبدو أن الذي يكفل واقعية هذا النجاح ليس ما تتركه حياة

هؤلاء المؤسسين وأعمالهم من أثر فحسب، بل إن أشد العوامل الحاسمة في ذلك هو رخاء الذين يخافون هؤلاء المؤسسين. إن مجد سلمان هو أفصح شاهد يتحدث عن إقدام داود.. دعنا إذن نستمر في تقصينا لهؤلاء المخلصين بالسيف باستعراض هؤلاء السليمانيين الذين ولدوا متدثرين بالدثار الإمبراطوري. إن سيوف هؤلاء تكون حتما ملفوفة في ثنايا رداء إمبراطوري، وإذا حدث يوما ورأيناها تبدى حقيقتها للعيان بإظهار أنصالها المخبأة، فإن هذا العمل من كشف النفس لا تمليه الضرورة، وإنما يكون الحافز له نزق. وإذا كان الخلاص بالسيف هو تحمل الأبناء أوزار الآباء فيجب أن يكون هذا في الجيل السليماني أو لا يكون أبدا في تاريخ انهيارات المدنيات كله. لذلك دعنا تفحص أولئك السليمانيين بتمعن.

إن عهود هؤلاء السليمانيين تتكون من الفترات السعيدة نسبية من السلام الجزئي والرخاء، تلك الفترات التي تبدو عصوراً ذهبية، إذا نحن قصرنا نظرتنا على الأوقات التي عمرتها هذه الإمبراطوريات التي تقع فيها هذه الفترات، ولكنها تبدو حقة سحب صيف بمجرد أن يمتد بصرنا فيشمل أجل المدنية كله الذي يعتبر في تاريخه مجيء إمبراطورية وذهابها مجرد حادث واحد فقط من عديد الحوادث التي تتضمنها قصة انحلال طويلة. إن استقصاء مبنية على التجارب العملية العمود الصفاء القصيرة المدى هذه من شأنه أن يظهر ميز تين بارزتين لهذه الظاهرة التاريخية. سيجد أنه يبدو عليها تناسق مجيب في سماتها مع تفاوت يثير الدهشة كذلك في مدد بقائها.

إن عهد الاعتدال والصفاء الإغريق القصير بدأ عند اعتلاء نيرفا العرش في عام ٩٦م، وانتهى عند موت الإمبراطور ماركوس في عام ١٨٠ م، وهذه السنين الأربع والثمانون أقل قليلا من ربح مدة بقاء عصر السلام الروماني كله، الذي يمكن احتساب بدئه في عام ٣١ ق.م غداة موقعة أكتيوم، وانتهائه عام ٣٧٨ م يوم موقعة أدرنة، وذلك إذا اتخذنا التقويم الاصطلاحي الذي يعتمد في تأريخه على الحوادث العامة. وفي تاريخ المجتمع المصري نجد أن عد الاعتدال والصفاء القصير للإمبراطورية الحديثة دام مدة أطول وذلك من اعتلاء تحتمس الأول حوالي ١٥٤٥ ق.م إلى موت أمينحتب الثالث عام ١٣٧٦ ق.م. ولكن عمر موسم الصفاء القصير للإمبراطورية الوسطى، تلك الإمبراطورية التي كانت أول إمبراطورية مصرية، يفوق كلتا هاتين الفترتين، وذلك لأن عهد الصفاء المصري الأول هذا جاء تقريبا في وقت واحد مع الأسرة الثانية عشرة التي بدأ حكمها حوالي سنة ٢٠٠٠ ق م. وانتهى حوالي سنة ١٧٨٨ ق. م.؛ وحتى لو أرخنا فصل الحوادث العاصفة من موت أمينمحات الثالث عام ١٨٠١ ق.م.، فإن فترة الصحو التي أضاءت فيها الشمس، تشمل نصف عمر عصر السلام الطيب كله الذي استغرق في مجموعه حوالي أربعة قرون، وذلك إذا اعتبرنا بدأه من اعتلاء منتوحتب الرابع العرش (الذي حكم من حوالي ٢٠٧٠ ق.م. إلى ٢٠٦٠ ق.م.، واعتبرنا نهايته غزو الهكسوس حوالي ١٦٦٠ ق.م.

إن عهود الصفاء التي استمرت عهود متتابعة، واستمرت تقريبا في حالة واحدة على الأقل خلال عهد حكم أسرة بأكمله، تختلف اختلاف

بينا في مدة بقائها عن عهود الصفاء القصيرة التي من الواضح أنها أمثلة حقيقية أيضا لهذه الظاهرة الاجتماعية نفسها، لكنها لم تتجاوز حكم ملك واحد اقترنت باسمه. وفي عهد الخلافة العربية نجد أن عهد الصفاء القصير المدى المشهور في خلافة هارون الرشيد (الذي تولى من ٧٨٦ إلى ٨٠٩م) يضيء ببهاء عظيم، وذلك بفضل إطار الظلام الدامس الذي أحيطت به هذه الحالة من النور. إن مظاهر الأبهة والجلال للخلافة العباسية التي استفادت من النتائج المتجمعة المجهودات سلسلة طويلة من أسلافها الأمويين بدأت من جهة بدورة سابقة من الفوضى انتزع فيها أسلاف هارون الخلافة من قبضة الأمويين، ومن جهة أخرى تليت بعصر من التدهور وقع فيه الخلفاء العباسيون بعد هارون في استعباد مذل لحرسهم التركي.

وفي الأجزاء الرئيسية للبلاد المسيحية الأرثوذكسية أوجد عهد السلام العثماني عهد صفاء قصير المدى في عصر سلمان القانوني (الذي تولى من ١٥٢٠ إلى ١٥٦٨م)، ذلك الأمير العثماني الذي حكى في الحياة الواقعية مسجد سليمان بن داود الأسطوري. إن معاصرى سلمان الغربيين تأثروا مثلها تأثرت ملكة سبأ باتساع ملك سلمان العصر الحديث و بوفرة ثروته وعظمة مبانيه تأثرا سلبهم كل قوة. ولكن اللعنة التي يحدثنا بها الكتاب المقدس والتي عاش سلمان حتى جلبها على نفسه تعرض لها أيضا سلمان القانوني إذ قال الرب لسلمان (من أجل أن ذلك عندك، ولم تحفظ عهدى وفرائضى التي أوصيتك بها فإني أمزق

المملكة عنك تمزيقا وأعطيها لعبدك) [1]. إن سليمان القانوني كان البادشاه العثماني الذي بث لغما في أسس النظام الاجتماعي العثماني بأحداثه أول ثغرة في القاعدة الأساسية ألزم بها أن يكون حرس البادشاه من سبايا أولاد المسيحيين وأن المسلمين الأحرار لا يجوز تجنيدهم لهذا الغرض لأخوتهم له في الإسلام. وبسماح سليمان القانوني بتجنيد أولاد الانكشارية بين أولاد العجم فتح مسارب الفيضان أمام تيار فرق الإنكشارية الموهن المدمر. وهذه الكارثة التي كانت من صنع السلاطين العثمانيين مزقت المملكة حين آن الأوان وانتزعتها من يد السلاطين العثمانيين واعطتها لرعيتهم.

وإذا صرفا النظر الآن عن الأجزاء الرئيسية للبلاد المسيحية الأرثوذكسية، وحولناه إلى الفرع الذي تشعب منها في روسيا، فإننا من أول نظرة قد تتردد في الاعتراف بمعاصر سليمان القانوني ايشان الرهيب (الذي تولى من ١٥٣٣ إلى ١٥٨٤ م) كنظير له. أفي الإمكان أن يكون عهد إرهاب وعهد رخاء قصير الأمد متلائمين ؟ إن الجوين يثير آن دهشتنا لتناقضهما هذا التناقض الحاد لدرجة أننا قد نتساءل عن إمكانية تعايشهما سويا في مكان واحد ووقت واحد. ولكن سجل أعمال إيفان الرهيب يجبر نا أن نعترف أن حكمه كان أيضا عهد رخاء قصير من نوع ما، وذلك لأن هذا العهد هو العهد الذي شاهد أمير الدولة المسكوفية يتخذ لقب إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية ويحذو حذوه، ويبرر جرأته هذه بغزوه لقازان واستراخان و بكشفه لمنطقة البحر الأبيض الروسي و

(1) الملوك الأول الإصحاح ١١ عدد ١٢ (المترجم)

سيبيريا لقد كان هذا بالتأكيد موسم رخاء قصير، ولو أنه صحبه رعد في السماء، وهذا التفسير العهد ايشان الرهيب تؤكده النتيجة. لقد ألقت ظلا على أضواء شمس حكم هذا القيصر المنكودة الطالع قبل موته عواقب حرب شنها من أجل الحصول على منفذ إلى بحر البلطيق ظلت مستمرة مدة أطول حتى من الحرب التي نشبت بعد ذلك للغرض نفسه بوساطة بطرس الأكبر، ولكنها انتهت بفشل ذريع على نقيض ما أحرزه بطرس من نجاح باهر. وعند ما مضى إيشان انهالت ضربات المصائب بشدة و سرعة على الكيان السياسي الذي تركه من ورائه. لقد شاهد عام ١٥٩٨ إبادة أسرة روريك، وشاهدت الأعوام من ١٦٠٤ إلى ١٦١٣ انهياراً مؤقتاً للإمبراطورية المسيحية الأرثوذكسية الروسية، ولم تبرأ من هذا الانهيار تماما حتى تولى بطرس الأكبر.

ولو أننا رجعنا الآن بصرنا إلى الوراء لنستعرض قائمة مواسم الصفاء القصيرة المدى التي دامت مدة أطول من عهد حكم واحد، فإننا نلاحظ أيضا أن هذه على الرغم من قوتها البقائية، قد استسلمت في النهاية أمام هجوم موسم الشتاء. ففي التاريخ الميليني نجد أن كومودوس قد تبع ماركوس، وتلا اسكندر سيروس « الطغاة الثلاثين. وفي العالم المصري نجد أنه قد تولى بعد أمنحتب الثالث أمنحتب الرابع الذي شهر نفسه بتلقيب نفسه بالاسم الذي اختاره وهو إخناتون. بينما نجد في الإمبراطورية الوسطى أن السلسلة الطويلة من الأمينمحاتيين والسنوسرتيين الذين تبادلوا أمجاد الحكم أخلوا السبيل في النهاية لأسرة تتابع فيها لا أقل من ثلاثة عشر إمبراطورة قصيري الأجل على العرش وفقدوا التاج

الإمبراطورى خلال فترة وجيزة هي ربع قرن.

إن استقصاءنا مواسم الصفاء والرخاء القصيرة المدى يؤدي بنا في النهاية إلى النتيجة التي تتلخص في أن مجريات حياة السليمانيين تدحض بشكل حاسم بدلا من أن تبرر تبريرا حاسما الادعاء القائل بأن السيف يمكن أن يتحول إلى أداة للخلاص، وذلك سواء دامت عصور الصفاء والرخاء القصيرة حياة أسرة كاملة بأكملها، أو أتت وذهبت خلال فترة أوجز، فترة حكم فرد واحد، فقد رأينا أن الضرورة تحتم أن يكون هذا الموسم شيئاً عابراً. إن مجد سليمان من الأمجاد التي تتلاشى، وإذا كان سليمان قد فشل، إذن فداود – والطلائع التي مهدت السبيل لدواد– قد استخدموا سيوفهم دون جدوى. إن الحقيقة لتبدو أن السيف الذي ارتوى من الدماء مرة، لا يمكن أن يقمع بصفة دائمة من الارتواء بالدم مرة ثانية، أكثر مما يمكن أن نمنع تمرا، تذوق اللحم الآدمي مرة، من أن يصبح آكلا للبشر من ذلك الوقت فصاعدا. إن النمر آكل البشر إنما هو نمر لا شك أن مصيره الهلاك، إن تفادي الرصاص قتله الحكاك [1]. ومع ذلك فتى لو أن النمر كان في استطاعته أن يتنبأ بمصيره المحتوم، فمن المحتمل أن يكون غير مستطيع أن يتغلب على نهم الالتهام الذي أثاره أول استطعامه للحم البشري في مجتر ته، وهكذا تكون الحال مع مجتمع قد نشد الخلاص مرة عن طريق السيف. إن أمته قد يندمون على ما قاموا به من المذابح، وقد يظهرون الرحمة تجاه أعدائهم، مثل قصر وأوغسطوس، وبينما هم يوارون سيوفهم آسفين، قد

---

(1) جرب الحيوانات. (المترجم)

يعقدون العزم بحسن طوية تامة أنهم لن يمتشقوه أبدا مرة ثانية إلا من أجل حفظ الأمن ضد المجرمين الذين لا يزالون مطلق السراح داخل حدود إمبراطوريتهم التي أنشئت حديثة أو ضد الهمج الذين لا يزالون يعيشون فسادا في المجاهل القاصية. وهو غرض من الأكيد أنه غرض خير ومن ثم يكون غرضا مشروعا. إنهم قد يؤكدون هذا القرار بقسم، وقد يحصدونه بتعويذة تبعد الشر عنه ولسبب ما قد يبدو أنهم نجحوا في القيام بالمهمة الفريدة الخيرة، مهمة شكم القتل وكبح جماحه وإسراجه إلى عجلة الحياة، ولكن على الرغم من أن عصر سلامهم العام الذي يبدو جميلا قد يقف ثابتة على أسس عابسة من أنصال سيوف مطمورة لمدة ثلاثين أو مائة أو مائتي عام، فقضى الزمن عاجلا أو آجلا على عملهم بالفناء.

إن الزمن يعمل حقا ضد بناة الإمبراطوريات التعساء هؤلاء من البداية وذلك لأن أنصال السيوف أسس لا تستقر إطلاقا. إن هذه السيوف الملطخة بالدماء سواء كانت مكشوفة أو مطمورة تظل تحتفظ بطبيعتها الشريرة التي تؤثر في مآلها. وهذا ليس معناه أنه ليس في استطاعتها أن تتحول حقا إلى أسس حجرية جامدة، ولكن لا بد أن تكون في حركة دائمة – مثل أسنان التنين التي مهما كان من صغرها فإنها تقفز إلى السطح مرة ثانية لتحصل على محصول جديد من الأنفس والمجالدين ذبحا وتقتيلا. وتحت هذا القناع الهادئ من السيادة التي لا جهد فيها نجد أن السلام العام للإمبراطوريات يخوض باستمرار معركة يائسة خاسرة ضد مارد جبار بين حناياها لم تتحصن ضده، وفي

استطاعتنا أن نرى أن هذا الصراع المعنوي يشن تحت ثوب من صراع سياسى.

وهل في استطاعة الحاكم الجوبيتري لإمبراطورية أن ينجح في كبح جماح تلك الرغبة الجامحة في فتوحات أخرى، تلك الرغبة التي لا يروى ظمؤها، والتي دفعت بكورش إلى الهلاك ؟ وإذا لم يكن في استطاعته مقاومة هذه الرغبة المغربية في إخضاع المتجبرين، هل يستطيع بأية حال أن يحمل نفسه على التصرف طبقا للنصيحة الفيرجيلية من العفو عن المهزومين ؟ وحينما نطبق هذين الاختبارين على العمل الجو بيرى، نجد أن هذا العمل نادرا ما يلازمه النجاح في البقاء زمنا طويلا تحدوه مقاصده الطيبة.

وإنا لنجد في تاريخ الإمبراطورية الهيلينية أن مؤسسها نفسه ضرب لخلفائه مثلا عملياً في الاعتدال بالإقلاع عن محاولة مد الحدود الرومانية إلى نهر الألب، وذلك قبل أن يترك لهم نصيحته المشهورة أن يقنعوا بالاحتفاظ بالإمبراطورية داخل حدودها القائمة دون أن يحاولوا توسيع رقعتها. إن موقف أوغسطوس يوضحه لنا سرد استرابو لقصة جدل شائعة دار حول إمكان استثناء بريطانيا من القاعدة التي وضعها أوغسطوس. وعلى الرغم من أن هذه المخالفة الغريبة للقاعدة ارتكبت في النهاية دون قصاص واضح، فقد أظهر تراجان بعد ذلك أصالة رأي أوغسطوس حينها خاطر مخالفة القاعدة على نطاق واسع بمحاولته تحقيق ح لم كراسيوس ووليوس وأنطونيوس في غزو الإمبراطورية البارثية. إن من التقدم الوقي من شط الفرات في هذا الجانب إلى سطح جبال

زاجوراس ورأس الخليج الفارسي كان استنفادة لا يحتمل الموارد الإمبراطورية الرومانية في المال والرجال. لقد نشدت الثورات لا في الأقطار المفتوحة حديثة التي تقع بين يديه حسب، ولكنها نشبت أيضا بين الشتات اليهودي في مستعمرات الإمبراطورية القديمة من خلفه، وكانت النتيجة أن السماء الصحو لعهد المجد الهيليني العابر الناشيء حديثة أخذت تكفر من لحظة الأخرى، و تطلبت من هادريان خليفة تراجان كل ما امتاز به من حكمة وقوة لتصفية هذه التركة المثقلة الرهيبة التي أورثها له سيف تراجان. إن هادريان أجلى قواته فورا عن الأراضي التي فتحها سلفه كلها عبر الفرات، ولكنه مع ذلك كان في استطاعته فيسب أن يستعيد الحالة الإقليمية للإمبراطورية لا الحالة السياسية التي كانت عليها قبل الحرب. إن عملية العدوان الذي قام به تراجان أحدثت أثرا في العقول السريانية عبر الفرات أعمق من إلغاء هادريان له. وفي استطاعتنا أن نؤرخ من هذا الحدث التاريخي الهام تغيرة في السجايا في الرقعة الممتدة عبر الفرات من العالم السرياني تغيرا ازداد نموا بفضل النكسات الرومانية إلى أن تحول إلى التجاء للسيف، وحتى أعلن رد الفعل في إيران عن نفسه في النهاية بطريقة حماسية في ثورة كان من نتيجتها إحلال الملك ستورك الساسانى محل الملك لوج الأرسامي، وما تبع ذلك من استئناف الهجوم الحربي المضاد ضد الغازي الهيليني، ذلك الهجوم الذي نجح في طرد الإغريقيين من مواقعهم في إيران والعراق في القرن الثاني ق. م.، ولكن هذا الهجوم توقف أخيرة منذ إبرام أوغسطوس في سنة ٢٠ ق.م.لصلح رومانى پارتى شريف. وتحت رعاية البادشاه

الساساني الثاني نجد أن إخلال تراجان في المدة بين عام ١١٣م إلى ١١٧م بالقاعدة التي وضعها أوغسطوس قد لاقى جزاءه في عام ٢٦٠م بتكرار الكارثة التي حلت بالجيوش الرومانية في عام ٥٣ ق.م. بوساطه البارثيين.

وفي التاريخ المصري نجد أن السيف الطبي الذي امتشقه أحمس (الذي تولى من ١٠٨٠ إلى ١٥٥٨ ق.م.) في تحرير وطنه من المستعمرين، واستخدمه تحتمس الأول في جولة انتقامية، وضعته الإمبراطورة حتشبسوت (التي تولت من ١٥٠١ إلى ١٤٧٩ ق.م.) عن عمد في غمده ليمتشقه قصدا تحتمس الثالث (الذي حكم من ١٤٧٩ إلى ١٤٤٧ ق. م.) بمجرد أن أزال الموت قبضة حتشبسوت الكابحة لجماحه. إن تأثير النزعة الحربية في الحياة المستقبلة للمجتمع المصري، تلك النزعة التي تحكمت في سياسة الإمبراطورية الحديثة مدة الأعوام المائة التالية (من حوالي ١٤٧٩ إلى ١٣٧٩ ق. م.) لم يمكن إطفاء جذوتها بنبذ إخناتون العاطفي السياسة ورثها عن أسلاف أربعة – بأكثر ما أمكن لسياسة نابونيدوس الصبيانية أن تتجنب نقمة نزعة بختنصر الحربية، تلك السياسة التي تتلخص في تجاهل الحقائق المريرة لتركته الإمبراطورية ومحاولته نسيان هموم الدولة في غمرة من مباهج دراساته في العاديات القديمة.

وفي تاريخ الدولة العثمانية نجد محمد الفاتح (الذي تولى من ١٤٥١–١٤٨١م) يقصر أطباعه عامدا على مشروع جعل عهد السلام العماني قاصرا على بسط نفوذه التاريخي على البلاد المسيحية

الأرثوذكسية (باستثناء الشعبية التي تفرعت عنها في روسيا) وصمد أمام كل الإغراءات لغزو البلاد المجاورة من البلاد المسيحية الغربية والبلاد الإيرانية، ولكن خلفه سليم الأول خرج على شريعة إنكار الذات الذي استنها محمد الفاتح، وكان من بين أسباب هذا دون ريب أن سياسة إسماعيل شاه العدوانية قد أجبرته على سلوك هذا السبيل. بينما ارتكب خليفة سليم، سلمان (الذي تولى من ١٥٢٠ - ١٩٦٦م)، الخطيئة الأخرى وهي إخلاله بشريعة إنكار الذات في أوربا كذلك، وهي الخطيئة التي ثبت أيضا أنها أشد و بالا، ولم يكن في الإمكان تبريرها باعتذار سليم باضطراره إلى ارتكابها بحكم القوة القاهرة. وكان من نتيجة ذلك الإنهاك السريع القوة الدولة العثمانية بالاحتكاك الطاحن الذي نشأ عن الحروب الدائمة في جبهتين ضد أعداء استطاع العثمانيون هزيمتهم في الحرب مرارا وتكرارا، ولكنهم لم يستطيعوا إخلاء الميدان منهم. وأدى الأمر بهذا الانحراف السليمي والسليماني إلى أن يصبح من بين الطباع الوطيدة الأركان في سياسة الباب العالي، حتى أن التدهور الذي أعقب موت سلمان لم يحدث أي تحول دائم في صالح سياسة الاعتدال التي استنها محمد الفاتح. ولم تكد الحنكة السياسة لكوبر للى تجمع شمل قوة الإمبراطورية العثمانية المبعثرة حتى بددها قرا مصطفي في حرب عدوانية جديدة ضد الفرنجة قصد بها أن يمد حدود الدولة إلى الضفة الشرقية لنهر الرين. وعلى الرغم من أنه لم يصل أبدا إلى مرأى البصر من هدفه، فإنه قلد عمل سليمان القانوني بمحاصرة فينا. ولكن في عام ١٦٨٢ - ١٦٨٣ م كما في سنة ١٥٢٩ م برهنت العقدة الرئيسية في

الدرقة الدانوبية العالم المسيحي الغربي أنها عقدة صلبة يصعب على الجيوش العثمانية كسرها، ولم يذهب فشل العثمانيين في هذه المناسبة الثانية أمام فينا دون قصاص. إن الحصار العثماني الثاني لفينا تسبب في هجوم غربى مضاد استمر من عام ١٦٨٣ إلى عام ١٩٢٢ دون توقف جدى، ولم ينته حتى حرم العثمانيون من إمبراطوريتهم. ولم يكن ذلك فحسب بل إنهم اضطروا أيضا أن يتبرأوا من ثقافة جدودهم الإيرانية ثمنا للاحتفاظ بأوطانهم في آسيا.

إن قرار مصطفى باستثارته لهذا العش من الزنابير كما فعل سلمان من قبل قد ارتكب خطأ إجزركسيس القديم حينما شن خليفة دارا حرب عدوان ضد إغريق القارة الأوربية، وبهذا أثار هجوما إغريقيا مضادا انتزع من الإمبراطورية الفارسية القديمة فورا الكنار الإغريق الذي يحد ممتلكاتها في آسيا، وأدى في النهاية إلى تحطم الإمبراطورية نفسها حينما تولت العمل الذي بدأته القوة البحرية الأثينية تحت رعاية مستوكليس وأتمته قوة مقدونيا البرية تحت رعاية الإسكندر.

و يمكننا أن نرى في اختبار لنا من اختباريه القدرة على وضع السيف في غمده أن حكام الإمبراطوريات لا يظهرون بمظهر حسن جدا. ولو أننا انتقلنا من خصنا السياسة عدم الاعتداء على الشعوب التي تقع فيها وراء حدود هذه الإمبراطوريات إلى خصنا الثاني السياسة التسامح تجاه السكان الذين يعيشون بالفعل في ظلال عهد السلام العام الزاهر، فإننا سنجد أن جوبيتر قلما ينجح في هذا الاختبار نجاحا أفضل. وذلك على الرغم من أن الوعي الذي هو خاصية من خصائص بناة

الإمبراطوريات من المحتمل أن يجعل من السهولة عليهم أن يأخذوا بمبدأ التسامح.

إن الحكومة الإمبراطورية الرومانية مثلا قررت مبدأ التسامح الديني مع اليهودية، وحافظت على هذا القرار على الرغم من الاستفزازات اليهودية الشديدة المتكررة. ولكن قوة احتمالها كانت دون عمل أخلاقي أشد من ذلك صعوبة وهو اتساع هذا التسامح لفئة خرجت على الدين اليهودى نصبت نفسها المهمة جعل البلاد الإغريقية تعتنق الدين الجديد. وفي أول صدام حقيقي بين السلطات الرومانية والكنيسة المسيحية نجد الحكومة الإمبراطورية تتخذ أشد خطوة يمكن اتخاذها بجعلها اعتناق المسيحية جريمة جزاؤها القتل. وكان إعلان الحرب هذا على المسيحية حتى الموت هو القانون الوحيد من قوانين نيرون الوحشية الذي لم يلغه خلفاء هذا الطاغية على العرش الإمبراطوري. إن باعث هذا الحرمان للمسيحية من حماية القانون و اعتبارها دينا غير مسموح به بوساطة حكام الإمبراطورية الهيلينية له من الأهمية ما للنتيجة التي أدى إليها. إن الخاصية التي امتازت بها المسيحية والتي لم تحتملها الحكومة الإمبراطورية كانت امتناع المسيحيين عن تقبل دعوى الحكومة أن لها الحق في إجبار رعاياها أن يعملوا ضد ما تمليه ضمائرهم. وقد تحدى المسيحيون حق الامتياز الذي منح للسيف، ودفاعا عن خيانته الكبرى، نجد هذا السيف، الذي نجح أوغسطوس في أن يضعه في غمده، يخرج من غمده ثانية كثعبان يخرج من جحره، ليحارب هذه المرة في معركة مع قوة روحية لم يكن في الاستطاعة هزيمتها بضربات سلاح دنيوى. إن

الاستشهادات التي كانت أبعد ما يكون عن إيقاف تيار انتشار المسيحية ثبت أنها أشد العوامل تأثيرا في نشر المسيحية. وهذا النصر النهائي للروح الاستشهادية المسيحية على أسلحة الحكام الرومان دعم تباهى تيرتوليان أن الدم المسيحي المسال إنما كان ذرية ونسلا ؛ ذلك التباهي الذي يحمل في ثناياه روح التحدي والانتصار.

وكانت حكومة الإمبراطورية الفارسية القديمة مثل الرومان قد أخذت على نفسها من حيث المبدأ أن تحكم على حسب مشيئة المحكومين ؛ وقد نجحت أيضاً نجاحا جزئيا فقط في الاحتفاظ بتطبيق هذه السياسة عمليا. ونجحت تماما في أن تحوز ولاء الفينيقين واليهود، ولكنها فشلت في النهاية في إرضاء أي من البابليين والمصريين. إن الشهامة التي عفا بها كامبسيس عن الطروادبين لرفضهم أن يستخدموا في الجيوش التي تحارب أقرباءهم القرطاجنيين، والتي عفا بها دارا عن اليهود لرسالة زربابل [1] الوجيزة في الخيانة العظمى كانت كافية لتؤكد الولاء الذي كانت هذه الشعوب السريانية تحميل على أية حال أن تشعر به تجاه ملك عظم أنقذهم سيفه من. الاضطهاد البابلي من جهة ومن المنافسين الإغريق من جهة أخرى ولكن استرضاء رجال الدين البابليين بوساطة كورش و استرضاء دارا الرجال الدين المصريين كان عملا رائعة قصير الأجل. إن أية لياقة أو مداجاة لم تكن لتجعل ورثة الحضارات البابلية

(1) من نسل داود وقائد اليهود عند عودتهم من الأسر البابلي و الذي تولى بناء الهيكل للمرة الثانية في السنة الثانية من العودة. ويد تمكن أعداؤه من جمال هذا العمل يقف ولگه استؤنف بعد ١٦ عاما بعد رسالة زربابل الدارا. (المترجم)

والمصرية يرتضون سيطرة أجنبية بصفة دائمة، ولم يتوقف قيام الثورات إطلاقا في مصر و بابل حتى أخضع أجزركسيس بابل وأخضع أوكيوس مصر.

ولم ينل العثمانيون نجاحا أفضل في استرضاء رعيتهم – على الرغم أيضا من اتساع مدى الاستقلال الثقافي والمدني الذي منحوه بمقتضى النظام الملى. إن الحرية التي منحها هذا النظام قانونا أفسدها التحسف الذي طبق به في الواقع. إن الحكومة العثمانية لم تستطع إطلاقا أن تكسب قلوب رعاياها تماما، والطريقة العملية المحفوفة بالمخاطر التي أظهر بها هؤلاء الرعايا عدم ولاتهم، بمجرد أن أوجدت سلسلة من الكوارث العثمانية لهم ثغرة للخيانة، دعت خلفاء سليم الأول إلى الأسف الشديد لكون هذا الرجل العمل القاسي القلب (إن صحت القصة) قد منعته الجهود المشتركة التي بذلها كبير وزرائه بيري باشا وشيخ الإسلام جمالي من تنفيذ خطة إبادة الأغلبية المسيحية الأرثوذكسية من رعاياه – كما أباد فعلا أقلية شيعية إمامية.

وسعى الشيخ جمالي هذا السعي، الذي كلل بالنجاح للتغلب على المشروع الشنيع للسلطان سليم، لم يكن الدافع إليه مشاعره الشخصية الإنسانية فحسب، بل الأوامر الثابتة للشريعة الإسلامية أيضا، تلك الأوامر التي كان مكلفا بمقتضى مهنته أن يقيمها. لقد قضت الشريعة أن على أمير المؤمنين أو واليه أن يبقى على غير المسلمين من أهل الكتاب، إذا امتنع هؤلاء عن رفع السيف في وجه السلطة الإسلامية، وطالما أعطوا ميثاقا أن يطيعوا السلطة الإسلامية واحتفظوا به ودفعوا

الجزية. وكان هذا في الحقيقة هو المبدأ الذي اتبعه بناة الإمبراطورية الإسلامية الأوائل، وكان إخلاصهم لهذا المبدأ هو أحد الاعتبارات التي تعمل السرعة المدهشة التي أنجزوا بها عملهم. وبمجرد أن تحولت الغارات الابتدائية إلى فتوحات دائمة على مدى واسع، تدخل الخليفة عمر ليحمي سكان البلاد المفتوحة ضد أعمال السلب، وحتى ضد ما للجنود العرب المسلمين من حقوق. وعدم رغبة عثمان في التخلي عن سياسة عمر كلفت ثالث الخلفاء حياته، وقد أظهر الأمويون في هذه الناحية أهم الخلفاء الجديرون للخلفاء الراشدين الأربعة إن معاوية ضرب مثلا في التسامح لم يحتذيه الأمويون الذين أتوا من بعده فحسب، بل احتذاه أيضا العباسيون الأوائل. و لكن العصر الأخير في حكم العباسيين لم يمر دون أن يلطخه قيام الدهماء بأعمال عنف ضد لرعايا الذين كانوا قبل ذلك قد تضاءل عددهم من أغلبية إلى أقلية نتيجة للتحولات الجماعية إلى الإسلام، تلك التحولات التي اعتبرت نذيرا بتحطم الإمبراطورية واقتراب فترة ركود اجتماعية.

إن هذه النظرة الشاملة التي ألقيناها كشفت عن إصرار سيف وضع في غمده إصرارا انتحاريا على أن يمتشق ثانية بعد أن تذوق الدم مرة.إن السيف الملوث بأبي أن يصدأ في قرابه، ولكنه حتما يكون متلهفا أن يثب مرة ثانية في أي وقت خارج غمده، كما لو أن روح مريد الخلاص التي فارقها جسدها، ذلك المخلص الذي التجأ أولا إلى هذه الأداة المنحوسة، لا يمكن أن تستقر عندئذ حتى تكفر عن خطيئته في طلبه الخلاص عن طريق الجريمة بنفس السلاح الذي استعمله مرة في ضلال

بعيد. إن الأداة التي تعجز عن الإنقاذ قد تكون مع ذلك قادرة أن تستعمل كأداة للعقاب. إن سيفه ارتد إلى غمده تائبا يظل ضامنا ظمأ لا تنطفيء حد ته للقيام بهذا الواجب الذي يتفق مع ميوله وطبيعته، وسيجد الطريق مفتوحة أمامه في النهاية حينما يجد من الوقت حليفا له. ونجد حينما يحين الحين أن صخب المعركة الذي اخسر بعيدا متجها نحو أطراف البلاد المتمدينة، حتى أصبح بعيدا عن مدى السمع، يعود ثانية مدويا مع طلائع عصابات الحرب البربرية، الذين يتغلبون على الحاميات في الحصون، إذ يتعلمون منهم الخدع التي يستخدمها الجنود المحترفون والتي تقوده إلى النصر، وذلك في مدرسة حروب الحدود الدائمة ذات الأثر الكبير، أو ما قد يثير فزعا أشد، أن يجلجل هذا الصوت المخيف ثانية في انتفاضة داخلية لطبقة عاملة شعبية تحولت مرة أخرى إلى الكفاح – ما يذهل الأقلية المسيطرة التي خدعت نفسها باعتقادها أن هذه الطبقة المنحلة من الدهماء قد أرهبت ودوجيت حتى أصبح الخضوع عندها عادة مستقرة. إن أشباح الحرب والثورة، تلك الأشباح التي تحولت أخيرا إلى أسطورة، تنتشر مرة ثانية، كما حدث في الماضي، في ضوء النهار، وتلك الطبقة الوسطى، التي لم تشهد إراقة الدماء من قبل، تسرع الآن بإقامة أسوار حول مدنها المفتوحة مما يقع تحت أيديها من مواد : تماثيل مشوهة، هياكل انتهكت حرماتها، صحائف مبعثرة الأعمدة متداعية، كتل رخامية ذات نقوش منتزعة من آثار عامة منبوذة. إن هذه النقوش السلمية تعتبر عندئذ مفارقات في تاريخ تسلسل الحوادث ؛ إذ أن وقت الصفاء القصير قد ولى ؛ و عاد ووقت

المتاعب.. وهذه الكارثة الفادحة تنصب على رأس جيل قد ربي في الاعتقاد الواهم أن الأوقات العصيبة في العصور الخوالي قد ذهبت إلى الأبد دون رجعة.



الفهرس